سليم بركات

مُعَسْكَرات الأبد



منشورات الأبد

سليم بركات

مُعَسْكَرات الأبد



* الطبعة الأولى: ١٩٩٣
* جميع الحقوق محفوظة.
* الناشر: دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع.
الصنوبرة ـ أول نزلة اللبان ـ بناية عساف ـ الطابق السابع ص. ب
٦٤٩٩ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان تلفون: ٨٠٦٣٥٩

أقدار مرسومة في خفة لهؤلاء المنسيين

* الديكان «رَشْ» و «بلك».
* هبه ابنة أحمد كالو.
* هدله، أم هبة، زوج أحمد كالو.
* بسنه، ابنة موسى.
* جملو، ابنة موسى.
* زيري، ابنة موسى.
* ستيرو، ابنة موسى.
* الكلبان «توسي» و «هرشه».
* مكين.
* نفير.
* كليمه.
* ثلاث إوزات.
* جاجان بوزو.
* موسى موزان.
* خاتون نانو، زوج موسى.
* أحمد كالو.
* نعمان حاج مجدلو، سائق التوربيدو.
* كرمو موزان.
* سعيد آغا الدقوري، صاحب ثورة عامودا.
* حمّال الأمتعة والأقفال.
* كاني، زوج كرمو موزان.
* حسين مصطفى آغا، وجيه عشائري.
* نورا، زوج نعمان حاج مجدلو.

الفصل الأول

الموازين والسلالم

لم يكن في عيونهما أي ملمح للحقد، وهما يدوران أحدهما حول الآخر. كانا ذاهلين حتى أعماقهما، كأنما هما منكفئان إلى داخليهما للإعداد ـ طويلاً، وعلى نحو محبوك ـ للضربة القادمة. وفي دورانهما المتوفز كانا يتركان آثاراً خشنة في الطين الخريفي على الهضبة المشرفة على الجسر، الذي يصل السهل الكبير بالبلدة المتناثرة شمالاً، في آخر حقول القمح المشطورة بالطريق الإسفلتي، المتعرج كخاطرة لن تُسْتَكْمَل.

غضبهما كان يهتز اهتزازاً كسيقانهما المرتعشة التي ترتفع عن الأرض بالتناوب، ثم تنزل بالحركة المرتعشة ذاتها، قبل أن ينقض أحدهما لبرهة على الآخر، في ارتطام أعمى، ويرتد بعد ذلك، عائداً إلى دورانه الذي سيمهد لانقضاض جديد. غير أن «هبة»، المتدثرة بملحفة من صوف رقيق، ألقت نظرة استنكار عليهما، وهي تعبر الساحة المفتوحة على الجهات كلها، صوب البئر المزودة بمضخة يدوية، وتمتمت: «مهرِّجان»، ثم نظرت إلى سماء الصباح الغائمة، وشدت راحتها على مقبض السطل المعدني الذي ستملأه من أجل تحضير حساء العدس. أما هما فلم يأبها قط لنظرتها، أو للصرير الصادر عن مقبض السطل الفارغ، بل تجاسرا، حتى وهي على بعد ذراع منهما، أن يلتحما من جديد، للحظة قصيرة، مرتفعين

في تشابكهما مدى ذراع عن الأرض، كأنما سيختطف أحدهما الآخر، ويطير.

لم تكن ريح الصباح ذاك باردة لتردعهما عن عراكهما، ولم تكن الغيوم المتبرجة للخريف، في سماء تلك الهضبة، تنذرهما بمطر وشيك، لذلك كله تمادى الأحمقان في نشر صخبهما، مأخوذين بالباعث الأبكم الذي يزين لأعماقهما أن وجوداً كوجودهما منذور للعراك وحده، حتى أنهما لم يُظهرا ـ برغم ضراوة التحامهما ـ أي رغبة في حسم الأمر. فهما ينقضان ويرتدَّان يدور أحدهما حول الآخر وحول نفسه أيضاً. يقرفصان تحفزاً، ثم يسترخيان دون مبرر، ليعودا ـ فجاءة ـ إلى تهيوءٍ أشد وعيداً. فيما ترتفع، من جديد، تمتمة الفتاة «هبة»: «مهرِّجان»، وهي تعبرهما عائدة بسطلها الطافح ماء، الذي يشد كتفها الأيمن بثقله فيميل،فتروح ذراعها اليسرى تهتز كبندول سريع لحفظ توازنها، من تحت الملحفة الملتفة بإتقان على جذعها. وكان واضحاً أنها هي، أيضاً، برغم امتعاضها الذي أبدته، غير معنية بإنهاء عراكهما الضاري، فألقيا عليها نظرات سريعة لا معنى لها، في لحظة من لحظات انفصالهما، والتحما ثانية، دون أن يتمكن أي منهما من دفع الآخر شبراً إلى الوراء. فهما يتصادمان في مركز دائرة لا تُرى رسَماها لعراكهما، يدوران فيها بإيقاع ثابت، من فوق تلك الهضبة، التي تتصل سفوحها الشمالية المليئة كروماً بنهر صغير يفصلها ـ انطلاقاً من الجسر الذي لا يحصره سياجان من جنبيه تفادياً لانزلاق العربات، أو سقوط المارة إذا زاحمتهم السيارات المسرعة ـ عن تخوم بلدة «القامشلي» ذات البيوت اللبنية الواطئة، من الجهات كلها إلا الوسط، حيث مبنى السراي ودار القائمقام الحجريان، وكذلك مبنيا المدرستين اليتيمتين، فيما كان يخترقها شارعان اسفلتيان، أحدهما يتجه جنوباً، عبر الهضبة، حتى المدن الداخلية البعيدة، والآخر يصلها بالبلدات الشمالية، المتاخمة للحدود التركية، من ضفة «دجلة» حتى «حلب».أما الهضبة،التي كان «المهرِّجان» ـ كما سَمَّتهما

«هبة» ـ يتعاركان على حافتها العالية، فكانت جزءاً من أعالي انهدامٍ أرضي عميق، قوسي، يحيط بتخوم «القامشلي» بدءاً من قرية «الهلالية» غرباً وانتهاءً بقرية «حلكو» في الجنوب الشرقي من موقع البلدة الغارقة في السهول. وعلى امتداد أسفل ذلك الانهدام القوسي للهضبة، ذي السفح المتدرج دون انحدار كان ثمت نهر صغير يأتي من تركيا، مخترقاً الدغل الكثيف الذي يمتد من تخوم «القامشلي» الشمالية الشرقية حتى قرية «الهلالية»، ويختفي ـ من ثم ـ في مكان ما شرقاً بين القصب العالي الذي يرسم حدود مستنقعات واسعة، تنسرب منها جداول رفيعة إلى نهر «جغجغ».

كانت هذه هي حدود الهضبة، وملامحها. لكن جزءاً من سفحها الغربي كان يتصل بقاع كقاع بحيرة مستوٍ، جيريٍّ، أبيض تماماً. حتى أن القسم الذي يمر به من النهر يبدو أكثر صفاء، عارياً، قبل توغله في الأرض الطينية المعشبة. وفوق ذلك الجزء من الهضبة، على مبعدة غير هينة من حوافها بالطبع، كانت الحفارات، والمداحل الضخمة ـ التي جاء بها الفرنسيون في العقد الرابع من هذا القرن لتعبيد طرق الإمدادات ـ تعمل في صخب على ترتيب أمور استغلقت على قاطني المنزلين فوق الهضبة، وعلى طيور الهضبة، ونباتها.

غير أن «المهرِّجين» لم يصغيا قط، في عراكهما ذلك الصباح، إلى ضجيج الحفارات والمداحل، ومطارق الرجال المنكبين على تحطيم الصخور، في الجهة الغربية من الشارع الاسفلتي، الذي يشق الهضبة من الشمال إلى الجنوب، فتعلو على جهتيه أكوام من التراب الأحمر والصخور المغلفة بإشنات خضراء. فتأمَّل أحدهما الآخر بعينيه الجاحظتين، اللتين تخلوان من أي أثر للحقد أو للتعب، كأنما ليستا عينين بل زجاج محترق برغم البياض المحيط بحدقتيهما، ثم أكملا دورانهما الساحر بأرجل ترتفع وتنخفض في حركة متكررة، قبل أن يرتفعا عن الأرض علوَّ أشبار،

ويتلاطما.

غربان حقول مرت في سماء الهضبة، بنعيقها الاستعراضي، ناظرة إلى «المهرجين» من أعلى، دون اهتمام، وكذلك مرت أزواج متباعدة من الوَرْوَرِ بطيرانها الثقيل، فيما اتخذت الغيوم لنفسها مسارب، بعضها إلى بعض، فتداخل الثقيل منها بالخفيف، مكونة شبكة لا منافذ فيها، مهيأة لتُلقيها يد كبيرة على الأرض وتنتشلها سهلاً سهلاً، وهضبة هضبة، وبيتاً بيتاً، كالأسماك. لكن هذا الإنذار الصريح لم يثن، بدوره، «المهرِّجين» عن جراءتهما الصامتة في الاستخفاف بذلك الصباح الجَهْم، الذي ترك بخاراً كثيفاً على زجاج شبابيك المنزلين اللبنيين الضخمين، المنتصبين في تقارب شديد، على بعد أمتار من البئر الذي يتعارك قربه «المهرِّجان»، وقد أحاط بهما من الجهتين الجنوبية، والشرقية المطلة على جزء من انهدام الهضبة، سور من نبات الخرنوب اليابس، جرى تنضيده وضغطه بالأرجل حتى غدا سميكاً، بعلو متر ونصف المتر، حتى لا تعبره الدجاجات منحدرة إلى النهر أسفل الانهدام، فيقنصها حارس النهر «جاجان بوزو».

حين توقف الدخان عن الصعود من مدخنتي المبنيين ـ دلالة على أن وجبة الصباح بعدسها وشايها قد استُنْفِذَتْ، وأن المواقد لفظت آخر أنفاس في جمر حطبها ـ عرا «المهرِّجين» بعض الفتور، فباتا يدوران دون انقضاض. وحين خرجت النساء الخمس من المنزلين: ثلاث من أحدهما، واثنتان من الآخر تتبعهما الفتاة «هبة»، ذات الاثنتي عشرة سنة، تراجع «المهرِّجان» إلى حواف الهضبة، كأنما يوفران لنفسيهما عزلة يتابعان فيها عراكهما دون تدخل أكيد من إحدى أولاء النساء.

كلبان أغبران نهضا من ركن خفي جوار المنزلين، وتتبعا ـ في كسل ـ خطى النساء الخمس والفتاة، وقد توقفا لبرهة قصيرة حين لمحا «المهرّجين» المتخاصمين، ثم ألويا عنقهما صوب النساء، وتابعا مشيهما الهادىء صوب الممر الترابي الضيق، الذي يخترق سور الخرنوب وينحدر من أعلى

الهضبة صوب السفح الشمالي الشرقي، المختنق بالكـروم. وحين غاب الجميع في المنحدر، واحداً إثر الآخر، وتوارى ذيلا الكلبين أيضاً، انجلى فتور «المهرّجين» فتصادما أكثر احتقاناً، حتى أنهما باتا يرتدان إلى الوراء في تصادمهما كأن سينقلبان. ومن ثم توسعت حركة عراكهما فابتعدا عن حواف الهضبة صوب ساحة المنزلين نصف الدائرية، مرتطمين بكل شيء: بسور البئر، بحوض الماء الحجري الذي يرتوي منه الماعز، بجدران المنزلين، بالركام الصخري على أحد جانبي الطريق المعبد، الذي يشكل الحدود الغربية لتلك المقاطعة الصغيرة، المسكونة، على الهضبة. وأقـرب منزل مأهول، من تلك القمة المستوحدة، كان يقـع أسفل السفـح، على بعد كيلومتـرين، شمالاً من الجسـر الذي لا يحصـره سياجـان، وسط أشجار تـوت ضخمة، دون سور. لكنه، أبداً، كان مصدر طنين هائل، كأنمـا الآتُ تُدار في أقبية خفية من تحته.

ارتفعت الشمس، التي لم تكن تُرى، فازداد وهج الأثلام الفضية في طبقـة الغيم. وقـد انعكس ذلـك الضيـاء المختنق على حـدقـات أعين «المهرّجين» الزجاجية، الفارغة كأنما تحدق في شيء غائب، فيما جرَّهما خبَالُهما في العراك أن يشردا خارج حدود ساحة المنزلين الشاسعة، فيصيرا إلى الطريق الاسفلتي الذي بدا، وحده، متألقاً بسواده وسط العراء المديد فوق سطح الهضبة المتصل، جنوباً، بالسهول. وهمـا ازدادا ضراوة حين أحسا الأرض صلبـة، بـالـرغم من انـزلاقـات أرجلهمـا التي أربكتِ الانقضاضات المُحْكَمةَ، فبانا عشوائيين، ينخفض أحدهما ساقطاً فيتعثر به الآخر ساقطاً بدوره، ثم ينهضان ظهراً إلى ظهر، قبل أن يستديرا متواجهين من جديد.

لم يكن في مقدور أحد أن يوقف ذلك العراك: هذا ما كان يوحي به السكون الذي انتشر كثيفاً على سـطح العراء، من الجهـات كلها، حين توقفت المداحـل، والحفارات، والمـطارق اليدويـة، عن احتكامهـا إلى

الصخب، في الرقعة التي لا تعرف الأخوات الخمس ما الذي يجري فيها، كأنما أُعلن وقت الإفطار المتأخر، كعادته كل يوم، فانكب العمال الآتون مبكرين على طاسات طعامهم المغطاة بإحكام. وفي السكون ذاك، الذي بدا أنه يسند الغيم من فوق، تألَّقت خِفَّةُ «المهرّجين» أكثر، وهما يصغيان إلى الخشخة التي تحدثها أرجلهما على الاسفلت، فعمدا إلى الوثب في كل اتجاه، منجذبين إلى اصطدام أحدهما بالآخر، وبالأرض الصلبة أيضاً. لكن «هبة»، التي أطلت من فوق الركام الترابي والصخري، المحيط بأحد جانبي الشارع، وضعت يديها حول خصرها في تذمر واضح، كأنها كانت تبحث عنهما طويلاً قبل أن تعثر عليهما. ومن ثم دارت نصف دورة لتصير إلى الغرب من موقعهما، وهشت عليهما بيديها في جلبابها السميك، صارخة «كش. . كش»، قبل أن تنحني على الأرض متناولة بعض الحصى ملء يدها الكبيرة، وترميهما فينفضٌ الديكان راكضين في اتجاه بئر الساحة، ومن ثم يلتفان من حولها ليبلغا سياج نبات الخرنوب. وإذ توقفا هناك، قرب الحفرة الطينية المليئة ماء، والمخصصة للدجاج، تحديداً، غمرا منقاريهما فيها أولاً، ورفعا ـ بعد ذلك ـ رأسيهما عالياً لينحدر السائل إلى مكان ما في أحشائهما، تحت الريش المُتْرَف، ذي البريق، الذي يعلو جلديهما الخشنين.

كانت «هبة» تبدو أكبر من عمرها، بعظامها الخشنة، وطولها، وهي تتجه ـ بعدما ساقت الديكين إلى ركنهما الآمن بين الدجاجات ـ إلى المنزل الشرقي، الذي تقطنه مع أمها «هدلة»، وخالتها «ستيرو». فيما تقطن المنزل الغربي خالاتها الثلاث الأخريات: «بسنة»، و«جملو»، و«زيري». ولما بلغت الفتاة الباب الخشبي الضخم دفعته بقوة، فأصدر أنيناً وهو ينفتح على عتمةِ الداخل. وإذْ غابت قليلاً خرجت، من ثم، حاملة سلة كبيرة. واتجهت، بعدما أغلقت الباب خلفها، صوب الممر الترابي الضيق، الذي يخترق سور الخرنوب، وانحدرت منه إلى السفح، ليغيب جذعها الغارق

في الجلباب الأغبر، الخشن، أولاً، وبعد ذلك رأسها ذو الشعر الخرنوبي، المشعَّث، الطويل.

تمازجت الغيوم حتى انقلبت على ظهورها السوداء من الزحام، فأعتمَ المُنْبَسَطُ الجيري الواسع، المتصل بسفح الهضبة غرباً، بصخوره البيضاء الصقيلة، وكذلك أعتم النهر كأنما كان مُضاءً قليلاً، من قبل، وانطفأ بغتة، ليصير مثله مثل الطريق الاسفلت، شريطاً ملتوياً جَهْمَاً، لا انقسام في خلجاته وتعاريجه؛ كثيفاً بارداً، وسط ضفتيه المنذورتين لفوضى شجر الكينا، والقصب. أما العشب، في العراء الذي يلي هاتين الضفتين، فلم يكن اشتد بعد لينتشر كثيفاً، لكنه - بأثر من نوبتي مطر متلاحقتين - بدا حياً أكثر مما بدت عليه حقول القمح والشعير، ذات الأثلام الحمراء. وقد أدرك ذلك العشب أن نوبة ثالثة من المطر، الوشيك - بعدما سُدَّتِ المنافذُ على سماء الهضبة - ستجعل له شركاء آخرين في سلطانه الأخضر، فاعتم-هو بدوره، حتى لم يعد يُرى.

وحدها العصافير بدتْ لجوجة في صعودها إلى سطح المنزلين، وهبوطها عنهما، مختطفة من قرب بِرْكَة الدجاجات فتافيت من الخبز المبلول، برغم الغضب الواضح في القأقأةِ التي كانت تنفر من مناقير تلك الدجاجات، وهي تتأمل السرقةالمُفْتَضَحة،والوقحة أيضاً. غير أنها لم تكن حادة الطباع بسبب الكثافة المنذرة للغيم، حتى أن خمولها بدا واضحاً وهي تتجه إلى ركن من سور الخرنوب، مسقوف بأغصان ملتوية يعلوها قش غير ممهَّد، وتراب لم يزل ينتظر غطاءً من الطين ليمنع نفاذ الماء. وقد اتجه الديكان «بَلَكْ» و «رَشْ»، بدورهما، إلى الركن الذي قصدته الدجاجات، تاركَين للعصافير أن تنقر القلق مع فتافيت الخبز قرب بركة الماء، التي رسمت لقطرات المطر، بسطحها الراكد، اتجاه سقوطها المائل قليلاً، ليتخذ المطر كلّه، بعد ذلك، هطوله الآمن، المرتَشِدَ بالعلامة التي قدمته بِرْكةُ الدجاجاتِ للسماء.

تـلاحقت قـطرات المـطر نثيثاً لتغـدو انسكـابـاً، فتـوقف ضجيج الحفارات، والمداحل، والمطارق في الجهة الغربية من شارع الهضبـة، حيث نُصبت خيام كبيرة، مستطيلة، لإيواء العمال، الذين لم يكن بعضهم يرجع إلى المدينة، بل يبيت هناك. وكانوا ينحدرون إلى النهر، من الهضبة، في الأيام المشمسة، لـلاغتسال دون أن يخلعـوا ثيابهم حتى. ومن خلل السكينة المنتشرة، التي تفتحت للمطر وحده، عـلا صخب خفيف خلف سور الخرنوب، من جهة الممر، ثم أطلت النساء الخمس متراكضاتٍ في مرحٍ، وهن يقيْنَ رؤوسهن بأطراف ثيابهن الطويلة التي رفعنها كمظلات فبانت سراويلهن الطويلة، فيما تبعتهنَّ «هبة» بسلتها شبه الفارغـة إلا من نبات قليل، ومن ورائها تقدم الكلبان صامتين، لكن مرحَيْنِ أيضاً من البلل الذي أصابهما.

غير أن المرح الذي عرا الأخوات، والفتاة، والكلبين، خمد فجاءة، حين وصل الجمع إلى مقربة من بابـي المنزلين، المتقاربين، المواجهَين للشمال، إذ بدا المنزل الغربـي منهما مفتوح الباب، وثمت صخب وجَلَبة يصدران من أعماقه المعتمة، فتأملت النساء، على نحوٍ خالٍ من أي اتهام، وجه «هبة»، التي بدت مباغَتَةً أكثر بنظراتهن، فالتفتت هي إلى الكلبين، اللذين غطتْ عيونهما بلاهة لا فضول فيها، وهما يلهثان. وحين اقتربن من الباب زاحمتهن «هَذْلة» لتستجلي الأمر أولاً، ودخلت أخواتها وابنتهـا من خلفها بعد ذلك، فيما بقي الكلبان قرب العتبة برهة، ثم هرولا شرقاً إلى شؤون حيوانية تنتظرهما.

كانت تجري، في الداخل، مشادة تكاد تتحول إلى عراك بين امرأتين في الثلاثين، أو أكبر قليلاً، ترتديان عباءتين كعباءات الرجال المقصبـة، حاسرتي الرأسين على نحو غير معهود في تلك الأنحـاء، وبين رجل في الأربعين ربما، يرتدي معطفاً قصيراً من الجلد الأسـود فوق بنـطال أسود فضفاض، ويعتمر قبعة مضلعة الحواف ذات مظلة بـلاستيكية صقيلة من

الأمام: الأيدي ترتفع أمام الوجوه كأنما ستتبادل اللطم، والأصابع تتقوّس منذرة بالتّخريْس. ولم تتوقف حركة الثلاثة المتقابلين، وسط حقائبهم المحزومة في إتقان، برغم دخول النساء الخمس، والفتاة، تسبقهم نظرات دَهَشٍ صارخ. فاضطرت «هَدْلَة» إلى جذب كُمِّ الرجل صارخة: «ماذا تفعلونَ هنا؟»، فحدَّجها الرجلُ مقطباً: «ماذا؟»، قالها مستنكراً، ثم عاد إلى مشادته مع المرأتين، اللتين ألقيتا بدورهما نظرات جانبية، تحمل استخفافاً مّا، على النساء الخمس، وعادتا متوعدتين الرجل: «نحن نختار الجهة التي سنعمل منها»، فرفع يديه أمام وجهيهما: «في كل مرة تختاران الجهة نفقد واحداً منا»، ودمدمَ: «ألا تريان؟»، ثم أشار بإحدى يديه إشارة واسعة إلى ساحة المنزلين، والأفق الأبعدَ: «ألا تريان؟ المكان هادىء، وهذا ما نحتاجه»، فارتفع صوت «هِبَة» عالياً: «يا أمي، أخرجيهم من بيتنا»، فأخرستها خالتها «ستيرو»: «نعرف ماذا سنفعل»، فقاطعتها الفتاة: «لم أسألك. سألت أمي..»، وسكتت حين التفت إليها الرجل، مقاطعاً شجاره مع المرأتين: «ماذا تسألين أمك؟ أيهنَّ أمك؟». فتدخلت الأم هدلة التي لم تبلغ السابعةوالعشرين بَعْدُ «من أنت لتسأل عن أمّها؟»، فرفع الرجل يده مقاطعاً: «لماذا تتدخلن في أمر لا يعنيكنَّ؟»، فدهشت النساء الخمس وهن ينظرن إحداهن إلى الأخرى، فيما تمتمت «بَسْنَة»، التي تصغر «هدلة» بسنتين وبضعة أشهر: «هؤلاء مجانين»، ثم توجهت بكلها إلى المرأتين الغريبتين والرجل الغريب: «اخرجوا من هنا» قالتها وركضت إلى ركن من المنزل تتناول منه منكاشاً ذا مقبض خشبي طويل، ورفعته متوعدة: «اخرجوا من هنا».

لم تفطن النساء الخمس، من قبل، إلى اللكنة الكردية الغريبة للمرأتين والرجل، لكنهن انتبهن إلى ذلك حين عمدت المرأتان إلى مخاطبة الرجل، الذي كانتا تتشاجران معه، بلغة لم يعرفنها، بعدما هددتهم «بَسْنَة» بالمنكاش. وصارتا تشيران إلى النساء الخمس، وقد هدأ صوتاهن

قليلا، كأنما تقنعان الرجل بصواب ما خاصمتاه فيه، بينما ابتسم الرجل وهو ينظر إلى «بَسْنَة» تحديداً، ثم نزع قبعته عن شعره الرمادي الطويل، ذي التماوج الخفيف، قائلاً: «أظن أنكن لم تتعرفن علينا!»، فارتفع صوت «هدلة»: «لا نعرفكم. ولا نريد أن نعرفكم»، وتقدمت من الثلاثة: «ماذا تظنون أنكم تفعلونه في منزلنا؟».

خيم صمت بعد كلمات «هدلة»، خلا ابتسامة الرجل التي اتسعت كأنها صدى صخب لم يستسلم بعد، وقد التفت إلى رفيقتيه: «لم يعرفننا!»، وتنهَّدَ: «إنها الحكاية ذاتها. كلهم لا يتعرَّفون إلينا في زياراتنا الأولى»، فردَّت احداهن: «لا تلُمْنا إذاً. كنا نختار الأمكنة فلا يتعرف أحدُ علينا. وها أنت تختار هذا المكان فلا يتعرفن، أولاءِ، علينا».

«تتركان لي اختيار المكان، إذاً؟»، قال الرجل، دون أن تغادره ابتسامته، فردَّتا، وهما تنظران إلى النساء الخمس، والفتاة، المتحلقات من حولهم: «اربكناهنَّ، وضجرنا من الشجار. سنتبع خيارك هذه المرة».

كان حوار الغريبتين، والرجل الغريب، يتقاطع ويتشابك على مسامع النساء الخمس، والفتاة المشتعلة فضولاً، بعينيها المتسعتين، حتى أن «بَسْنة» أركَنَتِ المنكاش إلى أقرب جدار، واقتربت لتصير لصق اختها «هدلة» التي بدت أنها تنتظر جواباً مّا على سؤال أعماقها: «ما الذي تفعلونه في بيتنا؟».

قال الرجل: «متأسفون. باغتناكم، ونحن متأسفون»، فأومأت رفيقتاه برأسيهما مؤكدتين على كلامه، وهما تتفرسان الوجوه الستة من حولهما، دون أسفٍ واضح، فبادرتهم «هدلة» من فورها: «تفضلوا، إذاً»، وأشارت إلى الباب ليخرجوا. لكن الرجل رد على حركتها بلا مبالاة خفيفة وهو ينظر إلى متاع وحقائب مكوَّمة وسط الغرفة، واضحة للعيان، بالرغم من انشغال النساء الخمس والفتاة عن ملاحظتها، بسببٍ من بلبلتهن بذلك الحضور الغريب للثلاثة الغرباء. وقد تجاهلت رفيقتا الرجل، أيضاً، حركة

«هدلة»، فنظرتا، بدورهما، إلى المتاع والحقائب المحزومة في أناقة: «سنجد لها مكاناً» قالت إحداهن، وعاينت المنزل في وقفتها كأنما تتخيَّرُ جهةً فيها، فاحتدمت «هدلة» أمام ما تراه، صارخةً: «هذا منزلنا»، وشدَّت كُمَّ إحدى المرأتين الغريبتين، مردِّدةً في نبرةٍ عنيفة: «هذا منزلنا».

كـرَّرتْ «ستيرو»، و«زيـري»، و«جملو»، على نحو تلقـائي جملة أختهن الكبرى: «هذا منزلنا»، وأضفن: «مالكم؟ ألا تفهمون؟»، واقتربن أكثر من الرجل والمرأتين الغريبتين. وفي اقترابهن جـرَّت «ستيرو»، ذات الثمانية عشرة عاماً، ابنة اختها «هبة» إلى الخلف قليلاً، لأنها كات تعيق اقترابها وهي واقفـة لصق أمها، فتـأففت «هبة» تـأففاً مسمـوعاً: «مـزقتِ ثوبـي»، فلم تعرها خالتها ـ ذات الشعر الذهبـي، الذي انزلق عنه منديل رأسها ـ اهتماماً، بل تأملت الرجل وهو يهدِّىء أخواتها بعينيه المبتسمتين أولاً، وبألفاظه المبتسمة أيضـاً: «أهذا منـزلهن؟»، والتفت إلى رفيقتيه: «أختايَ، هذا منزلهن، فلنخرج متاعنا من هنا»، ثم تأمل قبعته وهو يديرها على أصابعه: «ما اسمك؟» قالها دون أن يحدد أياً منهنَّ، فردت «زيري» تلقائياً: «اسمي زيري»، فنهرتها «جملو»: «إنه يقصد هدلة»، فأسكتتهما «هدلة» بنظرة خاطفة عليهما، قبل أن تحدِّج في عيني الرجل: «ما اسمك أنت؟».

«أنا مَكِينْ، وهاتان أختايَ نفير وكليمه»، قال، مردفاً:

ـ نريد البقاء هنا. . .

فقـاطعته «هـدلة» وسط تمتمـات الاستنكـار من أخـواتهـا: «هنـا؟ أأنت..»، فقاطعها الرجل هذه المرة، بدوره:

ـ سنستأجر المنزل. كم تطلبين؟.

كانت عاصفةُ كلمةُ «الاستئجار» هذه داخل المنزل المعتم، حتى أن رنينها اندلق خارجاً إلى الساحة الواسعة، منتشراً على جهات الهضبة كلها،

التي لم تشهد بيوتها المتنافرة، البعيدة بعضها عن بعض، مستأجرْين قط، من قبل. وقد وجمت النساء الخمس، بنات «موسى موزان»، وحفيدته «هبة»، وتبادلن التفاتات ملؤها استنطاق أخرس، خَرَقَهُ همسٌ صاعد من حنجرة «زيري»: «أتستأجرون..؟ هنا..؟»، وكاد همسها هذا يضيع وسط الصخب الذي ارتفع قرب عتبة الباب، ومن ثم اقتحم الديكان «بَلَكْ» و«رَشّ» الباب الخشبي المفتوح فاصطدما به، قبل أن يكملا عراكهما في عمق المنزل، صاعدين نازلين في ضراوة تفصح عنهما ضربات أجنحتهما الحذقة، دون أن يأبها للموقف الخشن. غير أن «هبة» التَفَّتْ عليهما، ورمتهما بفردة من حذائها ذي الخروم، فانفضّا هاربين إلى الساحة، ليتواجها من جديد هناك، في فراغ الهضبة الشبيه بعرفيهما المتلاطمين.

«ماذا قلت؟»، تمتمت «هدلة» ناظرة إلى «زيري» لبرهة، قبل أن تجول ببصرها على وجوه أخواتها الأخريات، فقطع عليها الرجل، من جديد، حيرتها: «أعجبنا المكان هنا، ونريد استئجار هذا المنزل».

- «هذا المنزل؟» سألته «هدلة» وهي تخصُّ نفسها بجزء من سؤالها، فأجابتها إحدى المرأتين الغريبتين، هذه المرة:

- نعم، هذا المنزل. يكفيكن المنزل الآخر. إنه واسع، وأنتن عائلة صغيرة.

«لسنا عائلة صغيرة» قالت «جَمْلُو»، فابتسمت لها المرأة الصامتة الأخرى، التي هي «كليمه»، كما قدمها الرجل لهن:

«خمس نساء..»، واستدارت لتنظر إلى «هبة»: «خمس نساء، وهذه الفتاة الحلوة، عائلة صغيرة»، ورفعت يدها في وداعة أمام وجهها كأنما تقاطع «جملو» التي همّت بالكلام: «أنا أحب العائلة الصغيرة». وهنا تدخلت «بسنة»، الطويلة الضخمة، ذات الأربعة والعشرين عاماً:

- كيف تعرفون أننا وحدنا هنا؟

«وهل هنالك غيركن؟» سألها الرجل، لكنها ألحّت:

«كيف تعرفون. . ؟»، والتفتت إلى أختها «هدلة» تستنطقها: «كيف يعرفون؟»، فلم تَفُهْ «هدلة» بجواب هو من شأن هؤلاء الغرباء، لأنها كانت تتأمل ثياب «مكين» وأختيه «كليمة» و «نفير» فلا تجد عليها أثراً من المطر، كأنما وصلوا المنزل قبل هطوله. لكن فترة خروجها مع أخواتها، وعودتهن، كانت قصيرة لا تسمح بوصول هؤلاء الغرباء، مع متاعهم وحقائبهم الكثيرة، دون جلبة:

«منذ متى أنتم هنا؟» سألتهم «هدلة»، وأردفت جملتها بسؤال آخر مليء بالفضول:

ـ من أوصلكم؟

لم يكن على وجوه الغرباء الثلاثة ما يدل على رغبة في خوض استنطاق جانبي، لذلك عاد «مَكِينْ» إلى سؤاله الأول، بنبرة فيها تأكيد:

ـ نريد أن نستأجر هذا المنزل.

إذ ذاك علت تمتمات النساء الخمس، دون أن تقصد أي منهن التوجه بتلك التمتمات إلى شقيقتها. حتى أن «هبة» نفسها شاطرتهن الأمر، واضعة يديها حول خصرها على نحو فيه تحد مُعْلَن لا يستلزمه الموقف. بيد أن حركتها كانت دفاعاً غامضاً عن المنزل، وهي حركة لم تلبث برهاتٍ قليلة بعدما أعلنت أمها، بصوت خفيض قليلاً، موافقة مضمرة، متوجهة إلى أخواتها:

ـ ألا يتسع لنا المنزل الآخر؟.

فردت «هبة»، التي أرخت يديها بحركة آلية: «إنه يتسع لنا جميعاً، يا أمي». لكن خالتها «ستيرو»، النحيلة، ذات الطول الملفت، شدّتها من كمها، ومن ثم حدّجتها بعينيها الزرقاوين، فصرّت «هبة» من بين أسنانها،

بصوت خافت: «أنت تمزقين ثوبـي».

لم يتمزق ثوب «هبة» بالطبع، بل علت طقطقات خفيفة في لُحْمة الهواء العابر فوق الهضبة، بعد ذلك، لأن بنات «موسى موزان» الخمس، وحفيدته، أجهدن أنفسهن في رسم حدود وهمية بين المنزلين، تمادياً في إظهار احترامهن لاستقلال أحدهما عن الآخر، مـذ قبلن بتأجيـر الغربـي منهما للغرباء الثلاثة، بعد مسـاومة خجـولة لم يعـرفن قط أنهن يستطعن خوضها. وهنَّ لم يكُنَّ في حاجة إلى خوضها على أية حال، لكن الحكاية كلها كانت مشوّقة على نحو مّا، أمام اللهفة الواضحة على وجوه الغربـاء الثلاثة في الوصول إلى نتيجة، دون التفات إلى التفاصيل التي بدوا غير معنيين بها. ففي حين طلبت «بسنة»، بابتسامة ساخرة قليلاً، مبلغاً من المال أكثر مما يعدلُهُ منزلٌ كذاك، ووافق الغرباء من فورهم عليه، تمتمت «جملو» بما يفيد طلبَ المزيد، فوافقوا أيضاً. ولما تدخلت «ستيرو»، كأنما تخوض لعبة بطولها الذي يضفي مرحاً على كلماتها، طالبةً أكثر مما طلبت أختاها، شدّتها «هبة» من كمها، فهمهمت «ستيرو» غاضبة: «أنت تمزقين ثوبـي». بيد أن «هدلـة»، باضـطراب خفيف في موقف لم تعهـده، لجمت غلواء أخواتها:

- هذا كثير.

فتدخلت «زيري»، بنبرة بريئة: «لماذا لا نؤجرهم المنزل مجاناً؟ لسنا في حاجة إلى..»، وابتلعت بقية كلماتها من أثر لكزة أصابت خاصرتها، قبل أن يرتفع صوت «بسنة» ساخراً:

«لم أطلب، أنا، استئجار هذا المنزل يا أختي»، وأشارت برأسها إلى الغرباء الثلاثة: «هؤلاء يطلبون استئجار المنزل»، ثم أكدت كلمة «هؤلاء» بإشارة من اصبعها أيضاً. وقبل أن تنفضَّ حلقة المستأجرين، وبنات «موسى موزان»، بعد اتفاق لا تفاصيل فيه، أشـار «مكين» إلى زاوية من المنـزل

لم تكن النساء الخمس قد لحظنها طوال تلك المحاورة، قائلاً بسخرية ملتمعة على أهداب عينيه:

ـ هذا كلبنا. . .

وجمتِ الإناث الخمس، والفتاة، للحظاتٍ، ثم افترَّت شفاههن عن ابتسام يؤكد أنهن استظرفن كلمات الرجل، بالرغم من فضولهن. وإذ خرجن من المنزل، الذي عهدن به ـ من لحظتهن تلك ـ إلى مستأجريه، لم تتمالك «هدلة» نفسها من إلقاء نظرة مرحة على «مكين»، هامسة:

ـ أهذا كلب؟.

«تُوْسِيْ» و«هِرْشِهْ» تتبّعا، بذيليهما المرحين، خطى الإنثاء الخمس والفتاة، بعد خروجهم من المنزل الغربي، تحت الرذاذ الخفيف، وهن يتوجهن إلى المنزل الشرقي متهامسات، فيما ارتفعت خفقات أجنحة الديك «رَشْ»، الذي سقط في بركة ماء الدجاجات أثناء انقضاض غير مُحْكمٍ منه على الديك «بَلَكْ». وإذ خرج من البركة انتفض من ذيله حتى عُرْفه، ثم عاود الكَرَّة مرتطماً بصدر غريمه على ارتفاع شبرين من الأرض، في اللحظة التي تزاحمت الأخوات الخمس على باب المنزل الغربي، متدافعات في مرح صارخ لتدخل إحداهن قبل الأخرى. وبالطبع كان نصيب الشد العنيف، والدفع بالمنكب، هو الأوفر بين «هبة» وخالتها «ستيرو»، على نحوٍ لا يشبه الممازحة بل العراك.

مضت ساعة، أو أكثر قليلاً، حين ارتفع بوق سيارة من جهة الطريق الاسفلتي، بإلحاح، ليعلن «نعمان حاج مجدلو» عودته من بلدة الحسكة بركاب سيارته «الترورييدو» المتذمرين، قطعاً، في لحظة التوقف تلك، وهم محشورون على مقاعدها الثلاثة المقاربة، وقد تشنجت أفخاذهم. ووقفة «نعمان»، تلك، في طريق عودته قبل الظهر تتبعهاوقفة ثانية عادة، بعد المغيب بقليل، حين يعود من «الحسكة» أيضاً بركابٍ جدد، في

نوبتي عمله اليومي كسائق على الخط بين القامشلي وتلك المدينة الأخرى. وهو يعلن عودته، في المرتين، بمرح، دون التفات إلى الركاب، لأنه معني، على كل حال، بحركته الصاخبة تلك، في الإعلان للأخوات الخمس عن حُسْنِ سير العمل، وهنَّ اللائي يملكن السيارة، ويدفعن لـ «نعمان» يومياً، إثر عودته إلى القامشلي بعد المغيب، عادةً، وفق حساب صغير يتم على عجل، وسط ضجيج محركات السيارة، بينه وبين «هدلة»، على قارعة الطريق الاسفلتي.

يحدث أحياناً أن يُسْقِطَ «نعمان» راكباً من الحساب، وهو يدفع حصيلة عمله اليومي لـ «هدلة»، لكنها تثق به ثقة غامرة، في انقضاء سنته السابعة سائقاً لدى الأخوات الخمس، اللواتي فقدن أباهن «موسى موزان»، وأمهن «خاتون نانو»، وزوج «هدلة» العابس «أحمد كالو»، قبل ست سنين، أي بعد سنة واحدة من التحاق «نعمان» بالعائلة سائقاً، وهو الذي كان يتعهَّد حقل قطن «موسى موزان»، في الجانب الشرقي من السهول المحيطة بالقامشلي. وقد آلَ الإشراف على الحقل ذاك إلى عم الأخوات الخمس «كرمو موزان» بعد موت أخيه، فتعهده مناصفة معهن، كما تعهَّد حَذْبَهُ وحنوَّه مناصفة بينهن وبين أولاده.

كانت سنة واحدة من عمل «نعمان» مع والد الأخوات الخمس كافية لانتقال عدوى ثقة الأب بالسائق إليهن. وهو كان يستدرّ الثقة استدراراً، على أية حال، بهيئة وجهه البشوش، الذي يهمل فيه حلاقة لحيته الرمادية، التي يتوسطها شاربان أصفران من أثر لفافات التبغ الملتصقة بشفتيه، أبداً، حتى أن صوته يغدو جزءاً من دخانها. وفي ذلك اليوم الذي لم يكن انتصفَ بعد، انحنى «نعمان» بكتفه اليمنى على صدر الراكب المجاور، حتى يتيح لنفسه أن يرى من النافذة جانب الطريق الشرقي، لئلا يتكلَّف النزول تحت الرذاذ إلى ثرثرة معلومة بتفاصيلها. ولم تمض لحظات حتى كانت «هبة» أولى القادمات هرولةً لتقف على المرتفع الترابي المشرف على الطريق،

وهي تقي رأسها بوشاح سميك تضم أطرافه بيديها تحت ذقنها تماماً، ومن ثم بانت «ستيرو» الطويلة، حاسرة الرأس المشتعل ذَهَباً، بثوبها المُخَصَّر فوق سروالها الممتد حتى عقبي قدميها. وبعد تلويحة قصيرة من يد كل واحدة منهما ـ وهما تحاولان اقتناصَ وجوه الركاب لَمْحاً، باستعراض من أعماقهما الفتية ـ انحدرتا المُرْتَفَعَ الترابيَّ إلى الطريق الصلب تخشخشان عليه بحذائيهما، إذ تسحبان أقدامهما سَحْباً على البازلت المطحون، الخشن، المتماسك في القار، بحسب المُتَّبَع في رصف الطُّرُق القوية. ولمَّا حاذتا نافذة السيارة المتطاولة كجسم سُرْعوفةٍ، انحنتا لتكلّما السائق برأسَين لم يبديا مزاحمةً، لكن جنباهما، نزولاً من الأضلاع حتى الفخذين، تصادما مراراً، كأنما تحاول إحداهما إزاحة الأخرى من مكانها.

«ماذا جلبت لنا من بلدة نهر الخابور؟» سألتْ «ستيرو» السائق، وهي تقصد بلدة «الحسكة»، ثم نقلت بصرها على الوجوه المتزاحمة في داخل السيارة، دون أن تنتظر جواباً. فقهقه «نعمان» بعين نصف مغمضة غطاها خيطٌ من دخان لفافته، حتى تساقط رمادها على سترته الخشنة، المدعوكة، التي لا لون لها. وإذ هدأت قهقهته، دون أن ينبس بكلمة، عاجلته «هبة»: «أمعك قليل من ماء الخابور لخالتي؟»، في نبرة استهزاء، فصدمتها «ستيرو» بجانب حوضها، من غير أن تفارق عيناها وجه «نعمان»، الذي استرسل من جديد في قهقهته، وسعل ـ من ثم ـ سعالاً مختنقاً، فتنحنح الرّكاب المتلهفون إلى إنهاء رحلتهم بعدما بدت لهم، من الهضبة، مشارفُ المدينة الراكدة.

جُمَلٌ أخرى تناثرت من فمي الفتاتين حول نافذة السيارة: «هاتِ تمراً في طريقك إلينا»، «أصحيح أن الحكومة فتحت مدرسةللبنات؟»، «هل صادفت سعلاةً في الطريق؟». . ولم يكن «نعمان» يردّ بأكثر من قهقهته الآلية، التي تصدر بوتيرة واحدة من أعماقه البسيطة. وحين أرخى قدمه عن مكبح السيارة لتمضي بطيئةً ـ أوّل الأمر ـ لحقت به الفتاتان مهرولتين، وهما

تحاولان أن تشرحا أمراً يتعلّق بالمنزل. لكن ازدياد سرعة السيارة، في المنحدر، خلطت كلماتهما بالدخان الذي خرج على شكل كراتٍ من نفّاث المحرِّك الأسود. وكلماتهما لم تُجاوز «أجِّرنا المنزل»، على أية حال، لكن «نعمان» المتبسم كان أبعد بذهنه، وببصره، وسمعه، من أن يفهم ـ حتى لو سمع الكلمات تلك ـ مغزى أن يستأجر أحدٌ مّا منزلاً فوق تلك الهضبة المقفرة. ولمّا عادت الفتاتان أدراجهما صوب ساحة المنزلين، ارتفعت ـ بعد انقطاع ملحوظ بسبب هطول المطر ـ أصواتُ المداحل، والحفّارات، والمطارق القوية، في الجهة الغربية من الهضبة، حيث تعتقد «هبة» أن أناساً مّا يحاصرون الجنَّ في تلك الأنحاء، مُذْ قادها فضولها، قبل أشهر، إلى متابعة يومية لما يفعله أولئك العمال المعروقون، عن مبعدةٍ، بعدما نصبوا سياجاً هائلاً من الأسلال الشائكة في محيط المكان، قبل أن يستقدموا آلاتهم المتحركة، العابسة، ذات الطلاء الأحمر والأصفر، كأنها جنادب عملاقة تقرض أطراف الأرض، فيما امتلأت الجهة الجنوبية، من دائرة المكان المُسيَّجة، ببراميل ذات حواف سوداء.

لم يلتفت الكلبان «توسي» و«هرشه» إلى الفتاتين، وهما مقعيان لصق جدار المنزل الغربي، إلاّ حين عبرتاهما، إلى المدى الذي كانا شاخصين إليه بأبصارهما، فنهضا يهزان ذيليهما،ويتبعانهما بمرحٍ أبله. ولمّا وصلتا إلى باب المنزل الشرقيّ تطلّعتا، معاً، إلى المنزل الغربيّ مبتسمتين للنزلاء الذين تحتويهم جدرانه الّلبِنيَّةُ الكتيمة. أما داخل المنزل، الذي أوصدت «هبة» بابه خلفها، فكان منجرفاً إلى مرحٍ كبير، حيث اجتمعت الشقيقات أمام الموقد البارز في جداره الجنوبي، يهيِّئن غداءهن على فوّهته الصلصالية المحترقة، التي شيعت حرارةً أكثر ممّا يحوجه يومٌ نصفُ دافيءٍ كذاك.

«كلب؟ لماذا يسمونه كلباً؟»، قالت «هدلة» وهي تومىء إيماءةً خفيفة من رأسها صوب المنزل الغربي، فردت «جملو»، ذات العينين

الشهلاوين: «ما سمّوه كلباً لو لم يكن كلباً»، ونفخت ابتسامتها نفخاً من بين شفتيها المستطيلتين، اللتين تنتهي زاويتهما اليسرى بغمازة كبيرةٍ، حالمةٍ. لكن شفة «هدلة» السفلى، المقلوبة، أبدتْ عدم اقتناع. ثم ما لبث فمها المضموم، الساخر، أن افترّ عن ابتسامةٍ تأخذُ الأمرَ كلَّه على لا مبالاةٍ:

ـ ماذا تعتقدن أنهم سيأكلون؟

«كلبَهم. .» أجابت «زيري» دون تأمُّلٍ، وضحكت، مردفةً ضحكتها القصيرة بسؤال لم تتفكّر الشقيقات فيه:

ـ أكان والدنا يؤجِّر المنزل لو أنّه هنا؟.

«يؤجره. .» ردّت «ستيرو»، فهمهمت «هبة»:

ـ لا يؤجِّره جدي.

«ولماذا لا يؤجِّره جدُّك يا هبة؟» سألت «هدلة» ابنتها من وراء فضول خفيف في العينين اللتين هما تكرارٌ أشهلُ لعيون شقيقاتها، وابنتها، إلاّ «ستيرو» التي لها عينا جدّتهما من جهة الأم، بزرقتهما الفاحشة، ولها شقرة شعرها أيضاً التي تشبه شقرة شعر «بسنة».

ـ لأن ما تعتقده «ستيرو» هو عكس ما كان سيفعله جدي.

وقد همَّت «ستيرو» أن تتدخل، نافخةً استياءها نفخاً من زاوية فمها، على نحوٍ ساخر وغاضب في الآن ذاته، فقطع عليها ذلك استرسال أختها «هدلة» تسأل ابنتها من جديد:

ـ ولماذا تظنين أن جدّك كانسيفعل عكس ما تعتقد «ستيرو»؟

«لأنها لا تترك مجالاً إلى الكلام لأحدٍ آخر»، ردّت «هبة»، فقهقهت «زيري» حتى تمايل جذعها الطويل الممتلىء:

ـ ما من أحد يترك مجالاً إلى الكلام لأحد، في هذا البيت.

«اتستثنين نفسك؟» سألت «بسنة» أختها «زيري»، غامزةً في استخفاف، فردّت الأخيرة:

ـ لا استثني الدجاجات حتّى.

وكأنما سرتْ عدوى الجدال الخفيف ذاك، من خصاص باب البيت، إلى ساحة المنزلين، فهبَّ «توسي» و«هرشه» ينبحان نباحاً فيه ريبة، فلمّا خرجت «هبة» تستوضح الأمر، بطلب من والدتها، لم تجد أحداً في الساحة. غير أنها تمعّنت ملياً في باب المنزل الغربيّ، حيث يتطلع الكلبان من بُعد ولا يتقدّمان، فألفت من يقف وراء دفته المفتوحة على شقٍّ قليلٍ فلا تبين ملامحه في ظلام الغرفة. ثم سمعت الدّفة تلك ترتدّ على عارضة الباب فينغلقُ في اصطفاف خفيفٍ.

كان المشهد عادياً. فثمت غرباء باتوا يقطنون المنزل الغربي، وقد عاد أحدهما أدراجه إلى الداخل حين همّ باستطلاع الساحة، ربّما، حين نبح الكلبان. لذا هشت «هبة» عليهما، واقفة أمام عيونهما تحديداً ليرياها، وأشارتْ إشارات توبيخٍ: «هؤلاء ضيوف يا ابنا ألف حمار. أسكتا»، فسكتا، تحت السماء التي غدت رصاصيةً، كتيمة، وقد توقّف مطرُها.

«ماذا هناك؟» سألت «هدلة» ابنتها حين عادت بحذائها الموحل، الذي خلعته في ركنٍ قرب الباب، فردّت الفتاةُ ذات العظام الضخمة: «لماذا لا نتخلّص من الكلبين يا أمي؟» فأعادت الأم سؤالها، وهي تحرك بمعلقة خشبية طويلة قاع القِدْر المنتصب على الموقد:

ـ ماذا هناك؟

«كلبان» ردّت «هبة».

استقامت «هدلة» ملتفتة إلى ابنتها ساخرةً من جوابها الساخر: «ولماذا ينبح الحماران؟».

« لا يحتاجان إلى سبب، يا أمي» قالت «هبة»، واستدركت: «علينا أن نُعوِّدَهما على مستأجريْ منزلنا».

«ذلك سهل» تمتمت «بسنة» الضخمة، التي انحسر غطاء رأسها الفوضويّ عن شعرها الأشقر، وأضافت: «نُري الكلبين صورَ مستأجري المنزل، وذلك يكفيهما ما داما لا يشمّان ولا يسمعان». غير أن «هبة» عادت إلى سؤال لم يجبْ أحدٌ عليه من قبل:

ـ لماذا نحتفظ بهما؟

«هاتي ماءً» قالت أمّهما التي لم تلتفت إليها، وهي منكبّة على القِدْر، فردّت «هبة» مستاءةً:

ـ وماذا تفعل ستيرو غير حكّ ابطها؟ لماذا لا تجلب هي ماءً؟

«كيف خرجت من بطن أمك بهذه العظام الخشنة؟» قالت «ستيرو» محتدمةً، فردّت «هبة» في برود:

ـ لو كانت لك عظام لما بدوت هكذا، كذيل الفأر.

فمدَّت «ستيرو» ذراعها الطويلة لتمسك بشعر «هبة» من قمّته، وهزّت رأس الفتاة في عنف لم يقطعه إلاّ تدخّل «جملو» المستاءة من شجارهما، وهي تدفعهما معاً نحو الباب:

ـ فلتقتل إحداكما الأخرى أسفل الهضبة، بحقّ الله عليكما.

لم تكفّ «هدلة» عن تحريك ما في القدر، ولم تنظر صوب الفتاتين المتناحرتين بل دمدمت كلماتٍ قليلة من بين شفتين ساخرتين:

ـ إذا كان لا بد أن تقتل إحداكما الأخرى، فلتحضر ماءً، أوّلاً.

كان نسيج الغيوم الرصاصيّ، الملتحم، فوق سماء الهضبة، يتمزّق قليلاً قليلاً، فتبدو السماء مهرولة من خلال شقوقه: ذلك ما لمحته «بسنة»

منعكساً على ماء بركة الدجاجات، فرفعت وجهها تتأمّل الأعالي وهي متجهة بوعائها المعدني الضخم إلى البئر، بعدما قرّرت أن تتبرّع بجلب الماء لتختصر من الصراخ بين «هبة» وخالتها «ستيرو». وقد تتبّعها الكلبان، قادمين من صوب سور الخرنوب اليابس، لكنهما ارتدّا مجفلين حين قدمت ثلاث إوزات من جهة الممرّ الترابي، الذي يخترق سور الخرنوب، كأنما صعدت توّاً من سفح الهضبة، وقد لوثهن طين النهر، فأحمرت بطونهن البيض. وكانت شراستهن، في ذلك المشي الأخرق، المصحوب بطقطقاتٍ في مناقيرهن الغاضبة، كفيلة بردّ الكلبين على ذلك النحو، ليقعيا بعيدين، وقد ارتسمت على وجهيهما لا مبالاةً لم تكن ـ بالتأكيد ـ هي حال أعماقهما المدرَّبة على تفادي ذلك الإوزّ، الذي يقضي معظم النهار في رفقة «جاجان بوزو»، أسفل الهضبة، يحرسن النهر مثله، ولا يرجعن إلى ساحة المنزلين إلاّ مرات قليلة كأنما يتفقّدن نظامها الذي يعتقدن أنه من تدبيرهن، وما يلبثن عائداتٍ إلى النهر حتى المساء ليرجعن فيرقدن في صخبٍ مُعْلَنٍ داخل تجاويف دافئة في سور الخرنوب، بعيداً عن الدجاجات الخرساء.

حين ملأت «بسنة» وعاءها المعدنيَّ ماءً، ماسحةً يديها بجنبي ثوبها، لم تلجم فضولها في أن تتملّى، بعينيها الشهلاوين، الواسعتين كساحةٍ، منزل العائلة الغربيَّ، الذي قطنته طويلاً مع اختيها «جملو» و«زيري»، منذ موت أبيها، وأمها، وزوج أختها «هدلة»، لأن المنزل، ذاك، كان هبةً من «موسى موزان» لابنته وزوجها. ثم تقاسمت الشقيقات المنزلين بحسب ما يلائم بقاء ثلاث منهن، يلِيْن «هدلة» في تسلسل أعمارهن، معاً. فيما انتقلت صغراهن «ستيرو» مع «هدلة» وابنتها إلى المنزل الشرقي كأنمابتقسيم متّفقٍ عليه، في صمتٍ، كان على «هدلةَ» أن تسبغ أمومتها على «ستيرو» أيضاً، التي لم تكن جاوزت الثانية عشرة حين غدت يتيمة، وكانت أكثر شقيقاتها ولعاً بـ«هبة»، التي ما جاوزت ـ آنذاك ـ

السادسةَ إلّا بشهورٍ قليلةٍ.

بدا باب المنزل الغربـي مفتوحاً على وِسْعٍ قليلٍ لم يمكِّنْ «بسنة» من تحديد الشخص الذي يقف وراءه. لكن شخصاً مّا، بالتأكيد، كان يقف متأمِّلاً الساحةَ، وقد أطبق الباب في هدوء حين ابتسمت «بسنة» ابتسـامة ترحيب لم تستطع إخفاءها، وهي متجهة بوعـائها الثقيـل، مائلة الكتف، صوب المنزل الشـرقي، فتململ الكلبـان المُقْعيان بعيـداً عنها، لكنهمـا لم يتتبَّعاها كما فعلا في قدومها إلى البئر، فيما بـدا واضحاً أن الإوزات الثـلاث، الشرسـات، يستعرضن السـاحة من مكـان مّا قـرب بركـة مـاء الدجاجات، قبل أن يحين نزولُهنَّ السفح إلى النهر الرماديِّ.

مع المغيب المبكر على سطح الهضبة، ذلك اليوم، حيث تماهت السماء مع الأرض باتّفاقٍ شاحبٍ، كانت الـوقائـع الصغيرة تنجـز كمالَها بتوقيتٍ واحد. ففي حين قدمت الإوزات الثلاث من جهة الممر الذي يخفيه سور الخرنوب، منهياتٍ نوبتهنّ الثانية في حراسة النهر، انسـلّ الديكـان «بلك» و«رش» إلى القن المسقوف بأغصان ملتوية يعلوها قشّ غير مُمهَّدٍ، وتراب ترك المطر عليه آثـاراً كالنهش. فيمـا احتمى الكلبان من المسـاء الرطب، مبكِّرين، بفجوات في سور الخرنوب، كما فعلت الإوزات تماماً. ومع توقّف صوت المداحل، والحفّارات، في الجهة الغربية من الهضبة، تسربت ـ في خجل ـ أضواء فوانيس شاحبة من خيـام العاملين البعيـدة، وكذلك من نافذة المنزل الشرقي، حيث كانت «هبة» تطرح سؤالاً أعمى على خالتها «بسنة»:

ـ ألا يناسبك هذا الجار؟

«مَنْ؟» تمتمت «بسنـة»، واستدركت أن «هبـة» تقصـد ـ مـازحـةً ـ مستأجر منـزلهم، فردت عليهـا مبتسمة: «قـد يناسب أمّـك، يا روحي». فوجمتْ الفتاة بملامحها الضائعة في الـظلال، التى لا يستطيـع المصباح

المثبت إلى الجدار أن يبدّدها، قبل أن تردّ تمتمةً:

ـ أمي ليست في حاجة إلى رجل آخر.

أما الغيوم، التي تراصّت في الأعالي، فقد ضغطت قليلاً بثقلها على الهواء فلجمته، حتى كأنّ كل شيء يريد أن يسمع، في الفراغ هناك، أوّل حركة سيبديها مستأجرو منزل «موسى موزان»، إنما دون جدوى. وإذ اشتدّ ظلام الهضبة أكثر، تفتحت أسئلة صغيرة تحت مصباح المنزل الشرقي، حيث مدَّت الشقيقات مائدة العشاء البسيطة، قريباً من الموقد الذي في الجدار:

«ألا ينيرون المصباح؟» قالت «هدلة»، فأجابت «زيري»:

ـ ربما لا يعرفون كيف يضيئونه.

وإذ ضحكن قليلاً مما قالته «زيري»، انبرت «جملو» سائلة:

ـ لا أظنهم أكلوا شيئاً. لم أجد معهم طعاماً.

وكأنّما تفتحت قرائح الشقيقات على ما سمعن، فندَّت عنهنّ إشارات لَوم:

«لماذا لم ننتبه؟» قالت «ستيرو»، وأضافت: «فلنسألهم، في الأقل، إذا كانوا يريدون ما يأكلون».

«أنا أسألهم» قالت «هبة»، فتأمَّلتها أمُّها متفكِّرةً:

«الأفضل أن نرسل معك طعاماً».

وفي سرعة جُمِعَتْ صحونٌ من مربى التين، والجبن، والفلفل الأخضر المملّح، والباذنجان المحفوظ في الزيت، ووضعتْ على صحفة من القش الملون، وسط همس «هدلة»: «أتستطيعين حملها؟»، فلم تردّ «هبة»، بل رفعت الصحفة بذراعيها الطويلتين إلى أعلى من خصرها، لتسند جزءاً من حافتها بجسمها، أسفل ثدييها النابتين، وتقوّست إلى الخلف

لتحفظ توازنها، ثم تقدَّمت صوب الباب قائلة: «افتحنة. افتحن الباب لي».

لم تجاوز «هبة» عتبة باب المنزل الشرقي حتى فوجئت بالمنزل الآخر مضاءً في ألقٍ يفيض من نافذتيه الأماميتين، فندَّ عنها صوتٌ مندهش:

«يا للضوء!!»، وحثّت خالاتها: «اخرجن.. اخرجن»، فتزاحمت الشقيقات خارجاتٍ، حتى كدن يصدمْنَ صحفة الطعام. لكن «هبة» تركتهنّ لفضولهن الذي سمَّرهنَّ خارج العتبة، وخطتْ خطوات عجولة، بصَحْفَتِها، صوب المنزل الغربي، قبل أن تحاول إحدى خالاتها انتزاع المهمّة منها. وإذ عبرت الساحة المعتمة بقدمين تتركان خشخشة ثقيلة في طينها، وصارت في مواجهة الباب الخشبي الكبير، سارعت فقرعته بمقدم حذائها وهي تُرْفِقُ القَرْعَ بصوتها المستعجل: «أنا هبة. أنا..» دون تفكير في أن هؤلاء المستأجرين لا يعرفون، ربّما، من تكون «هبة». لكن لن يغيب عنهم، قطعاً، إنها إحدى الإناث اللواتي أجربهم المنزلَ بعيون مرحة، ناسياتٍ أيَّ خَوْضٍ في تفصيلٍ مّا.

بُـرْهةٌ وفتح الباب، فضيَّقت «هبة» بين جفونها لتحدِّد الأشكال في ضوء الداخل أوّلاً، ثم دلفت إلى صحن الغرفة الأمامية، التي تتّخذ للجلوس، بمقاعدها الطينية العالية كمساطب، وقد مُدَّت عليها فرشٌ رقيقة، وغُطِّيت حتى الأرض بزرابيات مخطَّطة. وقد تسمَّرت الفتاة إذ رأت الغرفة الكَبيرة على غير عهدها. فعلى المساطب روكمت أوراق وقوارير، ومُدَّت على الأرض جلود مستطيلة عليها رسوم لا تنتهي، فيما زُيِّن سقف الغرفة، الذي ينحدر من أحد أخشابه حبلٌ أسود، بسراج ضخم، نحاسيٍّ برّاق، ذي زجاج كرويٍّ، وقد ائتلقت شعلته الساكنة المطمئنة إلى ضيائها الطاغي، لتنير على الجدار الجنوبي سجّادة ضخمة تدلَّت كمشهدٍ أبعد من حدود الغرفة، عليها أشجار متقابلة تبرز بين ورقها عيون كثيرة، فيما سُجّي على الأرضِ العراءِ جسدٌ طويل على امتداد صفّي الأشجار، كأنما سيغطي المسافة المفتوحة في الرسم الغائص داخل وَبَر السجادة. أمّا الغراب

ـ الذي كان مرتبكاً بريشه غير المتناسق، مهموماً بعينه الوحيدة، الخضراء، في جبهته، فوق المنقار ـ فبدا أكبر من الرجل الواقف قرب الجسد المسجّى، عارياً، يتأمّلُ الغراب بتعابير خالية من أي فضول. لكنه كان وحيداً جداً، بقامته التي لم يكن لها أيّ ظلٍّ، على العكس من الشجر، والغراب، والميت.

في لمحٍ عبرت عينا «هبة» تلك السجادة القاتمة، وكذلك نظيرتها المسدلة على عرض الجدار الغربي، الذي يفضي بابٌ فيه إلى غرف أخرى. والسجادة الثانية، تلك، مثّلتْ برسومها شجرةً خرقاء، ذات ورقٍ متناثر قليل، غير مثبت إلى أغصان ربّما، وتحتها رجل وامرأة عاريان، وأفعى ذات رأسٍ آدميٍّ، وأشياء صغيرة أخرى لم تعهدها «هبة» قط في الرسوم التي تُزَيِّنُ بها المنازل في تلك الأنحاء، من الهضبة إلى البلدة. وهي رسوم تقتصر، بعامَّةٍ، على صور لعليٍّ ـ كرّم الله وجهه ـ بين الحسن والحسين، وفي حجره سيفه ذو الفقار. أو صور لـ «سيامد»، البطل الشعبي الكردي، بشاربيه المعقوفين، وعمامته ذات الشراشيب، وعينيه المفتوحتين قَدْرَ ما يستطيع رسّامٌ أن يوسِّع، لأن اتّساعهما دليلُ حزمٍ، وإقدام، وجمالٍ أيضاً، في عُرْفِ الكُرد. وثمّت في البيوت، كلّها على التقريب، صور لرسوم تمثل راحة اليد، وفي وسطها عين زرقاء. لكن بعض البيوت يمتاز باقتنائه صوراً مفرطة في التزيين لرسم امرأةٍ تُدعى «المهدية»، ذات شعر كستنائي ينزل حلقاتٍ حلقاتٍ فيغطي كتفها الخفية وصدرها جميعاً، ولها خدان أحمران، وفم مزموم قرمزي، وحاجبان مزجّجان، وبشرة في بياض الحليب، دَعجاء العينين، على رأسها تاج رقيق الإطار، تنزل من مقدمه حبة لؤلؤ مربوطة بسلسلة قصيرة ذهبية، لتستقر على جبين المرأة. والرسم، بعامّة، ينم عن إسرافٍ في تقدير العافية التي ينبغي أن تظهر ملموسةً على شكل امتلاءٍ في الوجه، وَدِعَةٍ في الملامح.

سرحت «هبة» لبرهة، وهي واقفة بصحْفتها في صحن الغرفة، ثم

استفاقت على يدي «نفير»، تمتدّان صوبها لتُعيناها على إنزال حمْلها الذي بدا أنه سيستقرّ، هكذا، مستنداً إلى أضلاع الفتاة أمداً طويلاً. فتمتمت «هبة» وقد أبعدت الصحفة عن جذعها تُسلِّمه إلى «نفير» ذات الشعر القصير، الفاحم: «هذا لكم، من أمي».

«هيه. . .» قالتها «نفير» مبتسمة، وهي تبدي على وجهها الأبيض، الناصح البياض في ضوء المصباح الكبير، إشارة امتنانٍ، مخفورةً بعتبٍ خفيف: «لم يكن ضرورياً هذا يا. .»، وتأمّلت الفتاة قبل أن تضع الصحفة على أقرب مسطبة إليها، فعاجلتها الفتاةُ، مأخوذةً بعيني «نفير» الناعستين، اللتين لا يُرى لونهما: «أنا هبة. . اسمي هبة».

«هبة. .»، تناهى صوتٌ من ركن قريب من الموقد، وكرّر «هبة» كمن يستحسن الإسم، أو يكرّره لنفسه ليستأنس بلفظه، فالتفتت الفتاة لتجد «كليمة» وقد رفعت وجهها عن أحد الجلود المستطيلة، وهي متكئة بمرفقيها على وسادة عالية، في جلستها على الأرض. وكان واضحاً أن «كليمة» أكبر سناً من «نفير»، برغم الشبه الكبير في شعريهما الفاحمين القصيرين، وعباءتيهما المقصَّبتين، الملتمعتين كلّما تماوجت ثنياتهما بانعكاسِ الضوء عليهما. وفي جلستها تلك على الأرض، بجذعها المنحني أماماً، وجهها المرفوع صوب «هبة»، بدت «كليمة» غامضة قليلاً، لكنها مؤنسة، فتقدمت الفتاة في اتجاهها، وهي تحصر ببصرها الفضوليّ ركناً قريباً من الموقد، حيث جلس «مكين» في مواجهة «الكلب» يتفرّس أحدهما في الآخر، وبينهما قطع حديد أشبه بأقفالٍ مزيَّنَةٍ. ولمّا صارت «هبة» على بعد متر من «كليمة» ضمت ثوبها على جذعها في حركة احتشامٍ قبل أن تجلس القرفصاء أمام الرقعة الجلدية المستطيلة، التي تفصل بينهما، مفتوحة الفم:

ـ ما هذا؟

انحدرت «كليمة» بعينيها الزرقاوين من وجه «هبة» المقروء إلى رقعة

الجلد مبتسمةً. وإذ تمعَّنت في الخطوط المرسومة عليها، عادت فرفعت وجهها، في هدوء، صوب الفتاة المطوَّقة بهالة كبيرة من شعرها الأجعد الطويل: «هذا جلد مرسوم عليه بيتكم»، وأشارت بإصبعها إلى مربّع فيه، ثم انحدرت بإصبعها ذاك أسفل: «هذا هو الجسر. تعرفين الجسر؟» سألت بنبرةٍ فيها دعابة، فردّت «هبة» بهزّة من رأسها. بينما استطردت «كليمة»: «وهذا هو النهر»، وحدّقت في الفتاة مضيفةً: «تعرفين النهر؟»، فتمتمت «هبة» مؤكّدة: «تنزلُهُ إوزّاتُنا كلَّ يوم».

«وهذه هي الهضبة» أضافت «كليمة»، ثم نقّلت بصرها مسافةً صغيرة: «هذا...» قالت الكلمة ثم مشّطت بأصابع يدها الطويلة شعرها من غرّته حتى قذاله، في حركة خفيفة، كأنما تردّه إلى الوراء، لكنه يترامى، رقيقاً، على جهتي جمجمتها، كاشفاً عن مفرق مستقيم في الوسط. وإذ فرغت من حركتها تلك، عادت فكرّرت الكلمة: «وهذا..» قبل أن تضيف إليها جملة لم تستوعبها «هبة»: «هذا موقع الجن»، وابتسمت فابتسمت الفتاة وهي تنظر إلى حيث تشير «كليمة»، على الرقعة الجلدية، ثم مدّت أصابعها مفرودة لصق أصابع الأنثى الكبيرة، قائلة في مرح: «أصابعك طويلة كأصابعي يا...» وترددت في اختيار الصفة التي ينبغي أن تضيفها على اسم المستأجرةِ الوافدة هذه، فانتشلتها «كليمة» من موقفها: «قولي كليمة. كليمة فقط». غير أن «هبة» وضعت إصبعها على الموقع الذي كانت «كليمة» تشير إليه من قبل:

ـ أتعنين الجنَّ، حقاً؟

«الجن!»، ردّدت «كليمة» العبارة ضاحكةً، وهي تبدي استغراباً كأنّما لم تتفوَّه باسم تلك المخلوقات قبل برهة، ثم غمزت «هبة» بإحدى عينيها: «الجن؟ لا بدأنها تسكن هذا المكان»، وطأطأت فاختفى وجهها في الظل الذي انسدل كقناع عليه: «ألا تسمعين الصخب؟».

«تعنين الحفّارات» قالت «هبة»، فردّت «كليمة»: «نعم. الحفارات. ماذا تظنين أنها تفعل هناك؟» وأشارت بيدها، في مرح، إلى الجهة الغربية من الهضبة.

«إنها تحفر» قالت «هبة».

«تحفر ماذا؟» سألتها «كليمة».

«لا أعرف. إنها تحفر فقط» قالت «هبة».

فقاطعهما «مكين» من ركنه البعيد، دون أن يلتفت، وقد حرّر ذراعيه من معطفه القصير فبدا المعطف معلّقاً على كتفيه: «هل زرتم البيت الـذي يقع ما بعد الجسر؟»، فوجمت «هبة»، كأنما لا تريد الإفصاح عن جوابها. ولما أطالت الصمت التفت «مكين» إليها بوجهه الحليق ذي العينين الضاحكتين، منتظراً أن تنطق الفتاة التي حوّلت وجهها عن نظرته المتمعنة، المستنطقة، إلى «كليمة»، فسألتهـا الأخيرة بنبـرةٍ ودودة: «هل زرتم البيت، ذاك؟»، مشيرة بدورها إلى المنزل الغامض شمال الجسر،المغلق أبداً على سكانه وسط أشجار التوت الضخمة، حيث يسمع طنينٌ كطنين الآلات، عميقاً، تحت أساساته.

«لا» قالت «هبة»، وشبكت أصابع يديها تحت بـطنها كـأنما تخفي أمراً، في جلستها أمام الرقعة الجلدية، قبـال «كليمة»، لكنهـا استدارت بوجهها، بغتةً، حين لامست «نفير» كتفها في رفق، وهي تجلس متكئة على ركبتيها، وبادرتها بصوت خفيض:

ـ لا بد أن أحداً زار هذا البيت.

فردّت «هبة» دون مقاومة: «أبـي كان يزوره، مع جدي».

«أبوك، وجدّك» قالت «كليمة» دون أن يكون في نبرتها أيّ تساؤل، فكرّرت «هبة»:

ـ أبـي وجدي من زمن بعيد.

«من زمن بعيد» كرّرت «نفير» كلمات «هبة»، التي أضافت: «قبل أن يموتا، وتموت جدّتي خاتون».

«أكانا يفعلان شيئاً مّا هنا؟» وأشارت «كليمة» إلى موضع من الرقعة الجلدية، فسألتها «هبة»:

ـ ما هذا الموضع؟

«الأرض الكلسية البيضاء، أسفل الهضبة»، ردت «كليمة»، فهزّت «هبـة» رأسها أيجـاباً، ثم تـطلّعت إليها، كـأنمـا تبثّهـا إعجـابـاً: «كيف تعرفين؟».

«أنا أخمِّن» قالت «كليمة»، ومـطت شفتيها على نحو فيه ممازحة، فابتسمت «هبة»، ثم نهضت وعيناها على الرقعة الجلدية: «حفرا ساقية من النهر، في الأرض الكلس، باتجاه ذلك المنـزل». فالتفتت «كليمـة» إلى «مكين»، الذي بدا مصغياً: «لقد وجد من يساعده على الاختباء»، قالت كلمـاتها في إشـارة غامضـة إلى شخص مّا، ورفعت وجههـا إلى «هبـة» الطويلة، التي بدت غير معنية بجملة المرأة الجالسة إلى رقعة الجلد:

ـ أتشتاقين إلى أبيك؟

فارتبكت«هبة» قليلاً، ثم عراها خجل خفيف: «أبـي مات من زمان». وغطى على صوتها بوق سيارة لحوحٌ، متواصل، ينثر على صمت الهضبة ثقلاً هو من عادات الإنسان في مرحه، فنفرت «هبة» صوب الباب، خفيفةً طفلةً: «هذا نعمان حاج مجدلو»، وخرجت إلى الظلام دون أن تغلق الباب من خلفها، في عَجَلتها تلك.

كانت «ستيرو» تعبر ظلام المغيب، بـدورها، لا تُـرى، لكن خفق حذائها المطاطيّ على الطين يفتح لها ممرّاً مضيئاً من الصـوت في اتجاه

الشارع الإسفلتي، فهرولت «هبة» برغم محاذير الهرولة فوق الأرض الزلقة، لتبلغ السيارة الواقفة كشبح لقلبه صريرٌ، ثم مدّت رأسها من النافذة نصف المفتوحة على أحشائها المعتمة إلاّ من لفافة «نعمان» وهي تبادره: «ماذا جلبت لنا؟»، وقبل أن يجيب السائق الذي أطلق قهقهةً خفيفة دون سبب، دفعتها «ستيرو» بحوضها مزاحمةً أيّاها على النافذة: «وسّعي يا جرادة..»، ومدت يدها الطويلة صوب «نعمان»، عبر حضن الراكب المعتم، الجالس في المقعد الأمامي: «سلمني الغلة. هدلة لن تجيء» في إشارةٍ إلى أن أختها لن تأتي لتحاسب السائق على جنى يومه. فاحتدمت «هبة» وهي تلصق مرفقها بخصر خالتها متوعّدة بضربة تحت أضلاعها الرقيقة، فتراجعت «ستيرو» مُخرجةً رأسها وذراعها من جوف النافذة: «أتريدين أن تتسلّمي، أنتِ، الغلّة؟ ها؟ والله لا أنتِ ولا أنا.. تعالى»، وجرّت ابنةَ أختها من كتفها: «تعالي، فلتأتِ أمك لتستلم النقود من نعمان». لكن «هبة» أفلتت كتفها من يد «ستيرو» النحيلة، وهي تقابل وعيد خالتها بتخفيف ظاهر في لهجتها: «من قال إنني أريد أن أتسلّمها؟».

«ولماذا تلكزينني، إذاً؟» سألتها «ستيرو».

«لأنك تمزّقين ثوبي» قالت «هبة»، ففتحت «ستيرو» عينيها اللتين لا تُريان على وسعهما في مواجهة ابنة اختها:

- أي ثوب؟ لم ألمسك يا ابنة المرحوم أحمد كالو.

فردت «هبة» على تعريض خالتها غير المفهوم: «أين أبوك، أنتِ، يا ابنة موسى موزان؟».

«أتشتمين جدّك؟» تمتمت «ستيرو» بتوبيخٍ ملحوظ، فردّت «هبة» صارخة ملء حنجرتها الشديدة، التي طغى رنينها على صوت محرك سيارة «نعمان»: «مَنْ له ابنةٌ مثلك يستأهل الشتم»، وارتدّت في غضبٍ، عائدةً صوب ساحة المنزلين المعتمة وهي لا توفّر أحداً، في كل خطوة تخطوها،

من شتائمها، بدءاً بأبيها، ومروراً بجدها وجدّتها وأمّها، وانتهاءً بالكلبين اللذين أصدرا هريراً في جوفٍ مّا من ذلك الظلام، ثم سكتا تماماً حين دمدمت «هبة»: «صرتما أعميين، أيضاً، أيها الأطرشان». وتوقفت لبرهة تحدِّث نفسها: «ما حاجتنا إليكما؟»، وأكملت سيرها، فيما لم تنقطع كلماتها: «لتنبحا علينا. هذا ما تريده أمي. إنبحا. ستخرسان قريباً».

كانت «جملو» أولى مَنْ بادرت «هبة»، حين دخولها، وعلى وجهها فضول لا يُخفى: «لماذا تأخّرتِ؟»، فردّت «هبة» وهي تخلع حذاءها المتّسخ، في فسحة مخصّصة للأحذية على تُخْم السجّاد المفرود ملء أرضية الغرفة تلك: «أأنتنّ شياطين؟»، فأجفلت خالتها من ذلك الردّ متوجّهة بعينيها إلى اختها «هدلة»:

ـ هل قلت شيئاً منكراً؟

فتدخلت «هدلة»: «ما الذي يُغْضِبك يا ابنتي؟».

«هذا المنزل» ردّت «هبة» مُحْتقنة، وأضافت: «كلكن»، وتوجهت صوب المسطبة التي يعلوها سراج ينير مخدّاتها الكبيرة وكأنما لم تعرف ما الذي تريده بحركتها تلك، ارتدّت ـ فجاءةً ـ صوب الموقد، ثم جلست مُسْندةً ظهرها إلى حافة المسطبة، التي تشكل زاويةً بالتقائها والجدارَ الداكن قليلاً بفعل دخان الموقد، ومدّت ساقيها الطويلتين أمامها بينما ألوت نصفها العلوي صوب صحفة على الأرض، عليها أكواب فارغة، ونصف ملآى، وفي بعضها حثالةُ حمراء بردت، واختارت واحدة وضعت فيه ملعقتي سكر، لتصب فيه من الإبريق المعدني الذي لا طلاء عليه، شاياً بدا معتماً، في شحوب الغرفة.

ازدردت «هبة» لقيمات من الخبز المغموس في الزيت المختلط ببقايا باذنجانٍ وجوز، تحت بصر أمها وخالاتها، اللواتي انتظرن ـ وهُنّ يلجمن فضولهنّ حتى لا يدفعن الفتاة إلى التّمنّع إذا استُثِيْرَتْ ـ أن تسرد عليهنّ بعضاً

من أخبـار المستأجـرين، حتى أنّهن لم يلتفتن إلى «ستيرو» التي دخلت مدمدمةً كلماتٍ غير بَيِّنةٍ، وهي تقدِّم حفنة من النقود المعدنية إلى «هدلة».

«هل أكل المستأجرون ممّا حملت إليهم؟». هكذا بادرت «بسنة» ابنةَ اختها، تستدرجُها، فتمتمت «هبة» وفي فمها لقمة تمضغها: «لا أعرف». وعلى رفيف ذلك الردّ الشاحب قليلاً، اتخذت كل أخت من الأخوات موقعاً لجلوسها، على المسطبة، وعلى الأرض ذات السجاد العتيق، كأنما عرفن أن «هبة» لن تصمد أكثر من لقمتين أخريين لتفصِّل لهنَّ معلومَها.

«أظنهم كانوا شبعانين»، قالت «زيري» متخابثة، فانـطلت كلماتهـا على «هبة» التي ردّت: «كيف تعرفين أنهم كانوا شبعانين؟».

«أكلوا من الطعام الذي حملته أليهم، إذاً؟» قالت «زيري»، فأجابت «هبة»: «لم أرهم يأكلون. أخذوا الصحفة ووضعوها على المسطبة، تحت السراج الكبير»، وتوقفت عن النظر إلى صحنها، لترفع وجهها إلى أمها في محاولة لوصف السراج: «كبير جداً ياأمي. كبير..» وفتحت ذراعيها على وسعهما: «أكبر من هذا» في إشارة إلى الفراغ الذي تحصره بحركتها تلك، مضيفة: «مكين يجلس مع ذلك الذي يسمـونه كلبـاً»، وضحكتْ: «هو كلب. لسانه يتدلّى من فمه. ويسمع. ليس مثل كلبينا. إنه يسمع». وحدَّقت في أمها: «لو لم يكن يسمع لما أبقوه عندهم، حتى لو كان آدمياً». إذ ذاك قاطعتها «ستيرو» بكلمات غير موجهة إلى أحد، لكنها مثيرةً كونُها مقحمة إقحاماً في موقفٍ لا تقتضيه: «لماذا لا تتزوّج إحداكنَّ مستأجر منزلنا؟».

تطلّعت الأخوات إحداهن إلى الأخرى قبـل أن ينفجرن بـالضحك حين بادرتها «بسنة»: «مستأجر منزلنا اسمه «مكين» يا أختي ومكين هذا، إذا خطبك ورفضت فسنجري قرعةً عليه فيما بيننا». ووسط الضحك الصاخب ذاك تمادت كلّ واحدة منهنّ في شَحْذِ ظُرْفِها:

«ربما تزوّجته لو أسكنني بيتاً في المدينة، فيه مذياع كبيـر» قالت:

«جملو».

«ربّما تزوَّجته لو أسكنني بيتاً من الاسمنت، واشترى مائتي ثوب مقصَّب، وجعل رهن إشارتي خادمين تطبخان وتنظفان. . وأنا كالملكة. .» قالت «زيري».

«أنا أتزوجة إذا أحبّني» قالت «بسنة»، وألوت شفتها كأنما لم يعجبها زهدها، فأضافت: «على أن يأتمر بأمري، ويدلّلني»، ثم نظرت إلى ذراعيها: «أريد أساور ذهباً، من هنا إلى هنا» أشارت إلى ذراعها اليمنى من المرفق إلى الرسغين، «ومن هنا إلى هنا»، أشارت إلى ذراعها اليسرى من المرفق إلى الرسغين.

وسكتت الأخوات برهةً، ينتظرن فكاهة من «هدلة»، التي حدّقت فيهن عارفةً ما ينتظرن، وهزَّت رأسها مخيّبةً نظراتهن: «فلتتزوّجه ستيرو».

«ستيرو!!؟» تمتمت «هبة» اسمَ خالتها في امتعاضٍ، واستنكارٍ مهموسين، بينما نخرت «بسنة» خاصرة اختها «هدلة»: «لن تخسري شيئاً. أطلبي المستحيل الذي لا يقدر مكين على فعله، وستنقذين نفسك من الزواج به، يا أختي». لكن «هدلة» اكتفت بابتسامة، لتعود إلى اقتراحها: «فلتتزوّحه ستيرو». والتفتت إلى أختها الصغيرة النحيلة الشقراء، ذات العينين اللتين تشرفُ زرقتُهما على سماءٍ خفيةٍ في محجريها: «ليكن طلبك معقولاً» قالتْ، مضيفةً: «أطلبي أن يتزوَّجك، لا أكثر يا ستيرو»، فكتمت «ستيرو» ضحكة لا هي مجاراةٌ لفكاهة الموقف، ولا هي استغرابٌ. بينما عادت «بسنة» إلى تحريض «هدلة» على قول شيء مّا: «لماذا تتدلَّلين؟»، قالتها ساخرةً، فردَّت «هدلة»: «أتزوّجه. .» وسكتت.

«ما شرطك؟» ساءلتها «بسنة» في فضولٍ حقيقي.

«إذا أعاد إليَّ أحمد كالو» قالت «هدلة»، فوجمت الأخوات، ووجم هواء المنزل، الذي لم يحرّكه غير صوت «جملو»، بعد لحظةٍ ثقيلةٍ خاطفةٍ:

«أنتِ لا تحبين الدعابة يا هدلة»، فباغتتهن «هبة»، دون تقديرٍ للّحظةِ تلك:

ـ أنا أتزوَّجه . .

فانفجرت الإناث، من جديد، بضحكٍ صاخب، إلاّ «ستيرو» التي أصدرت طقطقةً بلسانها، وهي تزمُّ فمها كأنّما تدلِّل «هبة» كما يُدلَّل طفلٌ رضيع: «ثدياكِ يُفتنان. . » قالت: ، ومدَّت يدها إلى صدر ابنة أختها بأصابع ملمومةٍ، فارتدت «هبة» إلى الخلف ممتعضةً من حركة خالتها، ثم تقدَّمت مهاجمةً: «أرينا فخذك ـ فخذ اللّقلق يا ستيرو» دمدمت الفتاة الغاضبة، فردَّتها «بسنة» في رفقٍ تفصل بينهما، وهي تحوِّل مجرى مشاجرةٍ وشيكة:

«ما شروطك لتتزوّجي من مكين يا هبة؟»، فتأنَّفتْ «هبة» بسبب فورتها:

ـ لن أتكلَّم.

«أغضبتن روحي ذات العظام القومية. . هذه»، قالت«هدلة» وهي تشدُّ ابنتها إلى صدرها في حركة تخفيف من انفعالها، بينما غمزتْ أخواتها ليفتعلن رقةً تغري «هبة» أن تسترسل في المحاورة الفَكِهةِ .وإذْ ضمَّت رأسَ الفتاة ذا الشعر الطويل الطائش إلى صدرها، وضغطت عليه في وداعة، تمتمتْ: «لا بد أن لك مطلباً يبلبلُ عقلهُ، حتى يستأهلك يا نور هذا البيت» وقبّلت رأس «هبة»، التي خرج صوتُها خشناً بفعل وجهها المدفون في صدر أمّها:

ـ أتزوَّجه إذا قتل الكلبين. .

أبعدتها أمّها عن جسمها قليلاً، لتتأمّل وجه ابنتها، متسائلةً:

ـ يقتل الكلبين؟ ما هذا الطلب؟

«لا يسمعان، ولا يشمّان» قالت «هبة» واثقةً من حجتها التي تبرِّر قتلهما، حقاً، فردّت أمها:

ـ لكنهما يريان . .

«إذا جاء لص في الليل، وعيونهما مغمضة . . فماذا . . »، ولم تكمل «هبة» جملتها، ، لأن «ستيرو» قاطعتها بصوت فيه نبرة عويل:

ـ لهذه الفتاة روح ثعبان. هذه الفتاة ثعبان . .

«اهدأي» قالت «بسنة» موبّخةً أختها الصغرى دون تعنيفٍ في لهجتها، ثم اقتربت من «هبة» تمشي على ركبتيها فوق السجاد: «لم تقولي لنا ماذا رأيت»، وأمالت برأسها صوب المنزل الآخر، الذي زارته «هبة» بصحْفة الطعام، فأتلقت عينا الفتاة، وقد أُرْضي غرورُها الطفلَ في أن تكون موضع ترقُّبٍ. ثم نطقت: «السراج . . سراجهم كبير جداً» وهمَّت تفتح ذراعيها للتدليل على حجمه، فبادرتها «جملو»: «أخبرتنا عنه. أخبرينا عنهم. هل أكلوا من . . » .

«دعن الفتاة تتكلّم» همهمت «بسنة»، فاستطردت «هبة»: «جلود على الأرض عليها رسوم، وكتابات . . »، فقاطعتها «ستيرو»:

ـ كتابات؟! كيف تفرّقين بين الكتابة وبين ذيل الفأر؟ .

«أأنا لا أفرِّق؟» دمدمت «هبة» مستاءة، ثم قامت إلى محفظة من القماش تتدلى من مسمار في الحائط، وفيه كتاب لا يُخفى :

ـ هذا هو القرآن. فلنفتحه .

لكن «هدلة» تدخلت من جديد، في تأفّفٍ من أختها:

ـ إذا لم نكن نعرف القراءة، فهذا لا يعني أننا نجهل كيف يكون شكل الكتابة يا ستيرو.

طقطقت «ستيرو» بلسانها في سقف فمها مرتين، بصوت خافت، دليل استخفاف بحجة أختها الكبرى، لاعتقادها أن أخواتها كلكهنّ، إضافة

إلى «هبة»، لا حق لهن في تمييز ما هو حَرْفٌ، عن أي شكل آخر، لأنهن لم يتلقّين تعليماً قط. أما هي فما زالت تحتفظ في ذاكرتها، مذ كانت في العاشرة تحديداً، برائحة الصوت الذي كان والدها «موسى مـوزان» يردد عليها به الحروف: «ألفْ، فتحة، أ.. بـاء، فتحة، بَ..»، وهـو يمرِّر أصابعه الثقيلة على سطور متوازية في ورق القرآن، لا لأنه يريد تعليمها، بل بسبب فضول الفتاة الذهبية الشّعر، ذات العـظام الرقيقـة التي تستدرّ حماية الأب عليها خوف انكسارها.

«جلود، وكتابات؟!» تساءلت «جملو» بعد صمت قصير ساد الضوء الشاحب في المنزل، فردّت «هبة»، كأنما هي معنية بتوفير أجوبة أيضاً:

ـ نعم. جلود. لا أوراق كبيرة في حجمها. مـرسوم عليهـا النهر، والجسر، ومنزلنا...

«منزلنا؟» غمغمت «هدلة» في فضول، فعاجلتها «هبة»:

ـ والمنزل الذي أسفل الجسر أيضاً. وهذا الـ...

فقاطعتها «بسنة»، كأنما يخرج صوتها خفيضاً من فراغٍ مّا في ظلها الضخم، الملقى على السجاد:

«أهي مرسومة مثل التصاوير هذه؟»، وأشارت إلى إطار عتيق جداً، يحمل رسماً شاحباً لأسد وحيوانات أخرى، على الجدار، فردت «هبة»:

ـ لا. إنها علامات.

«وكيف ميّزتِ منزلنا، والجسر، والنهر و..»، فوقفت «هبـة» على ركبتيها في مواجهة «بسنة»، قائلة:

«كليمة حدّدت لي كلّ علامة، من الأرض الكلسية، أسفل الهضبة، حتى هذا الـ..»، وأشارت بيدها صـوب الجانب الغـربـي من الهضبة. فساءلتها «جملو»:

ـ هذا الـ . . . ماذا؟.

«لا أعراف» تمتمت «هبة»، مضيفة: «قلت لكليمة إنهم يحفرون. سألتني: ماذا يحفرون، فأجبت: لا أعرف. ربما هي تعرف».

«وما الذي تراهم يحفرون؟» تساءلت «بسنة» بغتة، كأنّما فاتهنّ، طويلاً، أن تسأل إحداهنّ سؤالاً كهذا، بعد شهور كثيرة مرّت، تربو بعددها على ثلاث سنين، على مجيء سيارات لا نـدروفر، وشاحنات صغيرة مسقوفة بقماش سميك، إلى الهضبة، حيث استعرض المكانَ رجال بقبعات عسكرية فرنسية من جهاته كلها، بدءاً من الطريق الاسفلتي وانتهاء بحوافّ الهضبة الشمالية الشرقية حيث البيوت المتناثرة الأولى لقرية «الهلالية». ولم يستثنوا شرق الهضبة، أيضاً، من القياس، وهمياً، بنواظير مرفوعة على قوائم من خشب، وبحبال يجري بها البعض مسافات طويلة، فيما يمسك بها البعض الآخر في أمكنة ثابتة. وتُقْسِم «بسنة» أنهم نظروا في غضبٍ إلى المنزلين، وكانت إذ ذاك في الحادية والعشرين من عمرها، فنظرت إليهم، بدورها، في غضب، وأشارت بظاهر يدها اليمنى عليهم أن ينصرفوا، فضحكوا قليلاً، ثم انصرفوا.

وقد حطّت، بعد أيام من ذلك الاستطلاع للعسكريين الفرنسيين، خيامٌ قوّية غرباً، لا تشبه خيام الغجر والبدو، لا بنسيجها ولا بأحجامها، وظهر عمال بقبّعات مستديرة الحواف، كان واضحاً أنهم المشرفون على آخرين أقلّ شأناً جيء بهم من المدينة، يلفّون رؤوسهم بحطاتٍ سميكة تحت الشمس، ويشمرون بناطيلهم الفضفاضة، الحائلة اللون، عن سيقانهم المعروقة، أو يشبكون أطراف جلابيبهم بأحزمتهم، كاشفين عن أفخاذهم التي تسترها سراويل طويلة. وقد توجّست الإناث الخمس غرابة أول الأمر، فهنّ ـ على أية حال ـ نساء لا رجل بينهنّ، قضتْ تصاريفُ عُزْلتهنّ، بعد موت الأب، وصهره، وأمهنّ، أن يبقين عازبات دون تذمّرٍ

كثير، بالرغم من شكوى «جملو» المرحة دائماً: «أكان على عمّنا كرمو موزان أن ينجب بناتٍ؟». وحظّهن في ذلك أن عمّهن لم ينجب، حقاً، غير أربع بنات، فيما كانت صلتهنّ في القرابة مقطوعةً من ناحية الأم، التي كانت وحيدة أبويها، بسبب موت أبيها المبكّر، واستنكاف الأم الأرملة عن الزواج ثانية. لكن الوقت عوَّدَ الأخوات الخمس، بعد التتالي الرتيب لمشهد العمال، والآلات، أن يكبحن هواجسهنّ أولاً، وأسئلتهنّ أيضاً: «إنهم يحفرون الأرض ويسوُّونها»، هذا ما كان لواحدتهنّ أن تصرّح به لنفسها وللأخريات، إلا «هبة»، التي ردّدت طوال السنة الأولى من أشغال أولئك الغامضين على الهضبة، أنهم إنّما يرتّبون حقلاً للشيطان، ومن ثم نسيت هاجسها ذاك أمام أسئلة خالاتها المُجْحِفة: «وماذا يريد الشيطان من حقلٍ؟ ألا تكفيه الأرض؟»، أو: «كيف تخمِّنين أنهم يرتّبون حقلاً للشيطان؟ هل سمعت الشيطان يطلب منهم ذلك؟ وماذا سيزرعون له في الحقل؟ ها؟».
غير أن الأمر الذي أنساها هاجسها ذاك، حقّاً، هو أن الرقعة، التي يشتغل عليها العاملون، كانت تتحوَّل إلى مساحةٍ صمّاء، رماديّة داكنة، لا زرع فيها. لكن قلقاً خفيفاً عرا سؤالها المطمئنّ، النائم، منذ سنين، حين سمعت «كليمة» تحدثها عن الجنّ، بالرغم من الدّعابة الصريحة في تلميحها إلى الجهة الغربية من الهضبة، حيث الأحافيرُ، وصخبُ الحفّاراتِ، والمطارقُ، واللهاثُ الذي يجمعه العراءُ حفنةً حفنةً من رئات العاملين.

وعلى الرغم من الأخوات لم يكن يرين ما يغري الشيطان بالظهور على قمة الهضبة، إلا أنّهن ظللن على قناعة مّا بأن الحامية الفرنسية ـ التي اتخذت أسفل الهضبة غرباً، معسكراً لجيادها وعرباتها الآلية، في مدى الأرض الكلسية الشديدة البياض، النظيفة، كأنما هي صحن مسطّح مغسول، تحجبه الحقول المرتفعة على حوافّه من بعض الجهات، وتحجبه الهضبة من جهات أخرى، في تواطؤٍ ظاهرٍ على إخفاء تلك الرقعة ـ لها صلة

بالسَّعَالى، مُذ استوطنت المكان، بعد أن قتلت دورية الاستطلاع الأولى للحامية «موسى موزان»، و «أحمد كالو»، و «خاتون نانو» دفعة واحدة، في الرقعة الكلسية، وضربت، من ثم خيامها هناك، واصطبلاتها، لتجعل من المكان منطلقاً لقطع أي امتداد في ثورة «سعيد آغا الدُّقُوري»، الآتية من صعيد قرية «عامردا» ـ الواقعة على بعد كيلومترات كثيرة، غرباً، من بلدة «القامشلي» ـ باتجاه الغرب.

لن تعرف الأخوات الخمس ما الذي حصل، قبل ست سنين، لأبويهما، وزوج «هدلة»، تحديداً، في ذلك المدى الأبيض، ذا مغيب أبيض، سمَّرته طلقاتٌ كثيرة في ذاكراتهنَّ كرسمٍ معلّقٍ إلى جدار. فالخيَّالة الفرنسيون التسعة بدوا مرتبكين، وحذرين، يكثرون التوجّه بالكلام إلى دليل مرتبكٍ بدوره، يتحدث العربية، سألهنّ إن كان لهنّ رجال غائبون عن البيت، فهززن رؤوسهن نفياً، إلّا «بسنة» التي التقطت ألفاظاً عربية من بدوٍ رعاة، قالت: «رجلان. رجلان فقط»، كأنّما تؤكد صفة النَّفي ما دام الدَّليل يشير إلى كثرة من الرجال في حديثه إليهن، فجمد الرَّجل على بغله في ظلام المغيب، قبل أن يتمتم: «وهل هناك امرأة غائبة، أيضاً؟»، فتخدَّرت ألسنتهن في الحلوق، وبردت أطرافهنّ، ثم التفتن بعضهنّ إلى بعضٍ في فزع، وتقدَّمن من البغل فتراجع البغل من النبرة القلقة في أصواتهنّ: «ماذا هناك؟»، قُلْنَها بالكردية التي اختلطت بألفاظ «بسنة» العربية: «ماذا؟ قُلْ لنا..».

بعد عويلٍ تحوَّلَ إلى قهر في أعماق الأخوات، لأن الدليل لم يستطع شرح شيء قط من دوافع أولئك الخيالة الشاحبين كنباتات مغبَّرة، جاءت الحامية، فلم تنزل أيٌّ منهن الهضبة في اتجاه ذلك الصَّقع الخفيض، ذي البياض الثقيل، مذ ذاك، قطّ. وبعد مجيء تلك الحامية، بثلاث سنين ـ على الأرجح ـ اجتاحت المكان آلاتٌ صفيقة. هذا كلّ ما في الأمر، لكن الأخوات ظللن يحتفظن، طوال الوقت، بصورةٍ للحامية الفرنسية على أنها

قَدَرٌ لا يُسْأَل، ولا ينبغي النظر إليه أيضاً، بدافع من التطيُّر بعد الفاجعة، التي تركتهنَّ عانساتٍ صغيرات على غير عادة أهل الشمال، الذين يزوِّجون بناتهم إلى أرامل، أو يجعلونهنَّ ضُـرَّاتٍ، خوف الكساد، يقبلون بمن يريدهن من المتزوِّجين القادرين. ولكان ذاك، قطعاً، هو حظ «هدلة» أيضاً، لولا تزوجت «أحمد كالو»، الأسمر، الذي يعروه أبداً شحوب يضفي وداعةً عليه، حين تردّد على منزلهن، مع «موسى موزان». وقد خصَّه الأخير، مراراً، باصطحابه، من بين عمّال حقل القطن جميعاً، لصمته وحيائه البالغين، في تحريض صامتٍ، ورصينٍ ـ كما ينبغي على أبٍ رصينٍ أن يمهِّد للأمور التي لا يريد خوضاً صريحاً فيها ـ على دفع الشاب إلى اختيار «هدلة»، ذات الأربعة عشر خريفاً، زوجاً له. ففاتح الأبَ المقبل على العقد الرابع من عمره، عبر وسيط هو «جَلال مهدي» ـ سائق البيك أب، الذي أحاط هيكل العربة الآلية التي تخصّ «موسى موزان»، بأعمدة منتصبة من الخشب، حتى يحشد فيها قدر ما يستطيع من أكياس القطن. وكان ردّ «موسى» مقتضباً: «شرط أن يسكن معنا».

كان ترتيباً هادئاً ترتيبُ زفاف «هدلة» على الهضبة: حضر بعض عمّال حقل القطن على عربات تجرها البغال، من تخوم المدينة، وحضر إخوة «أحمد كالو» الأربعة المتزوجون، وأخواته الأربعة المتزوجات، وأبوه الأرمل، الذي تناهبته لحظات سَعْدٍ، ولحظات بكاء كان ينهره عليها أولاده: «أأنت امرأة؟»، فيرد الأب الشيخ: «لم يبق لديّ أحد»، فيذكّره أولاده معاتبين: «وهل غادرناك؟»، فيهزّ الأب رأسه نفياً، لكن ملامحه لا تبدو مقتنعة بواقع الحال. فأولاده الذكور الأربعة، واثنتان من بناته، يقطنون معه الدار الضخمة، التي لا سور لها، قرب قوسٍ من النهر، بين «القامشلي» و«الهلالية». ولربما كانت لوعة الأب عائدة إلى كون «أحمد» أصغر أبنائه الذكور والإناث، وإلى شعور بالرضوخ لرغبة «موسى موزان». غير أن تلك الليلة المتدلية من مطالع الخريف، منعشةً، أضيئتْ حتى الفجر فوق

الهضبة بفوانيس معلَّقـة إلى أعمدةٍ أقلقت الكلبين «تُـوسي» و «هِرْشَـة»، الرابضين وراء حلقة البشر الصغيرة، يتلقَّفان ـ بين حين وآخر ـ عظام خرافٍ أُشْبِعَتْ نَهْشَاً، أو يتسلّلان إلى بساط الصوف الطويل، الممدد على مبعدة من حلقة المحتفلين وقوفاً، حيث ينام الصبية والأطفال في فوضى، بعد سهرٍ لم يعتادوه، وهم ما يزالون يحتفظون بين أيديهم بعظام لم تُجرَّد ـ بعدُ ـ من اللحم. بينما راح طبل وحيد يلقي من الهضبة، بِدَوِيِّهِ، على العراء المديد من حوله، بشرى جسارةٍ أخرى من جسارات الإنسان في اقتداره أن يهب جسده لفتنته المجهولة. وقد تدحرج الدّويُّ ذاك على سطح الهضبة أولاً، ثم انحدر أسفل إلى النهر، وجاوزه بعد ذلك حتى وصل الجسر، الـذي يشكِّل مَعْلَماً من معالم تخوم البلدة، وتدحرج فاستقر على مقربة من المنزل الواقع إلى شمال شرقي الجسر، حيث طغى عليه طنينٌ كطنين آلات كثيرة يصعد من أساساته، فترتجف له رؤوس أشجار التوت، هناك.

على أية حال، حين تمادت «هبة» في شرح ما رأته من أمر مستأجري منزلهنّ الغربـيِّ، كانت الأخوات الخمس يتشـاءبن تثاؤب فضـولٍ ونعاس خليطين. حتى «ستيرو»، التي كانت بالمـرصاد للثغـرات في رواية ابنـة أختها، بالتعليق السـاخر المُسْتَـوْضِحِ، وبـالاستخفاف، بـدت في ضوء المصباح ممتزجة الملامح بالظلال، كأنما تختبىء ـ هي أيضاً ـ في تجويف فضولها:

«هل رأيت وجه كلبهم؟»، سألتْ وهي تصحح وضع وسادة خلف ظهرها، فوق المسطبة، فردَّت«هبة»، محدقةً في أمها المتّكئة بمرفقها على البساط السميك، قرب الموقد ذي النار الذابلة: «كان الخمار ذاته ما يزال على رأسه حاجباً وجهه. وكان مُقْعياً..»، ثم ضحكتْ: «مُقْعياً مثل كلبنا توسي، لكنه لا ينبح. ملفوف بمعـطف عليه حـزامعريضمن الجلد، فيه حلقة تتدلّى منها سلسلة معدنية طويلة جداً».

«لماذا يسمّونه كلباً؟» تساءلت «جملو»، فهمهمتْ «زيري»:

ـ ربّما هم من بلادٍ هذه هي كلابُهم.

«الكلاب تتشابه، في كل مكان»، قالت «بسنة» معترضةً، وأضافت في أسى: «هذا ليس كلباً، فلماذا سمّوه كلباً على مسامعنا؟».

«هـذا، كلُّه، ليس مهمّـاً» حرَّكت «زيـري» أصابعهـا الطويلة أمـام عينيها، علامة استخفاف بالمحاورة التي تجري بين أخواتها: «هذا ليس مهماً. عندهم كلب. عندهم حمار، ذلك لا يهمّنا، لديهم مصباح ضخم، لا يهمّنا. لديهم ثياب لا تشبه ثيابنا، وشعورهم مقصوصـة، ومعهم جلود عليها رسوم، ذلك لا يهمّنا..»، فقاطعتها «هـدلة» متسـائلة: «وما الـذي يهمّنا، إذاً، يا أختي؟»، فردّت «زيري» وهي تمدِّد ساقيها المطويتين أمامها تريحهما بعدما ظلاّ مطويتين تطوِّقهما بذراعيها إلى صدرها: «ماذا يريدون؟ هذا هو المهمّ يا هدلة».

«وما الذي يريدونه من هذه الهضبة، بحسب ظنّك؟» سألت «ستيرو» أختهـا «زيري»، فـأجابت الأخيـرة في تردّد: «أخمِّن أنهم لم يجـدوا بيتاً يستأجرونه في البلدة»، فتمتمت «بسنة»: «أنت تمزحين!». وقامت بطولها الممتلىء تتمطّى وتحرِّك مفاصلها، ثم مـرَّرت أصابـع يديهـا في شعرهـا الأشقر المتناثر كعاصفة ذهبية، وحكت فروة رأسها: «أنا نعسانة».

كان على إحداهن أن تذكِّرَهن بالنعاس ليكونَ اتّفاقٌ تامٌّ بينهنّ على ذلك، فنهضْن إلى الفُرُشِ السميكة، المُنَضَّدَةِ بعضها فوق بعض، فوق مسطبة محفورة في الجدار، وسحبنها واحدةً تلو الأخرى، لتتراصف تلك الفُرُشُ على الأرض، كلُّ فِراشٍ لواحدة منهنَّ. غير أنهن اختلفن قليلاً في توزيع الأمكنة، إذ كانت «جملو»، مثلاً، معتادة على النوم قرب الجدار، في المنزل الغربـي، فاعترضت رغبتَها «ستيرو» التي تنام، بدورها، لصق الجدار في المنزل الشرقي. وتنام «زيري» قريباً من الموقـد، مثلها مثـل «هدلة».. الخ. ولمّا علا صوت «هبة» بنبرةٍ صارخة: «وأنا.. أين مكاني

أنـا؟»، أبدت «هـدلة» تبـرُّمَهـا: «فلننم الليلة، بحقّ الله، ولنحسمْ هـذه الحكاية غداً»، فسكنت الألسنة لتغدو أكثر تسامحاً: «نامي هنا يا أختي . . » تقول إحداهنّ، فتردُّ الأخرى: «لا بأس، هذا الفراش يبدو مريحاً، أيضاً»، ثم نَضَت كلٌّ واحدة منهنَّ ثوبها عن سروال داخلي سميك وطويل، وقميص فضفاض ذي كمّين، وياقة مُزَرَّرَة عند العنق. وكُنَّ خلعن، من قبل، كُلٌّ خِمارَها. وجلسن، بعد ذلك، على حافات الفُرُش بحركةٍ آليةٍ واحدة، حتى «هبة»، يجدِّلن في الضوء الشاهب ما تناثر من شعورهن، ومـا انحلَّ من جدائلهنّ، بأنامل لا تخطىء حركاتها المتعامِدَةُ وهي تطوي الخصلة الطويلة على الخصلة الطويلة، في نسقٍ لولبـيٍّ، حتى غـدت رؤوسهن متشابهـة كيقطين بجدائل من الجانبين. ومن ثم اندسسن، تحت اللُّحُف المُنَجَّدَةِ بخيوطٍ من صوفٍ، بعـدما زحفن على الفُـرُش أشباراً قليلة إلى الـوراء، متَّكئات على مرافقهن. وكذلك فعلت «هبة»، قبل أن تنهض إلى السراج فتخفّف من شعلته دون إطفاءٍ، تحسُّباً لحاجات الليل، واتخذت الفراش الذي يقع بين أمها وبين «ستيرو» للرّقاد.

لم يكن الحديث ليخفتَ، هكذا، كما خَفَتَ ضوءُ السراج، كأنما استلقاءُ الشقيقات في العتمة غير المُطْبِقَةِ، من دون أن تحدِّق إحداهن في ملامح الأخرى، يلهمهنَّ صفاءً أبلغَ:

«أحسُّ حكَّةً في فروة رأسي» قالت «جملو»، فأجابتها «بسنة»:

«حضِّري لنا غداً بعض الحنّاء. أنا أحسُّ حَكَّةً، أيضاً»، وارتفع في العتمة صوتُ هَرْشٍ أحدثته أظافرها القوية على فروة رأسها، بينما أعلن تثاؤب «هدلة» عن نفسه بأنينٍ مقصودٍ من حنجرتها، مُرْفقاً بكلمات تتمطّى:

ـ ماذا تعتقدن أن مستأجري منزلنا يفعلون هنا؟.

«قد يكونون استطلاعاً جديداً من قِبَل الفرنسيين»، ردّت «ستيرو» بآليةٍ باهتةٍ، فارتفعت هأهأةُ «هبة»، فلكزتها «ستيرو» بمرفقها، دون أن تصيبها

بسبب الفاصل القليل الذي لم تحسبه بين الفراشين. بينما أرسلت «جملو» كلماتها من وراء فراش «بسنة» صوب أختها «هدلة»:

ـ الفرنسيون لا يحتاجون إلى استطلاع جديد. إنهم موجودون أسفل الهضبة، وعلى سطحها. خيولهم لم تترك عشباً، وخيامهم تأكل الكلس. ولا أظنهم يخافون مجيء سعيد آغا الدّقوريّ ليأكلهم.

«الفرنسيون يتحسَّبون. أمرهم لله. يشربون من ماء النهر حتى يأخذوا معهم البلهارسيا إلى بلاد الكُفّار. أمّا هؤلاء.. مستأجرو منزلنا..» قالت «هدلة»، مضيفةً: «هؤلاء أمرهم غريب».

«لا غريب، ولا غرابة..» همهمت «ستيرو»، مُرْدِفة: «نسألهم غداً».

«أنتِ ستسألينهم، غداً»، قالت «بسنة»، فردت «ستيرو»:

ـ جملو. فلتسألهم جملو.

«ولماذا أنا؟» همهمت «جملو» من تحت غطاء فراشها، فقاطعها صوتُ «هدلة»:

ـ إصغين. إنها تمطر قوِّيةً.

عمَّ فضاء الغرفة الطويلة تلك إصغاءٌ خَدِرٌ له رائحة الأغطية المحشوة بصوفٍ مغسول، ثم اختلط الإصغاء بالنعاس، فطفت أجسادُ الشقيقات الخمس على هواءٍ دافىء يتنقَّل بهنَّ بين الموقد الخامد، عبوراً بالشعاعات المختنقة في فتيلة السراج المختنقة، وهنَّ يخترقن ـ كأطيافٍ مطمئنةٍ إلى أسرارها ـ تلك التصاوير المتدلية من الحيطان، دون تناسق، في إطاراتٍ من ورقٍ لاصقٍ، بنّيٍّ، يشدّها إلى زجاجٍ تكاثف عليه الغبار. أمّا «هبة» فلم تُسلِّم طيفَها إلى الظلام الفضفاض كعباءة «كليمة» الموشاة بالتطاريز، بل ألقتْ فكرها إلى «مَكين»، الذي بدا لها ـ حين نظرت إليه لَمْحاً، في جلسته

قبال «الكلب» ـ قريب الملامح إلى شخص مّا، لم تتأكّد ذاكرتُها أنها رأته، بل توجّسته. وقد عمدت «هبة» إلى مقارنةٍ غير مفصّلة بين «مكين» وأبيها «أحمد كالو»، فتشتّت حُكْمُها، لأنها لم تقدرْ على تخمين ملامح الأخير، الذي لم ينجب غيرها برغم سنوات زواجه الستّ من «هدلة»، على نحوٍ أحجم الجميع عن الخوض فيه، على الأرجح، لأن المقدور مقدورٌ. وقد تحمّلت أمُّ «هبة» آلاماً في الرحم أنهكتها منذ إنجابها ابنتها حتى موت زوجها، فأكسَبَها ألمُها ذاك شروداً يُلْحَظُ، وتأنّياً رقيقاً في حركتها، وفي أحكامها، معاً.

كان صوت المطر موحشاً قليلاً في الفراغ الذي ألقت فيه «هبة» بيقظتها الشاحبة، وهي ممدَّدة على ظهرها تحت اللحاف السميك، وقد استدارت، في رفقٍ، على جنبها الأيمن، لتواجه أمَّها التي غطاها اللحاف حتى أنفها، هامسة: «أمي..»، وحين لم تسمع جواباً، مدَّت يدها من تحت اللحاف لتلمس بأصابعها الطويلة لحاف أمها، ثم بحثت من جنباته عن منفذٍ إلى كتفها فنقرتْ عليه نقراً بطيئاً، مُكَرّرةً كلمتها: «أمي.. أمي..»، فندَّت عن «هدلة» همهمة خفيفة كأنها تحلم، بينما قرَّبت «هبة» رأسها أيضاً من وسادة أمّها لئلا تسمع همسَها عمّاتُها:

- أكانت لأبي غمّازتان؟.

غمغمت «هدلة» حروفاً غير مفهومة، واستدارت على جنبها معطيةً ظهرها لابنتها، بينما دلّت أنفاسها المُنْتَظمة على أنها كانت أبعد، قليلاً، في فكرها، من أن يصلها سؤال «هبة» الصغير. وهو سؤال لم يصل ـ بالطبع ـ مسامع الكلبين «توسي» و«هرشة» المتكوّمين داخل فجوة في سور الخرنوب، ولو وصل مسامعهما لما حرَّك فيهما ساكناً، لأنهما، في صممهما ذاك، لم يكونا ليأبها إلا لبرمهما من القطرات التي تخترق العيدان المتشابكة، منحدرةً إلى فرويهما، مُحْدِثَةً بَلَلاً ينكمش من تحته الجلد في

حركاتٍ فجائية. وزاد من كربهما أنهما لم يكن يجرؤان، في الوَجْرِ الضيق، أن ينفضا عنهما البلل كعادتهما حين يكون جسداهما حرَّيْنِ أكثر في فراغٍ حُرٍّ، على العكس من الدجاجات، اللواتي كُن متبرِّماتٍ بدورهن لكنهنّ ينفضن عن ريشهن الماء، وقتاً بعد آخر، غير آبهاتٍ أَأَخذنَ قسطاً من النوم أَمْ أخطأنَهُ، بعيونهن نصف المغمضة تحت سقف القنّ الذي أجَّلَتِ الأخوات إنجازه طويلاً، فأغفلن وَضْعَ طبقةٍ من الطين فوق التراب المفروش فوق القش، الذي يعلو، بدوره، طبقةَ الأغصان الملتوية.

كان ذلك الإهمال في إتمام بناء القنّ يدعو إلى الحنق حقّاً، فما الحِكْمَةُ أن تنقل الأخوات الخمس مسكن الدجاجات إلى الرّكن هناك، بعدما كان أمرهنّ على ما يرام في القنّ الواسع، المطلّ على الطريق الاسفلت لصق أحد جدران المنزل الغربيّ؟ بعض الدجاجات قضى دهساً تحت عجلات المركبات الآلية. نعم. وما المُقْلِقُ في ذلك؟ دجاجات، في أمكنة أكثر حيطةً، يتعرَّضن للأمر ذاته، دَهْساً، أو خطفاً بين أنياب الكلاب الشاردة، أو الثعالب، أو يخطئن الرجوع إلى مساكنهن حين يبتعدن في الحقول، فيذهبن إلى أقرب منزل ولا يرجعن بعد ذلك. نعم. أما أن يُنْقَلَ مسكنُ دجاجات آل «موسى موزان» إلى الركن الجديد، قرب جدار المنزل الشرقيّ، دون إتمام بناء سطحه، فالأمر فظٌّ دون ريب، وهو ما كان الديكان «بَلَكْ» و «رَشْ» يتفكران فيه، وهما ينقران الدجاجات عن يمينيهما وشماليهما كلما نفضت إحداهنَّ الماء عن ريشها. وأغاظهما أكثر، تحديداً، بقاء الضوء المتسرِّب من نافذة المنزل الغربيّ منعكساً على عيونهما، ليس مباشرةً، بل بانعكاسه القويّ على بركة ماء الدجاجات، التي بدت كحيوان فضِّيٍّ في ظلام الساحة، تتماوج أعضاؤه فتنفصلُ دوائر دوائر، ثم تتداخل بتدبيرٍ من المطر في تهطاله.

كان المطر ناعساً على الأرجح، والمطر ينعس حين لا ريحٌ. فإذا كان البَلَلُ الذي يحدثُهُ هو ما يُكْرِبُ الدجاجات، والكلبين «توسي» و «هرشه»،

فـإن الإوزّات الثلاث، الراقدات بدورهن في فجـوةٍ من سور الخـرنوب، لم يُدْركهنّ من المطر إلاّ نعاسُهُ، فـألوين أعناقهنّ الطويلة مخبِّئاتٍ رؤوسهن تحت الأجنحة، حيث السكينة الكبيرة التي من ريش ناعمٍ تقـودهن إلى أحلام من الماء من كل لونٍ: عَكِرٍ، صافٍ، متماوجٍ، هانىءٍ، ضحلٍ، عميقٍ، منسابٍ، راكد، نَفَّاجٍ، مختالٍ، عفيفٍ. مـاءٌ، ماءٌ، مـاءٌ تحدّه ضفتان إن كان نهراً، أو تحيطه الأرض من الجهات، دائرياً، إن كان بِرْكةً. هذا ما تعرفه إوزات عائلة «موسى موزان»، اللواتي لو قيل لهن إن هنالك ما هو أكثر اتساعاً من النهر الذي يمرّ أسفل الهضبة ـ كالبحر مثلاً، أو أبيه المحيط ـ لطقطقن بمناقيرهن هُزْوَاً بالقائل. فما من سماءٍ أكثر اتساعاً، قطّ، كالتي يرينها فوق الهضبة إذ ينظرن إليها من النهر؛ وما من منعَرَجاتٍ أكمل من متاهةٍ كتلك التي تصل سطح الهضبة بأسفل قاعها، عبر الكرم الذي يحيط بالسفوح كعصابةٍ كبيرة من الغصون العارية؛ وما من ضجيج أشمل كالذي يحدثه «جاجان بوزو» بقامته العجفاء الطويلة، وهو يرمي بخيزرانته من فوق رؤوسهن، كلّما حاولن التسلّل إلى ضفّة النهـر الشماليـة. وكن يعرفن، قطعاً، أنه يقصد تحذيرهن فحسب، لأنه لو كاد لهنَّ كيداً لأصابهن كما يصيب طيور الفاختة إذ يرميها بالخيزرانة ذات الطَّرف الذي يحمل تَمْرَةً من قيرٍ، فتمضي مصفِّرةً في الهواء، أعلى من الأرض المحروثة بأشبار. وما يكاد سربُ الفاختة يعلو في طيرانه، مليء الحواصل بالحَبِّ وبالهوامِّ، حتى يهوي بعضُهُ في ضجيجٍ يتفجّر منه الريش. و«جاجان بوزو»، الكهل، ذو الوجه الرمادي بلحيته الرمادية غير الحليقة، هو حارس ذلك النهر، يجوب

ضفته من أنحاء قرية «الهلالية» حتى تخوم قرية «جِلْكُو» ذات البيوت الستة، مُوكَّلاً ـ عاماً بعد عام ـ بمراقبة حقول القمح والشعير المتراميـة، من قِبَل المالكين، بعقود شفهيـة تعود عليـه بأكيـاسٍ تكفيه مؤونـة سنته. فكـان بالمرصاد لكلِّ شيء، منذ خريف البذار حتى صيف الحصاد، يطارد الغربان تحت المطر، والرعاة الذين يتسللون بأغنامهم في الربيع. وهو يكاد يتبرَّم

من عبور الغيوم ذاتها، حُرَّةً من فوق، لولا أن فيها نفعاً. وبالرغم من أن إوزّات عائلة «موسى موزان» لم تكن لتبتعد عن الضفة الشمالية للنهر، صوب الأمتار القليلة التي تفصلها عن الحقول، إلا أن «جاجان» كان يغتمّ لمرآهن يتخطّرْن في دلالٍ، فيصرخ من بين أسنانه، ناظراً إلى الهضبة: «أهذه الإوزات للزواج؟ أنزلن أنتنَّ يا بناتُ . . ».

وحدها الأرض الكلسية ـ التي تخفيها من معظم جهاتها حقولٌ مرتفعة ذات منحدرات، ويشقها النهر أنيساً، جاعلاً للبياض الصقيل حيلة يتنفَّس بها خارج بياضه، لما يجري الماء عَكِراً بخاصَّةٍ ـ كانت تترقرق التماعاتها كأنما يسترق الظلامُ السمعَ على الظلام، من خَلَلِ الفروق في اللون، فينقسم بعضه على بعض من ضفتي النهر حتى أعالي الهضبة، ومن السماء حتى تخوم المدينة، حيث تبدو حُلْكَةُ الليل، من شدّة إعتامها، رماديةً متشقِّقةً، يمكن لأيٍّ يريدُ أن يلتقط منها ظنونَهُ الليليةَ على شكل قَذَرٍ، أو حماقاتٍ، أو رؤى لها أعضاءٌ آدمية مختلطة بأعضاء حيوانية.

بعد ساعات، حين لملم الليل ما يزيد على نصفه الأول فغدا أقربَ مرمى إلى الفجر غير العَجُول، كانت ترتيبات عادية، مُبكِّرة، تأخذ طريقها المرسوم في ساحة منزلَيْ «موسى موزان»، وداخل أحدهما، حيث تقطن الأخوات الخمس، معاً، ليلتهنَّ الأولى. فقد سكن المطر تدريجاً، مُفسحاً للأوزات أن يخرجن من كهفهنَّ النباتيّ داخل سور الخرنوب، كي يعبرن الساحة، بمشيهُنَّ غير الأنيق، الذي تنزلق معه أرجُلُهنَّ على الطين فترتطم صدورهن بالأرض، أو يتَّقين سقوطهنّ بالأجنحة، قبل اختفائهن في المنحدر الذي يقودهن إلى النهر. وبعد وقت قليل من ذلك نهض الكلبان «توسي» و«هرشه» بدورهما، يتثاءبان، ثم توجّها من فورهما، بهرولةٍ لا مبرِّر لها، صوب باب المنزل الشرقي، ليدورا حول نفسيهما هناك، كأنما كانا مُقْبلين على مهمةٍ نسياها. وقد أنقذهما من بلاهتهما التي تتوطّد أكثر في الفجر عادةً، خروج «بسنة» إلى الساحة، ملتفةً بسترةٍ مبطَّنةٍ بالصوف،

يُرَجِّحُ أنها لرجلٍ، وتوجهت عجلى إلى المرحاض، في ما وراء القن المتّصل بجدار البيت وبسياج الخرنوب، حيث غرفة ضيقة من لبنٍ، على بابها ستارة من خيش سميك جداً، تنحدر من أسفل جدارها الخلفي قناة اسطوانية من الإسمنت تسمح للفضلات بالانزلاق على سفح الهضبة شرقاً، عبر مجرى محفورٍ يتصل بالنهر. وقد تتبّع الكلبان «بسنة» حتى باب المرحاض، ووقفا برهةً حين دخلت الفتاة، ليعودا بالهرولة الرتيبة ذاتها إلى باب المنزل الشرقي من جديد، حين خرجت «هبة» حاسرة الرأس، متوجّهة بسطلها المعدني صوب البئر، فواكباها.

حركت «هبة» ذراعَ المضخّة أعلى وأسفل، في كسل، فتدفق الماء من الصنبور على دفعاتٍ، كسولاً بدوره. غير أن عيناها لم تكونا ترقبان امتلاء سطلها، بل عايتنا نافذة المنزل الغربي المضاءة، التي لم تنتبه «بسنة» إليها في خروجها مدفوعةً بضغط مثانتها. ولمّا رجعت من المرحاض كانت عيناها، أيضاً، تحدّقان في النافذة، فيما اتجهت، في مشيٍ جانبي، صوب البئر، متسائلةً حين اقتربت من ابنة اختها: «أتعتقدين أنهم أفاقوا، الآن؟»، فرفعت «هبة» كتفيها وهي ترفع السطل الممتلىء بيديها الاثنتين، ثم تمتمت: «أعتقد أنهم لم يناموا»، ومشت مشياً مضحكاً تتمايل شمالاً ويميناً، بساقين منفرجتين تحت ثقل الماء، الذي اندلق من حواف الوعاء المعدني على ظاهر حذائها المطاط فتقشَّرَ عنه الطين. وقد مشت إلى جوارها «بسنة» حتى بلغتا الباب، وهما تنظران إلى النافذة التي أيقظت فضولهما، وإذ دخلتا إلى حيث تأججت نار الموقد المندلعة في الروث المجفف وبعض الأغصان اليابسة، كانت «هدلة» تضع قِدْرَ العدس على فوّهة الصلصال المسودّ، فيما ارتفع أنين «جملو» المختنق وهي تضغط بيدها على فكّها، من وجعٍ في أحد الأضراس، فاقترحت عليها «ستيرو» ـ وهي تحكّ مفرق شعرها بيديها الاثنتين، جالسة على فراشها الذي لم تبارحه بعد ـ أن تنزل المدينة مع «نعمان» لتخلع ضرسها وتستريح، فيما

أشارت عليها «هدلة» بماءٍ ساخنٍ مُمَلّحٍ تتمضمض به، ريثما يطلع النهار، ويرين ما يفعلن.

تردّد الفجر كثيراً قبل بلوغ الهضبة. ولم يكن فجراً فتياً على أية حال، إذ أثقلت عليه الغيومُ بسهرها البارد فأعْيَتْهُ، حتى بدا مختنقاً. غير أنه، بعد مرانٍ قليلٍ من رئتيه الفضّيتين، استرخى، مستعيداً ذلك اللون الذي تعرف الدجاجات، وحدها، أنه دليلهن الصباحيُّ إلى تفكيرٍ عميقٍ في حوصلاتهنّ الفارغة، يستغرقُهنّ فينسين أن الحواصل تلك امتلأت فلا يتوقفن عن التقاط كلّ شيء، حتى الحصى، والرمل، والقشّ، والخرز الذي تستغني عنه الشقيقات بين حين وآخر. وهذا، تحديداً، ما تتأفّف منه «زيري» لما تفتح معدة إحدى الدجاجات المذبوحة: «سيختنقن ذات يوم. كلُّهنَّ سيختنقن. من يبتلع خرزاً بهذا الحجم يا الله؟»، وتلتفت إلى أخواتها تزجرهن: «كُلْنَ، أنتنّ، خرزكن، ولا ترمينه إلى أولاء البلهاوات ـ رفيقات أعمارنا». لكن رفيقات أعمار بنات «موسى موزان» ـ ذوات الأعراف الصغيرة، والأفخاذ الممتلئة تحت الريش الذي ينحدر حتى مخالبهنّ ـ كُنَّ يأكلن القير أيضاً، في متعةٍ تشبه متعة أكلهنّ يرقات الضفادع السوداء في بِرَك العراء، كلّما امتدّت بهنّ نزهاتهنّ إلى البراميل الفارغة، التي انتهى منها العمال، بعد إفراغ قيرها المغلي على رقعة الأرض المستوية، في ذعرٍ، تحت عجلات المداحل.

وحدهن دجاجات عائلة «موسى موزان» كُنَّ يقتربن، دون حذر، من ذلك الصخب العاري فوق الجهة الغربية من الهضبة، التي تعاقبت عليها الجرّافات، والمطارق، والمداحل، والقبّعات، والخيام، والبراميل المتكوّمة واقفةً أو مستلقية، صدئة الحوّاف، مسودّةً. وذلك السواد غير الأليف كان يستهويهن بخيوطه المتجمدة، التي هي قير محض لم يجرِ مزجُهُ بالحصى، فيتناوبن عليه نقراً وازدراداً، لا يلتفتن إلى زجر بعض العمال، من بعيد، بإلقاء حجارة صغيرة في اتجاههنّ، فيما يسأل أحدهم

مَنّ يجاوره: «أهذه دجاجات أم أفران؟ مَنْ يأكلهنَّ عليه أن يشرب كـازاً ليغسل معدته».

لكن تلك الدجاجات كُنَّ شهيّات، على أية حال. فما كاد الصباح يعمُّ جنباتِ الهضبة، ومعاقل أرواحها الظاهرة، حتى كانت «هبة» تركض وراء إحداهن لصق سور الخرنوب، ومن ثم تنعطف غرباً صوب البئر الذي دارت من حوله دورتين وراءها، قبل أن تستكمل المطاردة وصولاً إلى حافة الشارع الاسفلت، حيث انزلقت الدجاجة فاحتضنتها «هبة» وقد انزلقت، بدورها، فاستقرت على ركبتيها فوق الطين. وإذ نهضت واقفةً صبّت سيلاً من الشتائم على رأس الدجاجة المذعورة، حتى أن «ستيرو» نفسها لم تسلم من بعضها، ثم شدَّتْ ذراعيها أكثر حول خصر الطير الأبله ـ الـذي فتح منقاره من الضغط، مذهولاً ويائساً في الآن ذاته ـ ورجعت صوب الساحة لتعبرَ المنزل الغربـيَّ، وهي تنظر إلى بـابه المـوصد. ومـا كادت تجـاوزه بخطوات حتى تناهى إلى سمعها صوتُ سحب المزلاج الخشبـي الضخم من الداخل، فالتفتت بجسمها كله وقد تراخت ذراعاها من حول الدجاجة، التي كادت تتملَّص حقّاً، لولا أنها تداركت فضولها وشتمتْ الطيـر الأبله على حماقته، ممسكةً به من رقبته بيد، ومحتضنةً إياه بالأخرى على نحوٍ لا نجاة معه، وهي تبتسم مُسْبَقاً لشخصٍ لم يخرج بعد من الظلام الذي يلي الباب. غير أن انتظارها لم يطُلْ بظهور «كليمة» على العتبة، في عباءتها الخضراء الداكنة التي تلتمع طياتها ذات التطريز الذهبـي، وقد توقّفت برهة تتمعَّن في عراء الهضبة بحركة بطيئة من عنقها العاري تحت شعرها القصير الفاحم. ثم التفتت إلى «هبة» التفاتة مَنْ يعرف أنها هناك، وغمزتها بعينها اليسرى الزرقاء كخرزة زرقاء، قبل أن تخطو خطوات قليلة، مفسحةً لأختها «نفير» كي تخرج بدورها، وهي تلقي نظرةً أشبه بنظرة «كليمة» على العراء، وتتفحّص الجهـات من حولهـا في هدوء متّـزنٍ، حتى استقـرَّت عينـاهـا النـاعستان، اللتـان لا يُرى لـونهما، على «هبـة»، فهزَّت رأسهـا محيِّيَةً.

وتقدَّمت خطواتٍ إلى حيث تقف أختها، في عباءتها الخضراء المقصَّبة، أيضاً، كأنَّما هما امرأة واحدة لولا اختلافٌ في الأعين، لا أكثر.

تردّدت «هبة» في أن تمضي بالدجاجة إلى المنزل أم تتأمَّل أحوال المستأجرين، الذين بدوا ـ بعد خروج «مكين» في معطفه القصير، وقبعته ذات الحواف ـ كأنهم بِرْكة في شرود الهضبة الذي لا سياق له؛ برهةٌ أبعد من غيم راكد في بركة الدجاجات، وأبعد مما يفكّر فيه سورُ الخرنـوب، والسفحُ المشرفُ على النهر المتشبث بضفَّتيه خوف الغَرَق. هكذا، كانوا برهةً مُجَسَّدةً كآدميين ليس على «هبة» إلا أن تتأمَّلهم، بعينين عـاصفتين بإعجابٍ غريب، تحوَّل ـ بعد قليل ـ إلى فضولٍ قلقٍ حين خرج «الكلب» ـ كما يسمّونه ـ واقفاً في انحناء كبير على ساقيه، غارقـاً في الخمار البني الداكن الذي ينسدل من قمة رأسه حتى وسطه، فيخفي وجهه بظلٍّ كثيف، فيما كان يحمل أغلالاً كثيرة من الحديد الصّدىء على كتفيه، فوق معطفٍ مُمَزَّقٍ لُفَّ عليه لفّاً، وشُدَّ على وسطه بخزامٍ عريضٍ من الجلد المتغضّن. وقد تقدَّم، بدوره، خطواتٍ ثقيلةً، ليقف إلى جوار «مكين»، دون أن يرفع وجهه عن يديه المليئتين بجلودٍ ملفوفة، وبَكَراتٍ عريضةٍ تحوي قياساتٍ من القماش الرقيق.

لم يفعلوا شيئاً بعد خـروجهم إلى الساحـة الطينيـة. ظلوا واقفين يقيسون الجهات بأعينهم، أو هذا ما تهيَّأ لـ «هبة»، التي قرَّرت أن تقـطع تحديقها الذي طال، وأكملت عبورها إلى المنزل الشرقي، حيث كـانت الأخوات الخمس، اللواتي لم تلحظهن في مراقبتها المستأجرين، قد صرنَ إلى خارج بابه، ملتصقات الأكتاف، يستطلعن، في فضـولٍ كفضولهـا، أؤلاء الأربعة. وهنَّ أفقْنَ من فضولهنَّ، فجاءةً، على سؤالٍ مُسْتَخِفٍّ ألقت بـه «هبـة» عليهن: «إلى مَ تنظرن؟»، فحدَّقت «جملو» فيهـا هامسة: «ما بكِ؟».

«أنا؟ ماذا بـي؟» قالت «هبة» وهي تضم ذراعيها بشدة على الدجاجة

المـذعورة، مضيفـةً: «ما بكنَّ أنتنَّ تحـدّقن هكذا؟ ألم تـرين أناسـاً من قبل؟»، فعاجَلَتْها «ستيرو» مبحوحة الصـوت: «إلى مَ كنت تنظرين أنتِ، يا ابنة أحمد كالو؟».

«إلى أبيك» ردّت «هبة» مُغْضبَةً، فاستَعَرَتْ «ستيرو» ملتفتةً إلى أختها «هدلة»:

«لمـاذا تستخفُ ابنتك بـأبـي، وأنتِ لا تزجـرينهـا؟»، فلم تجبهـا «هدلة» إلاّ بإشارة من يدها تُسْكِتُها، كأنما لا يعنيها أن تجيب بحرفٍ على سؤال أختها المتكرِّر أبداً، فيما تدخلت «بسنة» مبتسمةً وهي تمسك بكُمِّ «ستيرو»:

ـ أبوكِ جدُّها، وهي حُرَّةٌ تقولُ ما تريد.

«أكـلُّ واحدة حُـرَّةٌ، في هذا البيت، أن تشتم من تشـاء؟» قـالتهـا «ستيرو» محتدمةً، فلم تُجبها أيٌّ من الأخوات، اللواتي رجعن إلى مراقبة المستأجرين، بينما عادت «هبة» تحمـل الدجاجة وتمضي بها إلى الداخل. وقد لبثت دقيقةً هناك لتخرج منضمَّةً إلى أمّها وخالاتها، وهُنَّ يتقدَّمن في بطء، تلقائياً، حينما اتجه المستأجرون، و«كلبهم»، إلى الطريق الإسفلت. ولمّا بلغوه كانت الشقيقات الخمس قد بلغن حافته العالية، بدورهن، ثم توقفن هناك يرصدن الوجهة التي يقصدونها، إلاّ «هبة» فهي لحقت بهم، بالرغم من الزجر الخافت الذي خرج من بين شفتي «هدلة» المفترَّتين، وإذْ جاورت شقيق «نفير» و«كليمة» خاطبته مباشرة بتحـديق في وجهه جـانبياً: «أأنتم تقصدون الأرض الكلسية، أسفل الهضبة؟»، فابتسم لها «مكين»، الذي كان يسير خلف أختيه اللتين تسيران، بدورهما، خلف «كلبهم» المُحَمَّل بأشيائه الغريبة، وتمتم مؤكّداً بهزّةٍ من رأسه: «نعم. سننـزل السفح إلى هناك».

«ألا تخافون من الفـرنسيين؟ إنهم يعسكرون أسفـل الهضبة»قـالت «هبة»، فردّ «مكين» وقد توقّف عن المشي: «ما من فرنسيين هناك، الآن.

رحلت الحامية منذ مدة طويلة»، وأكمل مشيَـهُ: «ألم تستطلعـوا المُنْبَسَطَ الكلسيَّ؟».

«لا» ردّت «هبـة»، وهي تجـرُّ حـذاءهـا المـطاطيَّ السميـك على الإسفلت، مضيفـةً: «نحن لا ننزل إلى تلك الأرض. جـدي، وجدتي، وأبـي، قُتلوا هناك. قتلهم الجنُّ».

تنحنح «مكين» يُصَفِّي صوتَهُ الهادىء: «الجنُّ؟» قالها متسائلاً، وهو يلتفت برأسه إلى «هبة» التي ردّت من فورها: «الفرنسيون جلبوا معهم الجنَّ إلى الأرض الكلسية، أسفل الهضبة»، فضحك الرجل ضحكاً خفيفاً، فيما استدارت صوبهما الأختان «نفير» و«كليمة» وهما تخفّفان من مشيهما:

«هل ستصاحبيننا يا هبة؟» قالت «نفير» مبتسمة، فتـردّدت الفتاة في جوابها، بالرغم من عـلامات وجههـا التي تدلّ على رفض الفكـرة. وقد تبرعت «كليمة» بالإجابة، لحظتئذٍ: «سنصطحبها، بالتأكيد»، وتوقفت ريثما صارت «هبة» لصقها، مضيفةً: «سنتبع الجدول الذي حفره أبوك وجدّك من النهر حتى المنزل الذي يقع أسفل الجسر»، ووضعت يدها على كتف الفتاة التي ازداد تردُّدها حتى عن المشي: «ألا تحبين أن تري ما في ذلك المنزل، يا هبة؟»، فتملَّصت «هبة» من يد «كليمة» الناعمة، متراجعة: «كانت هنالك نـاعورة، خلف المنـزل ذاك. .» قالت الفتـاة، فقاطعتهـا «نفير» مبتسمـة كعادتها: «لم تكن المياه تذهب إلى النـاعورة يـا حلوة»، فهمس «مكين» هَمْسَاً، كأنّما يضع حدّاً لمحاورة عقيمة: «وماذا أيضاً؟ أعلينا أن نشرح كيف يبرِّدُ ذلك المختبىءُ في المنزل، هناك، جسمَهُ الناريَّ؟»، وتمعَّن في وجه «هبة» الممتلىء بأنوثة لا تُخفى: «هل رأيت جسداً من لهب؟»، فحسمت الفتاة تردُّدَها، حين ازدادت بلبلتها من كلامٍ بدا أنها لا تفهمه، واستدارت عائدة، لتصعد الحافة الترابية العالية المطلّة على الطريق الإسفلت. وإذْ بلغت قمَّته توقّفت ناظرةً من عليائها تلك إلى الأربعة، الذين أكملوا سيرهم

الواثق الذي لا يليق بغرباء لا يعرفون تلك الهضبة من قبل. وقد ظلّت على حالها حتى رأتهم ينحرفون عن الطريق إلى حواف الهضبة غرباً، ثم يغيبون في المنحدر الذي يصل السفح، قطعاً، بالأرض الكلسية ذات البياض المغسول.

لم تكن الأخوات الخمس قد سبقن «هبة» بالرجوع إلا أمتاراً قليلة. وهنَّ توقّفن حين لمحن الفتاة قادمة تضرب الحصى، في طريقها، بحذائها السميك، يُرِدْن استيضاحها في الذي جرى من حوارٍ بينها وبين المستأجرين، لكنها جاوزتهنّ سائرةً إلى المنزل، فأثْقَلَ ذلك على «بسنة»، ونادت عليها: «هبة.. هبة»، فارتدَّت «هبة» عليهن بصوتٍ عالٍ، قلق النبرة: «ماذا؟»، ووضعت يديها تحت إبطيها، بالرغم من أن برد الهضبة لم يكن قارساً بعد، بل أقرب إلى الدفء، مضيفة على نحو عَجُول كأنما تعرف ما الذي سيسألْنَها: «هم محتارون أيبنون بيتاً لهم على الهضبة، أم قرب النهر»، فحدَّجتها «ستيرو» مرتابةً في كلامها: «ولماذا نزلوا السفح في اتجاه الأرض الكلسية؟»، فابتسمت لها «هبة» ابتسامة عذبة، وهي تشير بإصبعها إلى وجه خالتها الصغرى، التي انْسَلَتَ خمارُها عن شعرٍ أشقر يلامس، على جانبي وجنتيها، نَمَشاً وديعاً:

ـ سألني عن اسمك...

«اسمي؟» تمتمت «ستيرو» مباغَتَةً، وقد خمّنت في صيغة التذكير التي نطقت بها «هبة» أن السائل هو «مكين»، وليس غيره، فيما افترّت شفتا «جملو» عن ابتسامة جعلتْ غمازة خدّها الأيسر تتلألأ بظلٍّ حنونٍ: «أحقّاً سألكِ عن اسم ستيرو؟»، فلم تجبها «هبة»، التي انسحبت إلى المنزل، في هدوء مَنْ تركت صاعقةً خلفها.

لم يكن ثِقَلُ المشهد الصباحيِّ ذاك، غير المألوف، قد بارح ساحة بيت «موسى موزان» ـ بعدما انسلت الشقيقات الخمس إلى داخل المنزل

لترتيب شؤون نهارهن ـ حتى صدح بوق سيـارة «نعمان حـاج مجدلـو»، بإلحاحـه المعتاد، فخـرجت «ستيرو» أولاً، ثم تبعتهـا «هبة» التي رفست الكلب «هرشه»، في طريقها، فمسّت ذيله بعدما تفاداها الحيوان بحركـة بطيئة، لكنها كانت كافية لأن تُجنِّبه نباحاً لا يُعْـرَفُ الفرقُ بينه وبين قـأقأة الدجاجة بسبب صممه. وإذ تقدَّمت الخالة وابنة أختها خطواتٍ قليلة أدركتا أن أمراً غير عادي يدفع «نعمان» إلى النزول من عربته الآلية، والوقوف على حافة الطريق العالية، ينتظرهما في سترته التي نفر بعض القطن من حشيتي كتفيها. وتلك لم تكن عادته على أية حال، غير أنه كان مبتسماً وراء دخان لفافته الذي تسلّق شاربيه في رخاء الصباح المتجانس تحت ريحه الساكنة. ولمّا اقتربتا منه ضرب الرجل القصير كفّاً بكفٍّ، وقهقه صارخاً: «سينما. . سينما»، ثم تمعَّن فيهما مدركاً أنهما لم تفهما إشارته، فنزع لفافته من بين شفتيه، ملتفتاً شمالاً صوب المدينة: «لـدينا دار سينمـا، الآن. حضرتُ فيلماً»، وفتح ذراعيه كأنّما يريـد أن يُقْسِم على ذلك يمينـاً حتى تصدقـه الفتاتان، فانشدهت «هبة» وقد ارتخى فكّها السفلي وتقطّب حاجباها، فيما انتشر عبوس خفيف على وجه «ستيرو» وهي تسأله: «ماذا تكون السينما؟».

«هاها. . » قهقه «نعمان»، ودار حول «ستيرو» نصف دورة: «سحر. . سحر. أناس ـ يا الله ـ يتحركون على الحائط. يشبهوننا. . »، واستدرك: «لا. سبحان الخالق. صنفٌ آخر. نساء. . نساء. . » وظل يبحث عن مفردة يصف بها نساءه، فقاطعته «ستيرو»: «يا للتجديف. يقلِّدون الله». فبوغت «نعمان»: «يقلّدون الله؟ من يقلِّد الله سبحانه وتعالى؟»، فردت «ستيرو»: «هؤلاء الذين يخترعون السينما». عدئذٍ ساءلها «نعمان» مستغرباً: «أتعرفين السينما؟».

«سمعت عن السينمـا» ردت «ستيرو» وأضـافت: «يقلِّدون بَشَرَ الله بصور تتحرك» وتمّعنت في «نعمان» هامسةً: «أنت كافر».

«أنا كافر؟» قالها السائق مذهولاً، وأخرج لفافة تبغ جديدة أشعلها،

وهو يصغي إلى جواب «ستيرو»:

ـ نعم. الكفّار الفرنسيون جاؤوكِ بالسينما، وها أنت ترتادها لتصير كافراً.

حاول «نعمان» الاستنجاد بـ «هبة»، فاتحاً ذراعيه ولفافة تبغه بين شفتيه: «هي صورٌ، وليست حقيقة. هي صور»، وإذْ وجد الفتاة حائرة حقاً، ارتدّ على عقبيه حتى بلغ باب السيارة ـ التي احتشد فيها أناس ضجرون، لكنهم لا يبدون حراكاً ـ والتفت برأسه إليهما: «نحن لنا أرواح، وصور السينما بلا روح، فأين التجديف؟»، وصرخ من مكانه، زيادةً في التأكيد: «الله لا يخاف الفرنسيين»، ثم فتح باب السيارة، وانحنى بجذعه على داخلها، من فوق شخصين جالسين في المقعد الأمامي، وارتد إلى الوراء، بعد ذلك، ساحباً نصفه العلويّ سَحْباً من الجوف المعدني، ليتوجّه إلى الفتاتين بخطوات لها خشخشة مرحة، هامساً وهو على مبعدة متر منهما:

ـ أليس جميلاً؟.

كان يحمل رأس وعْلٍ من الجصّ، أبيض بعينين واسعتين جداً، محدّدتين بطلاء أسود، وبقرنين متشعبين ذهبيين، فنفرت إليه «هبة»: «أهوَ لنا؟» سألته وهي تضم أصابعها الطويلة على أرومة قرنيْ الحيوان، كأنما ستختطفه من «نعمان»، الذي لم يرخِ يديه عن حِمْلِهِ، ثم قهقه: «أأحبته؟»، فأطلقتْ «هبة» تأوُّهَ إعجابٍ وهي ما تزال تشدّ رأس الوعل، لكن دون قسوة خوف الإضرار به. إذ ذاك أرخى الرجل، الذي اهتزّت ذؤابات شعره الطويل من تحت حطّة لُفّت على رأسه في إهمال، وأبعد نفسه خطوة يتأمل سرور الفتاة في وقفةٍ استعراضية، نافخاً من زاوية فمه الذي لا تفارقه لفافة التبغ: «تمهّلي. لا تكسريه»، فيما هرولت «هبة» في اتجاه المنزل، خفيفة فوق الأرض الطينية بحذائها السميك الطائر، وقد لحقت بها تحذيرات أخرى من خالتها «ستيرو»: «والله ستكسرينه. والله ستكسرين

رقبتك»، ثم التفتت إلى نعمان» تسأله: «من أين جلبت هذا؟، فغمزها الرجل الذي لم يبلغ الأربعين بعد: «بيوت القامشلي مليئة بهذه التماثيل. الكلُّ فتح خطّاً في الحدود التركية: فَلَمَزْ مُختار. عادل رَشْ. محمود باران. رَنْكُو صوفي. هَيْبَتْ علي.. الكلّ. الكل يا ستيرو يشتغـل على الخطّ. البضائع رخيصة في تركيا، وما يلزمُ هو بغل قوي، وبندقيـة»، فابتسمت «ستيرو» ملوية عنقها استخفافاً: «ولماذا لا تشتغل، أنتَ، على الخط؟»

نزع «نعمان» لفافة التبغ من بين شفتيه، ثم لـعقها وهو يدسُّ يده في جيب سترته الباطنية، دون أن يفتح أزرارها، مستخـرجاً حـزاماً طـويلاً، ناعماً، محبوكاً، من خيوط ملونة مضفورة: «هذا لهدلة» ومـدَّ يده بالهـدية إلى «ستيرو» التي أصدرت شهقة إعجاب، ثم نظرت إليه نظرة استقراء بابتسامةٍ متخابثةٍ، فأدار الرجل وجهه الذي علاه حياء طفولي، قبل أن يستدير بجسمه كلّه عائداً صوب السيارة، فصرخت «ستيرو» وقد تذكَّرت أمراً: «سترافقك جملو حين تعود. ضرسها في حاجة إلى كمّاشة» وأردفت كلامها بإشارةٍ من يدها ابتدأت من صدغها في اتجاه الفضاء، كأنّما تخلع شيئاً وترميه. غير أنها لم تنس أن تشكره شكراً خاصاً، قبل توجُّهها صوب ساحـة المنزل: «ما الذي تحب؟ يرزقك الله ذكراً. أنت تحب إبناً ذكراً»، ولـم تنتظر أن ترى ملامح الرجل ملتفتاً إليها بعينين فيهمـا سخريـة من أعوام زواجـه التسعة عشر، التي بخلت عليه بمولود، رافضاً ـ على نحوٍ مّا ـ أن يتزوّج بأخرى كعادة من يجد امرأته عاقراً من الرجال، هناك.

الديكان «رَشْ» و «بَلَكْ» كانا متوتّرين لمّا خرجت الأخوات الخمس، و «هبة» من المنزل، متّجهات إلى الممرّ الترابـي، شمال شرق الهضبة، لينحدرن منه إلى السفح المليء بكروم عارية، ومن هناك إلى النهر، حيث تحتفي الإوزات الثلاث، عادةً، بقدومهن المتأخّر، مصفّقاتٍ بأجنحتهنَّ قبل أن يستعرضن عَوْمَهنّ على الماء المَرِحِ. وفيما انكبت الإناث على جمع نباتات طرية من ضفّة النهر المستسلمة لسطوة شجر الكينا، بقيت «جملو»

وحدها متخلّفة عنهن، تكوِّم قصباً يابساً، وجذوعاً ميتة، واضعة يداً على ضرسها، كأنما تعتذر، سلفاً، عن أنها لن تتمكن من حمل أيّ شيء. وكان دأب الأخوات، على أية حال، أن يجمعن الجذوع اليابسة، ولو رطبة كما في يومهنَّ البليل ذاك، والأعشاب الغضة الصالحة للسَّلق، أو القلي، تدفعهن إلى ذلك تزجيةٌ للوقت مشوبةٌ بمتعة أن تتعرَّف الأرضُ عليهن بكلِّ خلجة جديدةٍ من خلجاتها النباتية، وبكل ثَلْمٍ جديدٍ محروثٍ أو مهملٍ، لأن الأرض ـ بالتأكيد الذي لن تفصح عنه الإوزات الثلاث لأحدٍ ـ منذورةٌ أبداً للتعرف إلى كائنها، مهما كان قريباً منها، بحسب تعرُّفه إلى براهينها المُدْرَجة، بانتظامٍ، على لوحٍ محفوظٍ خامُهُ نموُّ النبات، وتقلّبات الماء. والأخوات ـ وهن اللواتي يستطعن تحديد موت القصب، أو انجراف الحُمَّيض، ونضوج البَقْل المائي ـ كن يفاجأْن، يومياً، بأمزجةٍ أخرى للضّفة، ولشجر الكينا، وللقصب الذي ينفر من كثافته طيرٌ كالقطا طويل الساقين. وذلك، ربما، كان يدفع حتى بالكلبين الأطرشين للإصغاء إلى الرَّتابة الحكيمة للمكان كلِّه، دون اهتمامٍ ـ طبعاً ـ بمفاجآت النبات هنا وهناك، أو بالغيوم المتراصَّة من فوق كقاع صاجٍ أغبر. وهي غيوم لم تعرها الأخوات، والفتاة الصغيرة، اهتماماً بدورهنَّ، لأنها كانت متجانسةً جداً، متصالحةً، مفرَّغةً من أي طبعٍ يوحي بغلبة ميلها إلى الإمطار، مثلاً، أو الانقشاع.

غيومٌ لم تكن ترصد شيئاً، من فوق، حبيسةُ عُلُوِّها. لكن «هبة» كانت، تصغي ـ فيما حوَّم الكلبان من حولها ـ إلى هديرٍ بعيد جعلها تدور نصف دورة على عقبي حذائها السميك، قبل أن يستقر بصرها على الخط الأفقي المنحدر من الهضبة حتى الجسر غرباً، من موقعها هي في الجانب الشرقي. والخط ذاك، الذي ليس سوى الطريق الاسفلت الذي يخترق الهضبة من منتصفها، بدا كثير التَّقَطُّعِ بالمركبات الآلية التي كانت تعبره، في اللحظة تلك، كمقطوراتٍ متصلةٍ بعضها ببعض، بالرغم من اختلاف

أحجامها. وقد انطلق صوت الفتاة فجاءة: «إنهم يغادرون الهضبة»، وركضت خطوات إلى أمام مدفوعةً بخفَّةِ المشهد، ثم عادت راكضة بالخطوات ذاتها إلى أمها: «هل استطلعْ الأمرَ؟»، قالت الجملة ملتفتةً بوجهها صوب القافلة البعيدة، فلم تَدْرِ «هدلة» بمَ تردُّ، وهي التي أمعنت النظر، بدورها، مثل سائر شقيقاتها، في الأفق المتحرِّك. لكن «ستيرو»، التي كوَّمت في سلَّتها بعض الفطر أيضاً، أمسكت بسؤال «هبة» المترقرق كفضولهن، متمتمةً: «أتستطيعين اللحاق بتلك المركبات؟»، وأطلقت نفخة ساخرة من زاوية فمها: «ربما تستطيعين إذا توقف سائقوها في القامشلي». فألقت «هبة» جذوعاً تحملها في يديها، فجاءةً، ثم استدارت راكضة ركضاً وحشياً في محاذاة ضفّة النهر، عبر خط متعرِّج كتعرّجاته التي كانت تلجم قفزاتها، وانحناءاتها الجانبية المباغتة كأنها ستلقي بنفسها في الماء لتختصر المسافة، دون أن تسمع صيحة أمها: «لا تبتعدي يا هبة».

لم يكن ركضها القوي كافياً لتلحق بالقافلة البطيئة، وهي في الجهة الجنوبية من النهر، فيما صارت المركبات إلى الشمال من الجسر البعيد. وقد همّت «هبة»، مراراً، أن تقفز من فوق شريط الماء، في بعض مُنْعَرَجاته التي تبدو ضيقةً، لكنها أحجمت وهي ترى أن ما تظنّه ضيقاً لَهُوَ أوسع مما يُخَيَّلُ إلى قفزةٍ من جسدها العَرِم، فاضطرت إلى مجاراة مزاجِ النهر، والتواءاته الفظّة، مُضَاعِفَةً ركضها في المسافة المُضاعَفة، لأن قدراً مّا عابثَ «هبة»، في الآن ذاك، ولم يُرسل النهر مستقيماً كمفرق شعرها. غير أنها بلغت الطريق الإسفلت مثقلة الحذاء بطين أحمر، سميك، فجعلت تنط كجندب والطين ينفصل عن الحذاء، متناثراً بفعل خبطاتٍ أخيرة، قويةٍ، على الأرض الصلبة. وعادت من فورها، بعد تلك الحركة الطارئة، إلى الركض من جديد، وقد نفر عَرَق خفيف على طرفي منخريها، واحمرَّ خدّاها تحت البشرة السمراء كأنما عافيةُ أنثويةُ تعبث بالهواء المبترد من مطر الليلة السابقة.

كانت المركبات الآلية تكبر، قليلاً قليلاً، كلما اقتربت «هبة» أكثر في ركضها. وكانت، في معظمها شاحنات لنقل الزفت، والرمل، والبراميل، وحجارة البناء، وقد احتشدت على ظهورها المفتوحة مجموعات صغيرة من عمال أنجزوا ـ كما هو واضح ـ أعمالهم، بدليل أنهم كانوا يحملون صُرراً كبيرة هي متاعهم الذي يحتاجونه لأيام، في عودتهم من العمل فوق الهضبة في وقت ليس وقت انصرافٍ مُقْنعٍ. وقد حاذت «هبة» آخر مركبة تشكّل مؤخر القافلة، وهي لم تكن غير «جيب» عسكرية ذات هيكل من الشادر السميك، ببابين مفتوحين لأنهما نُزِعا عن هيكلها عمداً، تُقِلّ جنديين بدوا ـ من أول وهلة ـ فرنسيين بشعر قصير أشقر تحت القبعتين، نحيلين قليلاً، التفتا في لحظة واحدة صوب الفتاة كأنهما فوجئا، ثم ارتخت عضلات وجهيهما المُبَاغَتَةُ لترتسم علامة فضولٍ عليهما، مشوبةٌ باستفسارٍ مرحٍ وهما يلويان عنقيهما صوب «هبة» الراكضة، التي لم تفارق عيناها وجهيهما، حتى أن أحد الراكبين أبدى إشارة ينبّهها من أنها قد تتعثَّر إذا ظلَّت محدّقة، هكذا، فيهما، بوجهٍ محتقنٍ وفم مفتوح، وعينين ابتسمتا أولاً، ثم أَعْتَمَتَا. وبغتةً توقّفت الفتاة عن الركض معرِّجة، مشياً، على الأرض الترابية لصق الطريق الإسفلت، لتستلّ حجراً ملء قبضتها، وتتابع، بعد ذلك، ركضها صوب «الجيب» من جديد.

لم تفارق رأس الجندي الفرنسي، الجالس إلى يمين السائق، باب السيارة المفتوح، بعنق ملتوٍ إلى الوراء، كأنما زادته حركة الفتاة فضولاً، فإذا بالسائق يخفِّف من سرعة آلته حتى باتت تمشي ولا تمشي، مفسحاً لـ «هبة» أن تقترب، بعدما أشار عليه صاحبه بذلك، على الأرجح. وقد اقتربت «هبة» حقاً، حتى غدت على متر واحدٍ في محاذاتهما، ثم رفعت قبضتها بالحجر مهدِّدةً بقذفه، فندَّتْ زمجرةٌ عالية من السائق بلغته الغريبة، بينما ظلَّ رفيقه متمالكاً جأشه، يبتسم ربّما، أو يكاد، وهو يشير بإصبعه أمام وجهه شمالاً ويميناً في حركة تدلُّ على زجر «هبة» عن الإقدام على ذلك،

فيما لاح للفتاة، للمرة الأولى، شبح بندقية مركونة إلى فخذ الرجل، مائلة بفوّهتها صوب صدره، فخفّفت من هرولتها، ثم أرخت يدها المرفوعة بالحجر وتوقفت في منتصف الطريق الإسفلت، تشيّع القافلة ببريقٍ في عينيها لم يكن غضباً، بل هو لهفةٌ إلى المضيّ في لعبة تأجّلَ مَرَحُها، لأنها تقطّعت فجاءةً. وقد أرخت «هبة»، بعد ذلك، قبضتها عن الحجر دون أن تُسْقِطه، ورفعته إلى مدى عينيها فألْفَتْهُ خاماً رملياً، علق بطرفه طينٌ، فقذفت به غرباً تواكبه ببصرها، الذي سرح، قبل سقوط الحجر أرضاً، في العراء الكلسيِّ الذي لاح أكثر وعورةً، من مكانها ذاك، مُمَزَّقاً على نحوٍ مّا من حول النهر المتعرِّج في صفاقةٍ ظاهرةٍ، لأنَّ ما مِنْ ماءٍ يقدر على حَفْر مجرى، بالخِفَّةِ تلك، في أرضٍ صلبةٍ هكذا، باردةٍ في بياضها المتجانس كحماقةٍ. وإذ استدارت عائدة صوب الهضبة راعها أنها صارت على مسافة قريبة من البيت الواقع إلى شمال الجسر، فآثرت الانحدار من جهة الطريق الإسفلت الغربية في اتجاهه، وهي تتمالك ثقل جسدها ألَّا يدفعها إلى الانزلاق فوق قشرة الطين، التي انبثقت من مسامها أعشاب متباعدة، متشابهة، ستتّخذ هيئاتٍ مختلفةً، فيما بعد قَطْعاً، وستخشوشن على نحوٍ يليق بنبات برّيٍّ.

كانت «هبة» ترتدي، ذلك اليوم، مثل أمها «هدلة» تماماً: ثوباً طويلاً له تخاريم، وعروق مطرّزة في حوافه، يتدلى فوق سروال طويل يختفي في ربلَتَيْ ساقي حذائها المطاطي الطويل العنق. فيما انسدلتْ فوق الثوب سترةٌ من مخمل أسود مليء بتطاريز دائرية حال لونُها، وتهرأ الكثير من خيوطها فتقطّعتْ. وهي كانت تعتمر خماراً بدورها، انْسَلَتَ عن جديلتيها المحلولتين قليلاً، فتناثرت خصلٌ طويلة من شعرها الخرنوبي الأجعد على جانبي وجهها الفتيّ، قريباً من عينيها الشهلاوين، فأزاحته براحتي يديها حين استقرت على الأرض المنبسطة جانب الطريق، متقدّمة، دون حذر، من أشجار التوت الضخمة التي تشكّل سوراً طبيعياً من حول ذلك المنزل

ذي الطنين الغامض، العميق، الصاعد من أساساته. ولم تكد الفتاةُ تُجاوزُ جذوع بعض الشجرات، من جهته الشرقية،حتى وجدت نفسها وجهاً لوجه مع مستأجري منزلهنّ، الذين حدّقوا فيها دون فضول، ومن ثم استداروا مواجهين «الكلب»، كأنّما وجود «هبة» لا يعنيهم.

وجمت الفتاةُ، وقد اختلج في ظنّها أنها لمحت وجوه مستأجري المنزل مختلفة قليلاً عمّا كانت عليه حين حاورتْهم في الصباح: ألوانهم. نعم. هذا ما فطنت إليه «هبة»: ألوانهم. فالملامح كانت هي ذاتها بحسب اعتقادها، لكن لون جلود المرأتين، وأخيهما، بدت متوهجةً على نحوٍ ما، مشعّةً برغم ضياء النهار الشاحب من غير اعتمامٍ، في سماء الخريف المغرورقة بغَيْمها. ومن مكانها القريب،على خطواتٍ منهم، لم تستطع أن تتمعن فيهم أكثر، بعدما استداروا مواجهين «الكلب»، ذا الوجه الغارق في ظلٍّ الخمار المسدل عليه كقناع، وهو يزداد انحناءً في وقفته المنحنية كأنما سيقعي بأحماله من السلاسل والأقفال الحديدية، ولفافات الجلود،والشرائط الملفوفة بَكَرَاتٍ لِتُسْتَخْدَمَ في قياس الأطوال.

«ليست هذه هي المرة الأولى. . ليست المرّة الأولى»، قالت «كليمة» بإصرارٍ في مخارج الحروف الكردية، كأنما على «هبة»، أيضاً، أن تسمعها بلغة تفهمها، وهي تتوجه إلى «الكلب» بإلحاح من حركات يديها. فيما ارتفع تأفُّف واضح من حلق «مكين»: «أووووه. افتح الباب. إنه بابٌ عاديّ. اركلْهُ برجلك، وسينفتح. الأمر هيِّنٌ»، وأشار بيديه إشارة مَنْ يهشّم بطيخةً، فإذا «الكلب» يخرُّ، في مَسْكَنَةٍ صامتةٍ، على ركبتيه، بوجهه المُطْرِق إلى الأرض. وقد همَّ «مكين» أن يسنده، في برهةٍ خاطفة، لكنه ارتدّ إلى الوراء بصدره، واضعاً يديه في جيبي معطفه القصير، في نفاد صبر: «لست الأول. كلُّهم فعلوها وسيفعلونها. السلالة كلُّها، من قبل، ومن بعد»، ثم التفت إلى «هبة» من جديد: «ألا تستطيعين أن تفتحي هذا الباب، يا هبة؟»، وأومأ برأسه صوب باب المنزل الخشبي الضخم، المزيَّن

بمسامير مفلطحة على أشكال مثلثات، فلم تتابع «هبة» حركة رأسه، بل ظلت محدّقة في بياضه المُشرق الذي يكاد يخفي تفاصيل ملامح وجهه، واستدارت بعينيها، بعد ذلك، إلى الأختين فإذا وجهاهما على النحو ذاته، مُضـاءان كأنما سراج خفيٌّ يُسْقِطُ عليهما نورَ فتيله المشتعل، فبان ارتباكُها الذي قطعه «مكين» بسؤاله المُكرَّر: «ألا تستطيعين يا هبة؟».

رفعت «هبة» كتفيها دلالة على أنها لا تدري إن كان في مستطاعها فتح ذلك الباب، قبل أن تتوجّه إلى «مكين» سائلة: «أأقدر على فتحه؟»، فضحك الرجل ضحكة خفيفة، بينما تقدّمت منها «نفير» هامسة: «حاولي».

«وما هذا الطنين في داخل المنـزل؟»، سألت «هبـةُ» المرأة، التي همست من جديد:

ـ حاولي. افتحي الباب.

تقدمت «هبة» من الباب حذرةً متردّدة، فاستوقفها «مكين»: «لا عليك يا هبة. هذا مَنْ سيفتح الباب»، وحدَّق في «الكلب»، متوجهاً إليه بالكلام:

«أترى؟ حتى هبة لم تتردّد. غير أننا نستطيع أن ننتظر أكثر إذا لم تكن مُهيَّأً بعد. سننتظر»، قال كلمته الأخيرة في برودٍ واضحٍ، كأنّما يعني ذلك قطعاً. ثم نظر إلى أختيه قائلاً: «فلنتركه وحده، قليلاً، ولنستكشف هذه الشجرات. إنها صامتة جداً»، ومشى خطوات في اتجاه أشجار التوت المحدقة بالمنزل، فلحقت به أختاه، متهاديتين في معطفيهما الملتمعين كأجنحة الزيران الخضراء.

بقيت «هبة» وحدها على مبعدة خطوات قليلة من «الكلب» المُطْرِق في جلسته الصامتة على ركبتيه، وسط أحماله، فدارت من حوله نصف دورة، منحنيةً عسى تلمح شيئاً من وجهه الفارق في ظل الخمار السميك المسدل عليه عن قصدٍ، ولما لم تنل مرادها همست تُلْفِتُهُ إليها: «هيه.. هيه» بصوت خفيض، فبقي «الكلب» على حاله الصامتة. إذ ذاك استدارت

الفتاة متجهة إلى السفح الهيِّن فصعدته مقوِّسة جذعهـا حتى صارت إلى الطريق الإسفلت، فاستقامت وهي تنفض بعض الطين عن حذائها بحركة قوية من قدميها القويتين، ناظرة إلى المنزل الذي أخفته شجراتُ التوت، وأخفت «الكلب»، ومستأجري منـزلهنَّ، والوحشةَ الباردة لـذلك الـطنين البارد، والمحاورةَ التي لم تفهم دواعيها العمياء. غير أنها حين نظرت إلى امتداد الطريق الإسفلت الذي يصعد الهضبة، فيما وراء الجسر، رشيقاً، جذبت وشاحها المستقرَّ من حول رقبتها، وبَرَمَتْهُ حتى غدا حبلاً رقيقاً فلفّت به وسطها، فوق سترة المخمل، واتجهت بخـطوات عجولـة إلى المنزل البعيد.

كان في مستطاع «هبة»، من مكانها ذاك، أن تشرف بنظرة واحدة إلى يمينها ـ وهي متجهة جنوباً ـ على الأرض الكلسية المديدة كصحن عملاق، ذي نتوءات خفيفة في قاعه، لكنها لم تلتفت. كما لم تلتفت إلى فـوق، حيث تشظّت طبقة الغيم المتراصَّة فبانت طبقةٌ أخرى من خَلَلِ شقوقها، بيضاء قطنيةٌ، مسرعةٌ تتدحرج بين كمائن الريح العالية. فيما عبر غرابان، أيضاً، متجهان مثل «هبة» جنوباً، عجولين صاخبين بنعيقهما المُحَذِّر، دون أن ترفع وجهها إليهما. ولم ترفع يديها، كعادتها، لتبدد الخصل الكثيـرة التي انفلتت من جديلتيها، منسدلةً فوق الصدغين خيوطاً طويلة، متماوجة، تعبث بها النسائم فتلتصق برموشها، ليغدوا المشهد مشوشاً أمام عينيهـا، مُبْهِجاً في الآن ذاته، وهي ترى الهضبة أقـلَّ تجانسـاً في كتلتها التـرابية الحمراء، الممتزجة بالحجارة، وجذوع الكروم النافرة كأذرع متوسِّلة. غير أن الطريق الإسفلت ـ في نهايته التي تخترق الهضبة وتقسِّمها ثديين، لتغيب

في الأفق الرمادي ـ كان يبدو لعينيها الناظرتين من بين شبكة شعرها شبيهاً بمجرى النهر، فانحنت، دون أن تتوقّف، وفتحت يديها كأنما تغرف بهما مــاءً غير مرئيٍّ، ورشّت به وجهها. ثم كرّرت الحركة مراراً وهي تغسل رقبتها، وصدرهــا، وبطنهــا، وفخذيهــا. ولم تنس أن تقذف حفنـات منه شمالاً، ويميناً، على نحوِ مَنْ يداعب أناساً من حوله، فيرشقهم بالماء.

الفصل الثانـي

المياه وحرائقها

كان الوحل المتجانس، الأملس، حول بركة ماء الدجاجات. يتمزّق في صمتٍ، ويتخـرَّم متناثـراً نثاراً خفيفـاً تحت مخـالب الـديكين «رش» و«بَلَك»، في ذلك الصباح الذي مهّدتِ الغيوم فيه للريح أن تمسِّد الهضبة في رفق لا بَلَل فيـه. وقد تنـاثرت بضـع ريشات من ذيـل أحدهمـا، في الارتطام الأول لجسميهما المنتفخين، المتوترين، كأنّما يحتبسـان الهواء الكثير الذي ينفلت من دمهما الحيوانيّ في مسـاكب العضل، غيـر آبهين بإشارات الأشباح الثلاثة التي وقفت على حافة الركام العالية، المطلّة على الطريق الإسفلت غربـاً، وهي تجاهـد أن تفصل بينهمـا، دون تقدُّم إلى الساحة، حتى أنهما ـ حين اتّسعت دائرة عراكهما بين التحـام وانفصال، واستقبال واستدبار، وشدٍّ وتراخٍ، وانقضاض وارتداد ـ كادا ينقران أحذيـة الأشباح الثلاثة، متواطئين معاً برغم خصامهما، على أن لا يتدخَّل وافدون كهؤلاء في شأنهما المُسْتَعِر. ولبرهةٍ تراجعت الأشبـاح تلك، الغارقة في ملاءات سميكة كملاءات النوم، من قمة رؤوسها حتى ربلات سيقانها، وقد أغلق كل واحد منها ملاءته بيده تحت أنفه، مخفياً ملامحه، فيمـا ارتفع صوتٌ أنثويٌّ خشن من تحت إحدى تلك الملاءات مستغرباً: «مـا كنتُ لاحتفظ بديكين لهما هذه الطباع».

حاد الديكان، قليلاً، عن أقدام الأشباح الثلاثة التي اخترقت دائرة حلبتهما غير المرئية، ليرجعا ـ من ثمَّ ـ إلى التلاحم الضاري بعد نظرات استخفافٍ ألقياها على الوافدين أولئك، فاهتزَّ عـرفاهمـا، وتوثّب الـريش

القصير حول عنقيهما، حتى بات كَقُمعيْن من ألوان كثيفة أخفاها الضياء الشاحب لصباح الخريف، الذي تقدَّمت فيه «هبة» بسطها من البئر، وهي تتمتم: «مُهرِّجان»، تحت نظرة الاستخفاف التي ألقت بها إلى «رش» و «بلك»، دون أن ترى بالطبع، الثلاثة المقتربين من البئر بدورهم، وقد وقفوا على خطوات منها، متأملين، في هدوء، حركات ذراعها المنكبَّة على ضخِّ الماء بالرّافعة اليدوية، نزولاً وصعوداً، حتى فاض الماء من السّطل مندلقاً على حذائها المطاطي الذي علق الطين بحوافه. وحين رفعت الوعاء من مقبضه القوسيِّ بيديها الاثنتين، همَّ أحد الأشباح الثلاثة أن يعينها، ثم تردّد، مدركاً أن ليس في مقدوره لَمْسُ الكثافات الأرضية مُذ صار شبحاً تقدر الريحُ أن تخرقهُ من جهات جسده كلّها، وتعبره الطيور من أنحائه. وكان أكثر ما يثير امتعاضه اختراق الهوامِّ ـ والذباب تخصيصاً ـ لهيكله، في طيرانه اللولبيّ ذي الطنين المنفِّر. لكنه ـ أيّ الشبح ذاك ـ لم يكن معنياً بشيء في الصباح الباكر، الذي ستشهد ساعاته القادمة وفود من سيستأجرون أحد منزلي «موسى موزان»، إلاّ بحركات «هبة»، وهو يرمقها بعينين حنونتين من تحت الملاءة الملمومة كبرقعٍ على مساحة الوجه. وقد التفت إلى شبحٍ آخر، يجاوره، هامساً: «أليست جميلة؟»، وعاد ملقياً نظراته على الفتاة المنسحبة بسطلها المعدني صوب المنزل الشرقي، منفرجة الساقين من ثقل حملها الذي أسندته على بطنها، مضيفاً في همس أكثر: «أليست جميلة ابنتك هذه، يا أحمد؟».

«إنها حفيدتكِ يا خاتون»، أجاب شبح «أحمد كالو»، وضحك ضحكة خفيفة على حياء: «سبحان الله. يداها يداك يا خاتون. شعرها.. عيناها..»، وأمسك عن الكلام عندما جذبه الشبح الثالث من طرف ملاءته، فوق الخاصرة اليمنى: «سيأتون بعد قليل يا أحمد»، فالتفت إليه «أحمد» على مهل: «وهل نستطيع أن نفعل شيئاً يا عمي موسى؟»، فهز الرجل رأسه نفياً، قبل أن يتمتم كأنّما لنفسه: «ربّما بناتي».

«لا يستطعن شيئاً» قال «أحمد كالو»، وأضاف بعد نظرة دائرية على المنزلين: «لا أحد يستطع، يا عمي موسى». فردّت «خاتون» من تحت نقابها، تأكد، مداورةً، على كلام زوج ابنتها: «أظنّنا ضيعنا وقتاً كثيراً على تلك الساقية»، فقاطعها «أحمد»: «نعم يا أم هدلة. أنا أظن ذلك، أيضاً. ربما كان حرياً بنا أن نرجع إلى سعيد أغا الدّقوري».

«أكنتَ نجوت من الموت؟» سأله «موسى موزان»، فردّ صهره:

ـ أموت هنا.. أموت هناك.. المكتوبُ مكتوب. لكن قصدي أننا..

«أووف» همس «موسى» في لوعة خافتة، ثم التفت إلى «أحمد»، وكلاهما ممسك بالملاءة كنقاب على وجهيهما لا تُرى منهما إلا العيون المعتمة: «ألم يكن ما فعلناه، لإبقاء ذلك المخلوق الناريِّ في سرداب بيته، مفيداً؟».

«لكننا متنا يا عمي موسى. وهؤلاء القادمون اليوم سيحوّلون مجرى ساقية الماء فيخرج المخلوق مضطراً».

رفع «موسى موزان» كتفيه محتاراً: «حاولت الإبقاء على هذه الهضبة آمنة»، وهزّ رأسه: «الشيطان، والفرنسيون، معاً؟ ذلك كثير يا أحمد. حاولت إبعاد الشيطان، في الأقل»، واستدرك: «أما مسألة موتنا فهي تدبير الله. كنا سنموت إلى جانب سعيد آغا الدَّقوري، أو إلى جانب هذه الساقية»، فسألته زوجه «خاتون»، كأنما للمرَّة الأولى بعد مقتلهم قبل ست سنين: «لماذا أطلقوا علينا النار بحسب اعتقادك، يا أبا البنات؟».

«لا أعرف. أنا لم أنتبه حتى»، واستدار بعينيه المعتمتين إلى صهره: «هل انتبهت، أنت؟» سأله، فردّ «أحمد كالو»: «لا. لم أسمعهم. لم أرهم. أكانوا يكمنون لغيرنا؟».

«ربّما» أجابَهُ «موسى موزان» الطويل، مضيفاً في همس، يخاطب زوجه: «ليتك بقيت في البيت، ذلك اليوم، أيضاً، يا أم البنات»، ورفع وجهه عالياً، صوب الفراغ الرمادي: «من ألهمكِ اللحاقَ بنا؟ لو بقيتِ معهنّ.. لو..» فقاطعته زوجه:

ـ وما الفرق؟ هذه حفيدتك أشدُّ من رَجُلٍ.

فتنفّس «موسى موزان» عميقاً من تحت نقابِهِ، وهو يتبع «هبة» بعينيه إلى باب المنزل الشرقي، الذي غابت في ظلام داخله، ثم استدار صوب الديكين «رش» و «بلك» الصاخبين في عراكهما الضاري، متمتماً: «الن يتوقّفا؟».

لم يتوقف الديكان عن استعراض خِفَّتيهما، كأنّما يمتحنان المكان، طوال حقبة الصباح الأولى، تحت أبصار الأشباح الثلاثة، المنتصبة دون ضجرٍ على مرمى من غيم متبرِّجٍ للخريف، حيث عبرت غربان الحقول، من فوق، صفيقةً بنعيقها الطائش، فيما تمزَّق الهواءُ، ذو المزاج المهادن وقتذاك، من حول أجنحة الديكين مراراً، كلما ارتطم أحدهما بالآخر وارتدَّ مختنق الصوت من الصّدمة. وهما كانا يراعيان وجودهما وحيدين دون وسيط يردعهما قليلاً، أو يخفف من ضراوة عراكهما غير المبرر، لذلك يعمدان، لحظات بعد أخرى، إلى الإنفصال كأن شيئاً لم يكن، وينقران الأرض في وداعة المنصرف إلى رزقٍ وفير، قبل أن تعروهما نوبة فجائية من سُعار أشدَّ، فينشران ريشهما منتصباً، ويُهيِّجان عرفيهما فوق المنقارين المفتوحين. وإذْ يكملان نصف دورةٍ، أحدهما حول الآخر، يندفعان معاً، في البرهة المحسوبة ذاتها، طائرين طيراناً يكفيهما أن تتواجه المخالب في الهواء، ويُرْعِدَ الذيلان اللذان يتناثر من ريشهما بروق مكسورة من اللون.

حين تبدّد الدخان الصاعد من سطح المنزلين، شيئاً فشيئاً، كأنما استنفدت نارُ المداخن واجبها الصباحي، خرجت «بسنة»، و «جملو»

و «زيري» من المنزل الغربي، تباعاً، عابرات على مقربة من الأشباح الثلاثة، لينضممن إلى اختيهن «هدلة» و «ستيرو»،فيما خرجت«هبة» متأخرة قليلاً، ليتبعها الكلبان «هرشة» و «توسي» في بلاهة. وإذْ غاب الجميع في المنحدر، عبر الممر الذي يخفيه سور الخرنوب اليابس، تحركت الأشباح الثلاثة بخطى رقيقة صوب الشارع الإسفلت، غرباً، ليقفوا ـ من ثمَّ ـ على الحافة الترابية العالية التي تطل عليه، ساكتين، تترقرق ملاءاتهم الطويلة التي يلتفون بها من رؤوسهم حتى ربلات السيقان. ولم تبدُ منهم، بعد وقت من انتظارهم الصارم ذاك، إلّا جملة خفيضة قالها موسى «موزان»: «سيصعدون من هذه الجهة»، دون إشارة من يده، وإنما بنظرةٍ من عينيه المعتمتين خلف النقاب إلى السفح الذي يطل على الأرض الكلسية، التي لم تكن تُرى من موقعهم. بيد أن الثلاثة الساكتين اضطروا إلى الالتفات، لاوين أعناقهم صوب الديكين اللذين اجتاز الحافة الترابية المطلة على الشارع بقفزاتٍ ارتدادية، حتى لا يترك أحدهما للآخر الإفادة من المنحدر فَيُحْكِمَ انقضاضَه، متدحرجين ككرةٍ واحدة من ريشٍ وقأقآتٍ مختنقة. ولما لمسا بأجنحتهما ـ قبل أرجلهما ـ الإسفلت الصلب، انتصبا مأخوذين بالبطر الذي سيُمكن حركاتهما، بعد قليل، أن تكون أكثر استعراضاً، بالرغم من أن انزلاقاتِ مخالبهما المتتالية على القشرة الملساء للقير والحصى المتجانس.

خشخشاتٌ كثيرة أحدثها «رش» و«بلك» على الإسفلت. دورانٌ كثير حول الهواء المُغْتَلم كبطشهما جعل الهواء ـ في الحلقة الدائرية التي رسماها، بتواطؤٍ ظاهرٍ، لمجونهما الحيوانيِّ ـ أكثر افتتاناً بنزوعه إلى تأمُّلٍ صامت في الحفّارات، والمداحل الآلية، المتشبثة بالحقيقة المنذورة لكمالهاالآليِّ ،غربيَّ الهضبة.

لم يحرِّك الديكان سكون الهواء. لم يحرِّكا أملاً يجذبُ الريشَ إلى استعراضٍ أكبر ممّا استعرضاه على الإسفلت الصلب، لذلك انفضّا سُرَاعاً حين ظهرت «هبة»، فجاءةً، من الجهة الشرقية للطريق، مطلّة عليهما بيدين

موضوعتين حول خاصرتيها في تأفّفٍ ظاهر، كأنما كانا ينتظران حركتها الحكيمة تلك، ليصعد الحافة الترابية زَحْفاً راكضاً على سيقانهما، وعنقيهما، ومنقاريهما، متوجهين إلى بركة ماء الدجاجات ليغرفا ما يطفىء السعير الصاعد من أعماقهما المفتوحة على جوهرها البسيط. في حين قصدت «هبة» باب المنزل الشرقي الضحم، لما تأكّد لها التحاقُ الديكين برُكنهما، ودلفت إلى الداخل وسط صرير المفاصل الخشبية، لترجع حاملة سلة ربَّما أحوجَ الأخوات إليها قِطافٌ من أعشاب النهر أكبرُ لم يحتسبن له، فأرسلن «هبة» إلى الدار. وفي برهاتٍ كانت الفتاة قد غابت خلف سور الخرنوب، نازلةً الدرب اللولبي الضيق إلى أمها وخالاتها.

«إنها جميلة حفيدتك هذه» قالتها «خاتون نانو» لزوجها «موسى موزان»، وهي تلتفت إلى الجهة الغربية، من جديد، بعدما تتبعت حفيدتها بعينيها حتى غابت وراء سور الخرنوب، فلم يعلّق زوجها بكلام، بل ألوى عنقه صوب صهره «أحمد» وابتسم له ابتسامة انحدرت إلى ظلام نقابه، فلم يرها أحد. ثم عاد متطلعاً، في تحديقٍ فاحصٍ، إلى الجهة التي يطلُّ سفح الهضبة منها على الأرض المنبسطة الكلسية، فجارته زوجه وصهره معاً، لتقع عيونهم، جميعاً، على قبعة «مكين» المضلّعة أولاً، ومن ثم رأسي أختيه «كليمة» و «نفير» ذوي الشعرين القصيرين. وقد ظهرت بعد ذلك، أجزاء من جذوعهم، ثم اكتملت حين استووا واقفين على مشارف الطريق الإسفلت، في الجهة المقابلة لوقوف الأشباح الثلاثة، فتأمّل كلٌّ في الذي يواجهه، عبر الفاصل القليل من أمتار لا تزيد على الثلاثين، لكن «موسى موزانٍ» قطع ذلك التأمُّل الخالي من الفضول، رافعاً صوته المشوب بسخرية خفيفة:

- أراكم تعبتم من صعود الهضبة يامكين.أنتم تتعبون أيضاً.

«هذا ما تظنه يا موسى» ردّ «مكين»، والتفت إلى أختيه سائلاً سؤالاً يقصد به «موسى» لا غير:

ـ لماذا لا يغادرون هـذه الهضبة؟ يستـطيعون التعـرّف على أمكنة جديدة.

«وهل ضاقت بكم الأمكنـة لتقصدوا هـذه الهضبة؟» قـال «موسى» بصوت أجشٍّ، عالٍ، ثم أردف ساخراً من جديد: «أنتم، مثلنا، تختارون المكان الذي تعرفونه».

«إذا كنتُ أعرفك، يا موسى، فذلك لا يعني أنني أعرف هذا المكان» ردّ «مكين» وهو يتقدَّم صوب الطريق الإسفلت مع أختيه الصامتتين، فتقدم «موسى» خطوات بدوره، كأنما يهمّ بملاقاة «مكين» على الطريق، قائلاً: «حين نعرف شخصا مّا نعرف المكان أيضاً».

«لنقل، في بساطة، يا موسى، أنك اخترت لنا أن نقصد منزلك»، ذلك ما نطقت به «نفير»، للمرة الأولى، فمدَّت «خاتون» يدها من تحت المـلاءة لتلمس مرفق زوجهـا، سائلة في فضـول: «ما الـذي تعنيه هـذه المرأة؟».

«لا شيء» ردّ «مـوسى» دون التفـاتٍ إلى زوجـه، مضيفـاً: «إنهـا لا تقصد شيئاً يا خاتون. هذا ليس صوتها، بل ما نفكر نحن به».

«منذ متى صرنا تجسيداً لما تفكِّر به يا موسى؟» سألته «كليمة» مبتسمة ابتسامة مرحٍ، فردّ «موسى» من فوره:

ـ مـذ مُتنـا يـا كليمـة.

«فَلنعفِ أنفسنا من المشاحنة» قال «مكين وهو يتقدّم حتى صار على خطوتين من «موسى»، مسترسلاً: «يناسبنا المنزل الغربـي. سنستأجره من بناتك»، ثم جاوزه صاعداً حافة الطريق المحدَّبة، فصعدت من خلفه أختاه هادئتين، ليلحق بهم صوت «موسى»: «أليس مفزعاً ما يجري على حافة الهضبة، هناك؟»، وأشار بيده إلى الجهة التي يعلو منها صوت الحفّارات،

والمداحل، والمطارق ذات الإصرار. فالتفت إليه «مكين» متطلّعاً في تأمّل لم يدم، قبل أن يجيب:

ـ انظرْ هناك. هذا هو الفزع.

تطلع «موسى» وزوجه «خاتون»، و «أحمد كالو»، معاً، إلى الجهة التي صعد منها «مكين» وأختاه إلى قمة الهضبة، فرأوا شخصاً يستقيم فلا يستطيع، بعد بلوغه الحافة الغربية للطريق الإسفلت، محمَّلاً بمتاع كثير، ولفائف جلدٍ وأقمشةٍ، وسلاسل، وأقفال تتدلى على فخذيه، لاهثاً على نحوٍ مختنق تحت خمار مسدل على وجهه كلّه، فوق معطف رثٍّ شُدَّ بحزام على وسطه.

«هذا كلبنا» قالها «مكين»قاطعاً على الأشباح الثلاثة تأمُّلها الشاحب في أحوال الشخص الوافد توّاً، فتمتمت «خاتون»: «كلب؟ أهذا كلب؟»، فيما استدار «موسى» إلى «مكين» متفحّصاً ملامحه السمحة، كأنّما يستجلي فيها مزاحاً فلم يجد أثراً للمزاح، حتى أن «مكين» كرَّر كلماته، وهو يسترسل في تقدمه صوب ساحة المنزلين: «لا تفكروا في الأمر كثيراً. إنه كلبنا الذي يحتاج إلى رعاية»، وتوقّف عن المشي، فيما جاوزته أختاه، ليلتفت، ثانية، إلى «موسى موزان»، مضيفاً بنبرةٍ بدت ثقيلة: «يحتاج إلى رعاية ذاك. . ماذا تدعونه؟» وأشار بيده إلى جهة الجسر البعيد: «ذلك القابع في المنزل، غربيَّ الجسر، ماذا تدعونه؟»، فبرقت، لأوّل مرة، عينا «موسى» الشاحبتان في ظلام الخمار المسدل على وجه كله.

لم يتفوّه أحد، بعد الجملة الأخيرة لـ «مكين» بكلام، إذ لحق من يسمّونه «كلباً» بالإخوة الثلاثة، منحني الجذع تحت أثقاله، فبدا للأشباح الثلاثة المتأمّلة كلباً، بحقٍّ، يحاول الوقوف على قائمتيه الخلفيتين في إصرار.وقد ندّت عن «خاتون» تمتمة احتجاج حين أبصرت الأربعة يدلفون إلى المنزل الغربي: «بأي حقّ يدخلون هكذا؟»، واستدركت ملتفتة إلى زوجها: «أتظنّ أنهنّ نسين أن يقفلن الباب؟»، فهزّ «موسى» رأسه:

«سيدخلون يا أم البنان، أمقفلاً كان الباب أم مفتوحاً. إنهم آتون ليدخلوا»، ومشى، بدوره، في اتجاه ساحة المنزلين، يتبعه صهره وزوجه، ليقفوا ـ بعد ذلك ـ على مقربة من بركة ماء الدجاجات، التي قدَّمت براهينها الأولى على أن الغيوم التي فوق أرسلت ذاكرتها إلى الأرض قطراتٍ خفيفة، رسمت دوائر متقاطعةً في لِيْنٍ على صفحة الماء الرصاصيّ، فجلس «أحمد كالو» القرفصاء متأمّلاً فيها دون داعٍ ، كأنما يسبر صورتَهُ المنحلَّة إلى فراغٍ ماجنٍ يقضم الغيمَ العالي، أو يتشمَّمُ المصائرَ: «سيرجعن إلى البيت» قالها بصوت هامس، واستطرد: «هذا المطر سيعيدهن إلى البيت»، ثم وقف على ساقيه يواجه «موسى» الساكن كصنمٍ من غبارٍ غير ملتحم: «ألن يفجئهن الأمر؟»، فشدَّ الرجل الطويل قبضته أكثر على خماره الذي يحجب وجهه، مخفياً آخر التماع في عينيه الشاحبتين، قائلاً: «سيُفَاجأْنَ، بالطبع».

التحق الديكان « رش» و«بَلَكْ»، مضطربين، بركن الدجاجات المسقوف بالأغصان والقش، باديي التذمُّر، من بطئهما في المشي، برغم المطر الذي ازداد انتشاءً بالصرير الخريفي لآلات الغيم، وهما العارفان أن سقف ذلك الركن، غير المكتمل، لن ينجي عُرفيهما من البلل، وسيسبب لهما قلق الدجاجات من القطرات الدّالفة ما يسيءُ إلى سكونهما المنشود، في قنٍّ خاصٍّ بحيواتٍ كحياتيهما الخاليتين من القلق على غدهما. وبعد دقائق من ذلك التزاحم الحيوانيّ على القنِّ ظهرت الأخوات الخمس من خلف سور الخرنوب، يقين رؤوسهن بثيابهن التي رَدَدْنَها من أسفل إلى فوق كمظلّاتٍ، فيما تبعتهن «هبة» بسلّتها شبه الفارغة إلاّ من نبات قليل، ومن ورائها تقدَّم الكلبان «هرشة» و«توسي» في هرولة لا تنمُّ عن عجلة، بل عن استخفاف بالمطر ذاته.

بعينين لا تُريان كانت «خاتون نانو» تلاحق بناتها، وحفيدتها، المرحات تحت المطر. وقد أمسكت، فجاءة، بردن زوجها كأنما تحتمي به من المفاجأة التي ستعرضُ لهنَّ، فتمتم «موسى»: «لا تقلقي. سيتدبَّرن

أحوالهن يا أم البنات». والتفت إلى صهره: «هلمَّ نشهدْ خصام مكين وأختيه المفتعل»، وهزّ رأسه: «يموِّهون على مقاصـدهم بجدال يبلبـل الناس»، فسبقه صهره متقدّماً، فتقدَّم هو وامرأته رخيَّيْنِ كهواء لا يفصح عن دوائره. وحين صار الثلاثة إلى باب المنزل الغربـيّ، حيث الأخوات الخمس على ذهولٍ من أمر «مكين» وأختيه في جدالهما غير الواضح، همهم «أحمـد كالو»:

ـ سيدّعي أن عليه اختيار المكان، هذه المرة.

«ألا تريان؟ المكان هادىء، وهذا ما نحتـاجه» كـان «مكين» يقول لأختيه.

ابتسم «موسى»: «ستقول الأختان كليمة ونفير إن بناتي لم يتعـرَّفن عليهم»، وضحك: «كيف سيتعرَّفن عليهم؟ يا للسؤال»، فيما ارتفع صوت «مكين» متوجهاً بالكلام إلى أختيه: «لم يعرفننا».

«فليفعلن شيئاً» قالت: «خـاتون» متـأسِّيةً، في اللحـظة التي سبقت ركض «بسنة» إلى ركن من المنزل لتجيء بمنكـاشٍ ذي مقبض خشبـي طويل، فتهدّد به الدُّخلاء: «اخرجوا من هنا».

«تعال نخرجْ» قال «موسى» موجّهاً كلامه إلى صهره، ثم لمس كتف زوجه يحثُّها، بدورها، على الخروج من الباب الذي لم يجاوزوا عتبته. وأردف وهو يولّي وجهه المحجوب صوب الساحة الواسعة: «سيستأجرون البيت. هذا كل ما في الأمر. لكنني لا أفهم لماذا يحتاجون إلى استئجار البيت»، وهزّ رأسه استنكاراً: «يستطيعون أن يفعلوا ما يريدون أن يفعلوا وهم في الأرض الكلسية، هناك».

«لا. لا يستطيعون» قاطعه «أحمد كالو» بصوت هادىء، وهو يتبعـه إلى الساحة، فتوقف «موسى» عن المشي، يصغي إلى ما سيقدمه صهره من تبرير على كلامه الواثق، فلم يطل صمت «أحمد» الذي جاور جدَّ ابنته:

«لأنهم يحتاجون إلى طباع الإنسان كي يستدرجوه للخـروج من مكمنه»، وأشار برأسه صوب المنزل البعيد، في المنحدر غربيّ الجسر، مضيفاً: «يحتاجون إلى طباعنا يا عمي موسى لإخراجه من هناك». واستدرك شيئاً فاته: «سَأَلَنا مكين عن الإسم الـذي نطلقـه على ذلك المخلوق. أنحن نسميه؟»، فرد «موسى» ضاحكاً: «لا ضرورة لتسميته. نستطيع أن نتخاطب معـه دون أن يسمّي أحدُ مُخَاطِبَهُ». وألـوى عنقه إلى يمينـه، في وقفتـه الفضرلية، ليسألَ صهرَهُ:

ـ لماذا يحتاجون إلى طباعنا لإخراج ذلك المخلوق من عزلته؟

«الانتظار، يا عمي موسى، الانتظار. هذه الخصيصة التي يعرفون أنها ستدفـع المخلوق، في ذلك المنـزل، إلى اليأس فيخـرج»، وأرخى أصابعه قليلاً عن نقابه: «سيتعلمون الانتظار».

تأمل «موسى» في كلام صهره دون اعتراض، لكنه سأله:

ـ هل الانتظار هو كلُّ طباعنا؟

«نعم، يا عمي موسى، قبل أن نموت، كان الانتظار هو كلّ طباعنا»، ردّ «أحمد».

ابتسم «موسى موزان» ابتسـامته المعهـودة التي لا تُرى، بشيء من الرضا غير المُحَدَّد باعثُهُ، وألوى وجهه إلى صهره: «كلامُك هذا» وهزّ رأسه أعلى وأسفل كأنما تكـمل الإيماءةُ ما لم تكمله كلماته، ثم استدار على عقبيه هامساً: «خاتون»، فأتاه صوت المرأة التي بدت غائبة بين خطواتها المتبعـدة عن ساحـة المنزلين، وبين وجههـا الملتفت في حنـوٍّ إلى تلك الساحة: «نعم، يا أبا البنات».

«لا تَبدين اليوم على ما يرام» قال «موسى»، فردت زوجه من أعماق نِقابهـا الـمـبـتـلّ:

ـ أنا على ما يرام يا أباالبنات.منذ ست سنين وأنا على ما يرام. حتى

أن مستأجري منزلنا، هؤلاء، لم يعكّروا عليَّ بدخولهم البيت هكذا. تردَّدْتُ. . » وقطعتْ كلماتها لترخي نقابها أكثر بحركةٍ من يدها على وجهها الذي لا يُرى: «ترددت في معرفة نفسي على هذا النحو. قلتُ سأعتكر، لكنني لم أجد باعثاً»، والتفتت إلى الساحة من جديد: «هؤلاء سيجتذبون المخلوق ـ المبترد تحت ماء الناعورة، في قبو منزله غربي الجسر ـ إلى النور»، ثم عادت متطلعة إلى زوجها: «أليست الأمور هكذا دائماً؟»، ومشت حتى جاوزت زوجها، هامسةً لنفسها: «أنا لم أعتكر».

ابتعد الثلاثة حتى جاوزوا الطريق الإسفلت، صاعدين المنحدر المطلَّ عليه غرباً، حيث في مُكْنتهم رؤية المنزلين بتمامهما، والساحة وسور الخرنوب. كما في مستطاعهم، إذا ألقوا أبصارهم إلى الجهة المعاكسة، أن يروا الجرّافات، والمداحل الرابضة حول الرقعة الواسعة من الأرض التي جرى بسْطُها في إتقان، هادئةً بحديدها الصارم الهادىء، بعدما التجأ العاملون من المطر إلى خيامهم المتقابلة كأثداء الكلبة. لكن المبنى الأبيض المستطيل، ذا النوافذ الكثيرة كأعين مفتوحة على الخلاء، أثار سخرية «موسى» من جديد، وهو يتأمّله: «ما هذا الذي يعلوه؟ أظنه عُرْفَ ديك»، فقالت زوجه «خاتون» واثقةً: «بل هو مدخنة كبيرة»، عندها تدخل «أحمد» جادّاً: «برج. الأرجح أنه برج».

لم يكن حرياً بأشباح لم تغادر تلك الهضبة أن تتردّد في تحديد هوية ذلك المبنى، القائم وسط الأرض التي سوِّيت في اتقان منذ ست سنين، بدأبٍ كسولٍ، ومتردِّدٍ من منفّذيه، بالرغم من آلاتهم المُعْوِلَة كجنٍّ يندب موتى غير منظورين، ومن أكداس العمال الآتين في شاحنات عسكرية تقرقع جنباتها الخشبية العالية، بأصداغٍ معروقة، وأعينٍ رزقها المدفون في تلك البقعة المختارة، يوماً بعد أخر، وسط طنين اللغة الشقراء الخاصَّة بذوي الأنوف الطويلة، في معظمهم. بيد أن الأشباح الثلاثة آثرت رؤية ما يجري دون مساءلة، فالفرنسيون يبنون ـ في انتشارهم غير المتوقع من البلدات

الأســاس في الشمال، صوب الهضاب والسهول جنوباً ـ أبنيةً أخرى أشبه بمباني السراي وسط بلدة «القامشلي»، لا غير. هذا ما بدا لهم، في الستِّ السنين التي أعقبت مقتلهم في الأرض الكلسية، أن الفرنسيين صانعون على الهضبة، دون مبرّر واضح. فالخلاءات كانت كافية لدورياتهم، وخيامهم المتنقّلة بحثاً عن منافذ يسدونها في وجه سعيد آغا الدُّقوريّ، الذي أعلن الجهاد ضدهم، وأعلن قرية «عامودا» معقلاً مستقلاً دون تنفيذ فعليّ، بعشائره نصف العزلاء، ونزوحه من مكان إلى آخر مموِّهاً على آلياتهم الغبراء في السهول الغبراء، ريثما يتحوَّل استقلالٌ فعليٌّ لعامودا، على الأرض، إلى امتدادٍ لنسبه العريق، البهيِّ، في شمال سورية.

تأمّل «موسى موزان» ذلك المبنى المستطيل في إمعان، بالرغم من سخريته، وكذا فعلت زوجه وصهره، عبر المطر الممعن، كالنّسّاج، في استظهار أعماقه المائية نقوشاً على شكل خيوط متقاربة، يحتكُّ بعضها ببعضٍ أحياناً، ويلتفُّ بعضها الآخر على بعضٍ التفافاً أنثوياً أمام الأعين الغارقة في الظلال التي أسدلتها الملاءاتُ على الوجوه الثلاثة. وفي اللحظة الصارمة تلك، من تأمُّلِهم الصارم في الأرض المنبسطة كروحٍ يقظى، همس «أحمد كالو»: «منذ متى أصاب الصَّمم هذين الكلبين؟»، وهو يقصد «توسي» و«هرشه»، ملتفتاً إلى جدّ ابنته: «ألاحظت ذلك؟» فردَّ الرجل الطويل بنبرةٍ فيها استغراب:

ـ متى كانا يسمعان؟

«أنا كنتُ أظنهما يسمعان» قالت «خاتون» فجاءةً، ثم تردّدت: «كنتُ أظنهما يسمعان».

هزّ «موسى» رأسه استنكاراً: «ماذا بكما اليوم؟ لم نغادر الهضبة قط، وأنتما تسألان كمن نسيَ، أو عاد بعد غيابٍ»، ثم التفت متطلعاً إلى صهره، وبعدها إلى زوجه، مكملاً استنكاره بتعابير من عينيه اللتين لا تُريان، فلم

يردّ أحد منهما، فيما استرسل الرجل الطويل: «همـا، أطرشين، ينفعـان أكثر»، وتساءل في استخفافٍ: «ألا تلحظان الحكمة في ذلك؟»، وتطلع، من جديد، صوب الخيام المتقابلة في الأرض التي انبثق على مُنْبَسَطِها البناءُ المستطيل: «على كل شيء أن يُسْتَكْمَلَ في تدبير. وكلبانا قَـدَرٌ من تدبير، أيضاً».

«لو ينبحان، في الأقل» قال «أحمد» بنبرة اعتراضٍ، فردّ «موسى»:

- هما ينبحان. ألم تسمعهما ينبحان؟

«أعني لو ينبحان إذا سمعا» قال «أحمد».

«وما الفائدة؟» ردّ «موسى».

«أليسا للتحذير؟ أليسا ليحرسا؟» قال «أحمد».

«أظنك تهزأ؟» ردّ «موسى» وهو يشدُّ النقاب أكثر على وجهه الخفيّ: «هما من أجل أن يعينـانا على الإصغـاء». فتدخّلت «خـاتون»، ملتصقـة بالجانب الأيمن لزوجها: «باتا هَرِميْن، الآن»، وهمهمت في أسى: «لن يُعينا أحداً. هما هرمان يا أبا البنات».

«ليكنْ» ردّ «موسى»، مضيفاً: «ليكنّ يا أمّ البنات. الكلبان يهرمان، وبناتك يكتملن شباباً». ثم لكزها بمرفقه لكزة وديعة: «حفيدتُكِ، هذه، أكثر جسارة من حَدَأة»، وهو يعني «هبة» بإشارته. بيد أن «أحمد كالو» أطلق زفرة لم يعهدها «موسى» في صهره منذ ست سنين، فالتفت بكلّه إلى يساره، متأمّلاً زوج ابنته وسط خيوط الماء التي انزلقت خفيفة على نقابهِ المرخيِّ:

- هذه زفْرَةٌ ليست من خصائصنا يا أحمد.

«لو قُيِّض لي...» تمتم «أحمد كالو»، ولم يكمل، فسأله «موسى» في فضول:

ـ لو قُيِّضَ لك ماذا؟ .

ـ «أن أحيا ثانيةً»، ردّ «أحمد» في نبرةٍ خجلى، فاهتزَّ جذع «موسى موزان» كأنّما ينفض عن ملاءته المعقودة على جسده الطويل ما علق به من مطر، مُدَمْدِماً:

ـ لا نقبل أن نحيا ثانيةً يا أحمد. سنبدو كَمَن لم يفهم.

«أعني. . » همهم «أحمد كالو»، وردَّه حياؤه مما أبداه أمام «موسى» عن إكمال كلماته، فحضّه الرجل الطويل: «هات يا أحمد. قلْ ما يجول بخاطرك»، فتمتم صهره من تحت نقابه:

ـ نعمان، هذا. . .

«سائقنا نعمان؟ ما به؟»، قاطعه «موسى».

«ينظر إلى هدلة كثيراً» قالها «أحمد كالو» بكلمات صارمة. فأرخى «موسى» يده اليسرى التي كان يحكم النقاب بها على وجهه الخفيّ، ومدَّها حتى لامست كتف صهره:

ـ وماذا يزعجك في ذلك، يا أحمد؟ لم نعد معنيين.

«أعني طريقته في النظر إلى هدلة. . » قال «أحمد»، فقاطعته «خاتون» من الجانب الأيمن لزوجها:

ـ إنها حلوة يا أحمد، ونحن لم نعد معنيين.

«لكن حركاته هذه» دمدم «أحمد كالو» بصوت فيه استياء رقيق: «حركاته هذه. . ها. يرفع قميصه عن كرشه أمام البنات، صارخاً: «أنا أول رجل حامل في العالم فيقهقهن. . »».

«فليقهقهن» قال «موسى»، مضيفاً في عزاءٍ لم يكن حرياً به أن يوجهه إلى صهره:

ـ الأحياء هكذا، يا أحمد. الأحياء لا يستحون.

«أوووه» عقَّب «أحمد» على كلمات «موسى» بحروف ممـدودة عن حنجرته، ثم قال ملتفتاً يساراً، صوب المنزلين البعيدين: «لمـاذا أنسى، أحياناً، أنني ميت».

«أوووه» كرّرت «خاتـون» الحروف ذاتهـا، بصوت هـامس، كأنمـا استذكرت شيئاً، وبحثت بيديها عن جانب في ملاءتها حتى عثـرت على خروم فيها، في الخاصرة من جهة الظهـر، مضيفة: «أريـد أن أرتّق هذه الثقوب»، فقاطعها «موسى» بنبرةٍ وادعة: «منـذ ست سنين وأنت تحاولين رتْقَها».

«لم أحاول بعد» ردّت «خاتون» مستاءةً، وأضافت: «أتذكَّرُها. لكنني لم أحاول أن أرتّقها بعد»، ثم أدخلت ثلاثاً من أصابعها في الثقوب تلك، ملتفتةً بانحناء من نصفها العلوي على الجهة اليسار في مـلاءتها، تعـاين فداحة الضرر الذي أصاب القماش الشاحب. وقد تمتمت قبل أن يستقيم جذعها عن جديد: «لماذا أطلقوا علينا النار؟».

قبل ست سنين، مع حساب زيادة محتملة في عدد الأيام، انحدرت «خاتون» من الهضبة إلى الأرض الكلسية الصقيلة ذات عصرٍ يتنفّس هواؤه النهـرَويطلقه زفيراً رطباً في تلك الأنحاء، قاصدةً زوجها وصهرها العاكفين على توسيع الجدول الذي ينحدر، بالتـواءٍ خفيفٍ، إلى ثغرة في أسـاس المنزل المحاط بأشجار التوت، غربـي الجسر، حيث يُسمع طنينُ آلاتٍ في أعماقه. وكانت المرأة عجولةً في مشيها، تحمل خبراً عجولاً يحوِّم حول ملامح وجهها المبتسم والمندهش في آنٍ واحـد، بعد الـذي سمعته من سائقهم «نعمان» عن نوايا الفرنسيين في تسوية الأرض على الهضبة، تمهيداً لأمرٍ مّا. وهو أمرٌ لم يتسنَّ لبنات «موسى» أن يتلقَّفن فحواه، حين سارعت الأم وحدها إلى السائق، الذي أقلق الطريق الاسفلتَ حصاةً حصاةً ببوقه

ذي الصوت الشبيه بصوت حوصلة الديك إذا نفخ فيها طفل بفمه، وأطلقها تُفرِّغُ الهواءَ المشحون.

نزل «نعمان» من سيارة التوربيدو، في طريق عودته، عصراً، من قرية «الحسكـة» إلى «القامشلي»، وفتح ذراعيه على وسعهما صوب الجهة الجنوبية الغربية من الهضبة، فيما بدت «خاتون» حائرةً ثابتة، لا تتحرك قط أمام شرح غامضٍ يجاهد السائق بحركاته المتلاحقة أن يختصره: هـذا ما لاحظته بنات «خاتون»، اللواتي تجاهلن بوقَ المركبة اللحوحَ، لتقوم أمهنْ بمهمة استطلاع ما يحمله السائق من أخبار ومن نقود. لكنهنَّ خمَّنَّ ـ هُنَّ المتوزِّعات على فناء المنزلين وقد انصرفن إلى أشغالٍ صغيرةٍ ـ أن الأمر أكبرُ قليلاً مما اعتاد «نعمان» على حمله من خبر، وأثقلُ من حسابٍ يجريه حول حصيلة يومه. وقد تأكّلد لهنَّ ذلك حين التفتت الأم صوبهنَّ مذهولةً أولاً، ثم افترَّ فمها عن ابتسامة متردِّدة ليست كابتساماتها.

كان الخريف في أوَّلـهِ المُهْمَلِ، آنذاك، حيث الغيوم الغريرةُ تجفلُ إحداهنَّ من الأخرى فتذوب، والجفافُ الصيفيُّ مطمئنٌّ إلى ولاءِ الريح. وإذْ لمحت الأخواتُ أمهنَّ على حالها تقدَّمن إليها في ثيابهنَّ الخفيفة، بشعورهنّ المحلولة تحت أغطية الرأس المستقرة على أكتافهن. لكنّ «خاتون» تركتهنّ، فجاءةً، في فضولهن المُحْكَمِ، كأنْما آثرت زيادةً في التشويق ألّا تبوح بالخبر كاملاً فتذهب الدغدغةُ المالحةُ، الرقيقةُ، في قفصها الصدري، تحت ثدييها تماماً، واستدارت متجهة إلى السفح المفضي إلى المنبسَطِ الكلسيّ، الذي يترقرق النهر في شباكه البيضاء، وغابت في مُنحدره.

مغيبٌ سريع أعقب عصر النهار ذاك؛ مغيبٌ أبيضُ استعارَ من الأرض الكلسية قناع فتونه، فبدا لعيني «خاتون» ـ وهي تنحدر على مهلٍ سفح الهضبة الأحمر ـ كعجلة خشبية انفصلت عن عربة من العربات التي تحمل القش صيفاً، دائرة في تسارُعٍ حول مركزها الحديدي أفقياً. بل بدا

لـ «خاتون» كأنه ينتشل آخر ضياءٍ لعصر ذلك اليوم من الغَرَقِ، بيديه الداكنتين اللتين لا تلامسهما الشمس، فاغتمَّت قليلاً، دون أن يثنيها القلق الواضح في سماء الهضبة عن سعيها بخبرها إلى الرجلين البعيدين، هناك، حيث يوسِّعان للماء المطمئن في مجراه كمائنَ الأرض، حتى يغرف الماءُ منها مصائره الأكثر قلقاً.

لم يكن «موسى موزان» في حاجة لمن يدله على وجوب إغراق أساسات المنزل، القابع وسط أشجار التوت الضخمة، بالماء: لقد كانت الأمور مهيأةً تماماً، برتابة كغريزة الذبابة، وغرابتها الرتيبة كحشرة توضّح أن الحكمة الغامضة هي الأشد حيلةً في سرقة البراهين. و«موسى» على أية حال، كان غير معني بتقديم أية شروح أكثر من التي قدمّها لصهره «أحمد» عن ضرورة حفر المجرى ذاك، مُذْ عاد الاثنان من إقليم «عامودا»، الذي شهد ثورة «سعيد آغا الدقوري»، التي لم تكن انتهت بعد. وكانا قضيا عاماً ونصف العام في صفوف عشائر الدقوريين، هناك، يغيرون على مهاجع الجنود الفرنسيين، الذين طردهم «سعيد آغا» جنوباً، حتى تدخّل سلاح الطيران ذات يوم، فاختبلَتِ القرى، واخْتَبَلَتِ العقولُ.

بسيطةً كانت أسباب التحاق «موسى» بالثورة المتقدة في صعيد «عامودا»، لأنه دقوريُّ النّسب. ففي حين آثر والده الاتجاه شرقاً، إلى بلدة «القامشلي» التي كانت قرية، بقي أخواله في نواحي القرى الصغيرة غرباً. ولما أعلن «سعيد آغا» استقلال «عامودا»، على نحوٍ مكابر، برجاءٍ ذكوريٍّ، وأنفةٍ أيضاً، رأى «موسى» ألا يترك عشائره الدّقورية وحدها، فأقنع صهره بالمضيّ معه. بل طلب منه الأمر طلباً فاستجاب الأخير على مضض: «لمن نترك النساء» قال، فردّ «موسى»: «كلُّ شيء مُدَبَّرٌ. نذهب ونعود. وأخي كرمو يتكفّل بما تبقّى».

هذا كان حوارهما المختزل، ثم مضيا إلى «عامودا»، التي لم تكن

الأمور فيها على نحوٍ ساخن: الحياة عادية. هكذا بدت. الفرنسيون بعيدون جنوباً، لكنهم حذرون من اتساع شهوة «سعيد آغا»، الذي لم يحتكوا احتكاكاً حقيقياً به، لاختبار قوتهم، بل ابتعدوا عن العشائر التي تمتعت بـ «جفاف» مُقْلِق في مشاعرها إزاء وجودهم، بالرغم أنهم حاولوا، مراراً، جرَّهم إلى حلف عبر وعودٍ بإعطاء شبه الجزيرة الكردية، شمال سورية، استقلالاً يُمَكِّنُ الكُرْدَ، هناك، من إقامة كيانٍ مّا. والعَرْض المغري لقي بعض الاستجابة بين عشائر قُرى «الدرباسية»، الواقعة شرقيّ إقليم «عامودا»، بسبب دخول إحدى العائلات الكردية ـ الدمشقية، العريقة، على الخط، بين الفرنسيين وبين العشائر المتاخمة للحدود التركية. فقد أوفدت عائلة «بدرخان باشا» ابنها «جَلاَدَتْ بِكْ» إلى الشمال السوري مرتين، جاهداً أن يقنع عشرة «آزِيْزَانْ» بالمشروع الفرنسي، مصطحباً معه ضابطاً كردياً من دمشق اسمه «كابتن قاسم»، فالتقى كلاً من «حاج درويش»، شريف قرية «قَرَهْ مانيَهْ»، و«فرحان آغا» شريف قرية «الغنَّامِيَة»، وهما ولدا عمومة متنافسان على زعامة عشيرة «آزِيْزَانْ». بيد أنهما، لأسباب خارجة على تقدير الربح والخسارة، والشهامة والشرف، آثرا دعم ثورة «سعيد آغا الدّقوري»، حتى حين آلت زعامة عشيرة «آزيزان» إلى «فرحان آغا» دون ابن عمه «حاج درويش». والأول كان ثرياً بما ورثه عن أبيه من جِمال وأغنام، ضخم الجثة، كبير الرأس، أسمر البشرة، عنيداً، سمع بزواج كرديةٍ من ضابط تركي، على قَدْر من الحُسْن، فأرسل يطلبها عنوةً في الجهة الأخرى من الحدود السورية، فاشترطت المرأة عليه اصطحاب ابنتها، وأمها، وامرأةً خادماً لها. فجاوز الرجلُ العنيدُ، برجاله، الحدودَ على الخيل، وأحضرها.

على أية حال، كانت الأمور عادية في «عامودا» الأكبر بين قرى الشمال: هذا ما لَحَظَه «موسى موزان» وصهره «أحمد كالو»، بعد نزولهما ضيفين عزيزين على أخوال الرجل الطويل، بالرغم من أن أولئك الأخوال

لم يجدوا حكمةً في قدومهما، فرجال «سعيد آغا» كانوا يجدون مشقة في الحصول على السلاح، فكيف بوافدين لم يتحسَّب لهم صاحب ثورة «عامودا»، ذو اللحية الزرقاء في بياض بشرته، الذي لا يُرى قط من غير عباءة سوداء، مقصّبة، فوق جلباب كجلباب أئمة المساجد. وحين قُدِّم «موسى»، بوساطةٍ من أخواله، إلى «سعيد آغا»، رحّب الأخير به في تردُّدٍ:

«كيف عائلتك؟» هذا ما سأل «سعيد آغا» زائرَهُ الطويل، فردّ «موسى»:

ـ في خير، ويتدبَّرون أمورهم في خير.

«كم لك من الأبناء» سأل «سعيد آغا» زائره، فردَّ «موسى موزان» بعينين متأمّلتين، على حياءٍ، في سحنة الرجل الشبيه بإمام مسجد:

«خمس بنات، يا أبا. . » وبحث في ذاكرته عن اسم ابن «سعيد آغا البكر» لوهلةٍ، فأتمَّ له «سعيد آغا» بنفسهِ اللّقَبَ: «شُكْرِيْ»، فتنهّد «موسى» كمن يعتذر عن سَهْوِهِ:

ـ اسمٌ لا يغيب إلاّ عن بال عجوز مثلي.

وقد ضحك «سعيد آغا» ضحكةً خافتة من اعتذار زائره، الذي لم يجاوز عقده الرابع: «إذا كنتَ، أنتَ، عجوزاً، فأنا أحدّثك من القبر».

اشتغل «موسى موزان» كشافاً على بغل بين قرى جنوب شبه الجزيرة الكردية، شمال سورية، مع اثنين آخرين، يبيع الخرز والصابون للقاطنين هناك، وللمعسكرات الفرنسية، التي يستطلعون حامياتها وثغراتها، فيما بقي صهره «أحمد» في «عامودا» ملتحقاً بصنَّاع القهوة في مضافة «سعيد آغا» الرحبة، والمزدحمة أبداً، دون أن يخفي تذمّره لحميه، حين يرجع الأخير من استطلاعاته المُقْلِقَة: «اشتقت إلى طفلتي»، ويكتم تصريحه عن شوقه إلى «هدلة» كما يليق برجل أن يفعل، مع الإلماح إلى ذلك مداورةً: «أتظن أن

هدلة وأمها قادرتان على تدبير كل شيء؟». وقد لان «موسى» مرتين خلال تلك السنة ونصف السنة، فزارا الهضبة لأيام قليلة، عادا بعدها إلى شُغليهما أكثر اختلافاً. ففي حين بلغ البرمُ بـ «أحمد» أن يخاصم صُنَّاع القهوة الآخرين، المرفوعي أذيال الجلابيب ليكونوا أكثر سرعة في الخدمة، بدا «موسى موزان» على هدوء من أمره، يقلِّل انخراطه في حركة الكشّافة ليبقى في منزل «سعيد آغا»، مبدياً أيَّ عذر للدخول إلى الغرف المستقلة، الخاصة بعائلة الرجل الثائر، يعرض على النساء ـ تحديداً ـ خدماتٍ يقدر عليها الذَّكر القويّ، إسوةً بذكورٍ آخرين يدخلون ويخرجون على حياءٍ. والأمر لم يَرُقْ لصهره «أحمد»، ذي البصر السديد وهو يرى «موسى» مفترَّ الشفتين عن أسنانه الرمادية، كالذّاهل، كلما لمح «مَلْكو» ابنة «سعيد آغا»، ذات الشعر الأحمر على الأرجح، تحت خمارها، كما يخمِّن «أحمد»، بسبب بشرتها البيضاء المنمّشة قليلاً. وهي ترمَّلتْ باكراً، إذ قُتل زوجها في إحدى إغاراتهم على الفرنسيين، مخلِّفاً ولدين ذكرين، طالما داعبهما «موسى»، وداعبهما «أحمد كالو»، بدوره، مع اختلاف واضح في تفرّسهما لملامح الصبيين، التي كان «موسى» يرسم منها لقلبه صورةً من صور اللّوعة. غير أن صبابة الرجل الطويل لم تستغرقه إلى الدرجة التي تستعرض الحماقةُ فيها ذهَبَها للعقل، إذْ أفاقت «خاتون نانو»، أمُّ بناته، من نومها ذات فجر، كأنما سمعت صوت «أحمد كالو» يناديها في رفقٍ: «أفيقي يا أم هدلة. عمّي موسى يرمي الدجاجات في البئر»، ففاتحت بناتها بالحلم متطيِّرَةً، وهي تردّد كلمة «بئر»، تحديداً، مُـذْ أنجز شقيقُ زوجها «كرمو موزان»، بعُمّاله الأقوياء، وآلاتهم الماهرة، تركيب مضخّة يدويةٍ لبئرهم العميقة جداً، مستغنين بذلك عن الدّلو الضخم وحبله المبتلِّ الزَّلِقِ. وقد صار في مُكْنة أيٍّ من الإناث، بحركاتِ ضخٍّ من يديها، دون عناءٍ كبير، أن تملأ الأوعية المعدنية، دفقةً دفقةً، حتى تفيضَ بالماء المُزْبِد.

كان سهلاً على «خاتون» أن تتدبَّر لنفسها الوصول إلى بلدة القامشلي

في سيارة التوربيدو التي تملكها، وقد استأجرت من هناك سيارة أخرى تقلُّها إلى «عامودا»، برغم إلحاح «نعمان حاج مجدلو» أن يتولى هو مهمة إيصالها: «ثلاثون كيلومتراً، يا سيدة خاتون، أقطعها في دقيقة» قالها للمرأة، التي آثرت صَرْفه إلى عمله بين «القامشلي» و«الحسكة»، وهو عمل لم ينقضِ عليه نصف السنة بعد، من دخول «نعمان» في خدمة آل «موزان» سائقاً، بعدما تكلَّف «كرمو موزان» بذلك لأخيه الغائب.

سيارات أجرة قليلة جداً كانت دخلت الخدمة بين البلدات والقرى؛ غبراء متآكلة، وقوية أيضاً، بالهدير الإلهيّ الذي في حديدها الواثق من جدارته كمعدنٍ. بالرغم من أن السيارات الأخرى، التي لمالكين قادرين، كانت تقلُّ الناس، مجاناً، إلى غاياتهم، بحسب الوجهة التي تتخذها السيارات ذاتها إلى قرى أصحابها وممتلكاتهم من السهول، بعدما تتبضّع من البلدات مؤونةً، ووقوداً في الأغلب. وهي لم تكن تدَّخر خدمةً في المضيّ بالناس، وفي إعادتهم، حين تكون ذاهبةً، أو آيبةً، لكن «خاتون» بدت غير راغبة في انتظار من يقلُّها إلى «عامودا» من أولئك الذين يصرفون أشغالاً كثيرة على الطرقات، قبل الوصول، كأنْ يعرِّجوا على قرى أخرى لقضاء حاجات خاصة، ما داموا متأكدين أن ركاب سياراتهم سيصبرون، لأنهم استقلّوها مجّاناً.

دفعت المرأة نصف «مَجيديٍّ» من النحاس المصكوك للسائق، الذي أَقَلَّ سبعة من الركاب الآخرين في سيارته المستطيلة، ذات النوافذ المغلقة تماماً بنايلون سميك شفاف، ذي ثنيات علق عليها الغبار. ولمّا وصلت السيارة تلك بلدة «عامودا»، عرَّج بها السائق على بيت «خَلَف رحمن»، ابن خال «موسى»، الذي فوجىء لساعة، قبل أن يقودها إلى منزل «سعيد آغا الدَّقوري».

شحب لون «أحمد كالو» وهو يرى حماته في ساحة دار «سعيد آغا» برفقة «خَلَف» نفسه ، الرافع أذيال عباءته الشفيفة بيديه كأنما يقيها من غبار

الأرض: «خاتون..» تمتم الشاب، متقدّماً صوبها، قبل أن يرفع صوتَهُ المرتبك: «ماذا تفعلين هنا يا أم هدلة؟»، فردت المرأة على حياءٍ، مغيِّبَةً يديها داخل كُمَّيها الواسعين: «أين أبو النبات؟».

«لم يرجع بعد» ردّ زوج ابنتها، مضيفاً: «خرج، اليوم، مع سعيد آغا»، والتفت من حوله حائراً أيدعوها إلى داخل أحد المنازل المتراصَّة، أم يدعوها إلى المضافة، فأنجده «خلف رحمن» الأسمر، ذو الأجفان الضيقة: «سأعود بها إلى منزلنا، ريثما يرجع موسى».

في فجر ذلك اليوم نفسه كان أتباع «سعيد آغا» قد أيقظوا الرجل الطويل «موسى موزان»، العائد بعد غياب ستة أيام من آخر استكشاف له، هامسين: «سترافق الآغا. انهضْ»، فنهض إلى الصلاة أولاً، منفعلاً، يتناهبه الفضولُ كدغدغاتٍ في باطن القدم. فهو يعرف ـ بعد عمله الذي ظل حَصْراً على الاستكشاف، طوال الوقت ـ أن مرافقة «الآغا» تعني شيئاً آخر لم يعهده من قبل. وقد كان المشهد، بعد الصلاة، غير معهود بحقٍّ: «بغال كثيرة اصطفت في الساحة المديدة، ورجال كثيرون، راجلين، يتمنطقون بأحزمة الطلقات، وعلى أكتافهم البنادق. وثمة، أيضاً، رجال قليلون على خيولٍ حَرِدَةِ الأنفاس، يتوسطهم «سعيد آغا» الذي لفَّ عباءته الصفراء على وسطه، فوق جلبابه الطويل المشقوق من أمام، وقد انسدل على سرواله الأبيض الطويل حتى أرساغ قدميه، في احتشامٍ واضح. فيما لفَّ حطّةً كبيرة على رأسه كعمامة، وأرخى طرفها على صدره ليغطي بها وجهه إذا هاج الغبار.

«إنها إغارة على مُعَسْكرٍ فرنسيّ»، ذلك ما خمّنه «موسى» لنفسه مُستثاراً في رهبة، وهو ينظر إلى البغال والجياد المتجهّمة، التي تضرب على تراب الساحة بحوافرها فيرنُّ القلقُ رنينَهُ الحكيم في جدران المنازل الطينية، وفي أضلاع الرجال، معاً. وبعد توزيع عجولٍ للمهمّات، قضت الضرورة أن يتولى «موسى» بغلاً يحمل ذخيرةً، وملحاً ناعماً تُطهَّر به

الجروح. ومن ثم توجّهت القافلة غير المنتظمة، عبر أخدود النهر الجافّ شمالاً، لتنعطف، بعد ذلك، شرقاً، إلى هدف لم يتأكد الرجل الطويل من موقعه في تلك الأنحاء.

شمس خريفية نثرت نعاسها على سهول الشمال لتستيقظ على مضضٍ من ذلك الدفء، الذي يتبقى من لهاث الليل فوق السهول. وحدهم الرجال، وهم يستقبلون الشعاعات الذهبية البليلة، المغسولة بماءٍ، تنفّسوا برئاتٍ أكثر ارتياحاً، كأنما الضوء، في اتساعه، فتح للرئات المُقْتَصِدَة، منذ الفجر المُقْتَصِد، أن تنهبَ الهواءَ في تَرَفٍ. بيد أن الحيوانات لم يختلف شأن أنفاسها: ظلت، بعد سطوع الشمس، كما حالها فجراً، تطلق زفيرها المفاجىء دون حذر، فيما بدت عضلاتُ أردافها القوية مؤتلقةً في الشمس، وكذلك جلودها التي تكسو القوائم وهي تتماوج من حركة اللحم الصلب، المُقَسَّم بحسب مِرَانِ المفاصل الأكثر تحمُّلاً لتبعاتِ الجسوم الحيوانية الثقيلة ـ الخفيفة، في آنٍ.

ريحٌ ناعمةٌ واكبتهم أيضاً؛ ريحٌ جنوبية مطمئنة في هبوبها المطئنّ، كأنّما تتدرَّب على أن تصير ريحاً، في ما بعد، واكبتهم فوق حافة الأخدود الضحل، الذي كاد يتلاشى مستوياً بالأرض بعد نصف ساعة من تقدُّم القافلة، ممهِّداً للرجال أن يكونوا مكشوفين للعراء الحكيم، حيث يكون للظهور الصاخب امتحانُهُ الصاخبُ، وللظهور الهادىء امتحانه الهادىء، دون استباقٍ، بالطبع، لفجاءاتٍ كالتي شقّقتْ ظهيرة ذلك اليوم المبتلّ، منذ فجره، بوساوس «موسى موزان» الحامضة.

لم يستطع الرجل الطويل أن يقدِّر، بحقٍّ، فيما إذا كانت القافلة تجتاز العراء المكشوف، المتاخم للأدغال القريبة من الحدود التركية، أم تراوح مكانها: ثقيلةً كانت الحركة؛ ثقيلة كانت الظلال؛ ثقيلة كانت المجاملات الخفيضة للرجال وهم يتبادلون لفافات التبغ، ومَحَافظ التبغ المعدنية ذات النقوش. أما الكلمات فلم تكن إلا طنيناً يُقلِّد ـ بما في الكلمات من مزالق

غريزية ـ الفراغَ المتوجِّس كقلبٍ نائمٍ سيفيق على هَلَعٍ. وقد بدت الطيور العابرة، من شقراق وغربان فرادى تتجّه إلى الأدغال، تتملّق أقدارَها في رياءٍ، وهي ترسم مُنْعرجات عبورها في الفضاء المنخفض بأجنحة متباطئةٍ، ناثرة أصواتها كظلالٍ يتتبّعها الناظر إلى أعلى، لا إلى أسفل، حيث المكان ذاك يستطلع نفْسه في مرآة.

أخمَّنتْ «خاتون»، وهي في ساحة بيت «خلف رحمن»، ابن خال زوجها، أن الفضاء الرائق لـ «عامودا»، ذلك اليوم، ليس إلا تدبيراً أرضياً لفجاءاتٍ مّا؟ لقد قطعت حديثها الحميم مع زوج «خلف»، المصغية كطفلةٍ، مرتين، كأنّما تسمع هديراً ينبثق مما ترويه عن أحوال «القامشلي»، ثم اتّسع الهدير خارجاً من حديثها إلى الضوء يجرف المكان كلَّه، كتلةً كتلةً، وفراغاتٍ فراغاتٍ، وظلالاً ظلالاً، حتى أن الجهاتِ تبادلت الأقنعة وهي تعمد، في ارتجالٍ، إلى التمويه على أنفُسها.

«هذا ليس رعداً» تمتمت «خاتون» هَلعةً.

«هذا ليس رعداً»، تمتم «موسى موزان» إلى نفسه، بصوتٍ هَلِعٍ، في العراء الذي لم تقطعه قافلة «سعيد آغا» بعدُ لتصير إلى الوديان الأنيسة شرقاً. ومن ثم اكتسى كل شيء صبغةً كالوميض.

لحمٌ. نعم. لحمٌ حيٌّ أصاب وجه «موسى موزان»، إذ اشتمَّ رائحة الدم بأنفه، بعدما أغمض عينيه اللتين انبهرتا فلم تريا إلاّ الضياء القاسي من شدّة إعْتامه. ولمّا فتح عينيه، للمحةٍ، أغلقَهُما الغبار المطحونُ، فاستلقى الرجل الطويل دون تفكير قط، يكاد يخترق بجسده الأرض إلى طبقاتها الأمينة، ضيِّق المُخَيِّلةِ؛ ضيِّقَ الدَّم والقلب؛ منهوباً إلى القَدْر الذي يجعلُ الذُّعرَ ثريّاً في أحواله كلِّها. وانقطعت أنفاسه، من ثمّ، ليتنفَّس الصخبُ وحدَهُ برئاتِهِ التي لا تُحصى، وسط الأنين الشاحب للآدميين، والبغال، والجياد، والتراب الذي لم يعهدْ ـ من قبلُ ـ نَهْباً فاحشاً مثل ذاك.

لقد سمع الرجال جميعاً، وهم ماضون في تُؤدة، عويلاً من البعيد لم يحسنوا تخمينه. وكمثلهم كانت دوابهم، مصغيةً، لكن دون تقدير للفداحة الكامنة في العويل الغريب، ما دامت السماء الهادئة نفسها بدت غير مكترثةٍ، قبل أن تسحلها الأجنحة المعدنية سَحْلاً، فامتزج أنينُها ـ أيضاً ـ بأنين الدَّواب.

طائرتان لا غير. طائرتان قادمتان من لا مكانٍ انخفضتا حين أدركتا القافلة، ثم علتا، بعدما ألقتا مفاتيحَ الشيطان الحديدية على زجاج العراء، فارتجَّ الشمال من غابره الأقصى إلى غابره الأدنى، بعظامِ الحقيقة المدفونة فيه كجهةٍ من جهات الأرض تحسنُ إيواء حقيقتها الميتة، أيضاً. وفي برهةٍ أقصرُ من إشعال لفافة تبغٍ، خَمَدَ المكانُ، كأنما يصغي إلى الثرثرة التي تركها المعدنُ ودويُّهُ هناك، في فخامة عظةٍ تُلقى من المنبر الأكثر زُخرفاً بدرجاته العالية، في مسجد لم يره «موسى موزان» قط.

كان للغبار المنكوب طعمُ عظةٍ يسمعها «موسى» بلسانه، لا بأذنيه، وبمنخريه اللَّذين امتلآ بطقطقات الهشيم المُبَعْثر في المدى اللامرئي من أعماقه هو، ومن المكان الذي أُخفي بستار الوميض الأغبر. وقد تهيَّأ له، في انبطاحه بعينيه المغمضتين، أن سلالم كثيرة ارتفعت، فجاءةً، من باطن الأرض، واقفةً دون استناد إلى شيء، ثم هرعت قردةٌ ذات أنياب طويلة تدور من حول السلالم، قلقةً، دون أن تجرؤ على تسلُّقها. وإذ فتح عينيه، لما عبرتْهُ غمامةُ الغبار المتهتِّكةُ، أبصرَ ـ ملء بؤبويه المُخَلْخَلَيْن ـ بغلاً يتهادى صوبه، مترنِّحاً، يحدِّق فيه تحديداً، بإصرارٍ، كأنَّما سيبلِّغه سرّاً من أسرار لوعته الحيوانية. وحين شارفه البغلُ، و«موسى» ملقى على الأرض، مالِ الحيوان بجثته الكبيرة، ثم هوى بطيئاً يسنده في سقطته ألقٌ غامضٌ مَكَّنَ الرجلَ الطويلَ من القفز كجندب، فتلافى سقوط الحيوان فوقه. ثم استقام على ساقيه ليرصد المشهد بكلِّه من عينيه إلى أنامله اليابسة إلى

فردة حذائه الضائعة إلى حطَّته الممَّرغة، التي نظر إليها على مقربة منه ولم يتناولها:

أجساد آدميين وحيوانات غطت المكان، فيما كان الذين ينهضون مثله، والبغال التي تنهض بدورها، يترنّحون قبل أن يتمالكوا أنفسهم فيثبتوا، أو يعود بعضهم إلى السقوط ثانيةً.

مرَّتين أغارت الطائرتان، أو هكذا خُيِّل إلى «موسى موزان» المصعوق، الذي لم يُثْنِه جَزَعهُ، وتَبَلْبُلُه، عن تفقُّد الأجساد المتناثرة، وهو يزفر، كالآخرين، زفيراً متقطعاً فيه مرارةُ مَنْ فقدَ الحيلة. فيما ارتفعت أصوات البعض نادبة نَدْباً جافّاً يغلبها الخوف، وهم يوزِّعون أسماعهم بين أنين الجرحى وبين السماء التي لم يكن إنذارها كافياً، فباتت موضع شُبهةٍ. ثم بدا للذين نهضوا ناجين، أن لا بدّ من نجدةٍ تأتيهم بعربات لينقلوا الجرحى، والقتلى، فتصايحوا عشوائياً يحرِّض بعضهم بعضاً على الإسراع في الذهاب إلى «عامودا»، أو يحرِّض نفسه: «اذهب أنتَ... أنا ذاهبٌ»، كأنما يهرب بشبحه من وطأة المكان الثقيل، ذي الرنين الذي ينبعث من ترابه المُسَرَّح بمشط الموت.

لم يكن تفقُّدُ الأشخاص، بعضُهم لبعضٍ، ممكناً على نحوٍ دقيق. فقد بقي في ساحة التراب المنهوبة مَنْ جُرِحوا، أو قُتِلوا، أو فقدوا دوابهم، أو أسقط في أيديهم فأعيتهم الحيلة في اختيار سُبُل للنجاة، أو استنفرتهم نخوتهم فعادوا، بعدما كانوا هاربين باتجاه الأدغال الشمالية، لينجدوا أقرباء لهم. وبرغم ذهولهم أثنوا «سعيد آغا الدّقوري» عن مشاركتهم في البقاء على تلك البقعة المكشوفة: «إقطع الحدود يا آغا»، قالها البعض في عصبية ملآى بالحرص، كأنهم يعرفون، بيقين لا لُبس فيه، أن الطائرتين استهدفتا «سعيداً» ذا اللحية الزرقاء في بياض بشرته، فاستدار الرجل مكملاً نزوحه، بعصاباتٍ من رجاله، صوب الأدغال التركية، مُقْشَعِراً من الخيبة التي امتدت من أحشائه إلى أحشاء جواده.

على نحوٍ عَجول ومضطرب تمَّ سحب الجرحى من منطقة القصف أمتاراً معدودةً، في اتجاه الدَّغل الذي يوهم بأمانٍ خجول، قبل أن يتم تصنيفهم بين عاجزين عن الحركة، وقادرين على المشي باتّكاءٍ على غير المصابين. وقد سند «موسى» واحداً من أولئك الجرحى الذاهلِيْنَ، وعاد أدراجه مع رفاقٍ سندوا، بدورهم، جرحى ذاهلِيْنَ، صوب «عامودا». فيما تأخر رجال في الدّغل ينتظرون نجدة ستتأخّر، على أية حال.

كان المنكوبون، أولئك، محظوظين بالمسافة التي قلَّتْ عن ساعتين من مكان القصف إلى مشارف القرية الكبيرة، التي ما كاد صِبيتُها العابثون على تخومها يرون حال العائدين الزريَّة، حتى شقّت أصواتُهم البيوت شقّاً، فخرجت «عامودا» عن بكرة أمِّها، أطفالاً ونساءً وشيوخاً وكلاباً ودجاجات وملائكة لم تكن أتمّتْ تدوين الفاجعة بعدُ. ولم تمض ساعة حتى كانت عربات كثيرة تخترق الوادي ببغالها اللاهفة إلى أداء مهمةٍ طارئة على نظام حياتها، بعدما رأت اللوعة في أصوات الآدميين النادبة المختنقة. أمّا «موسى موزان» فقاده صهره «أحمد كالو» إلى بيت ابن خاله «خلف رحمن»، وهو على حالٍ من صمتٍ ثقيلٍ، حيث عادت به زوجه «خاتون»، على وجه السرعة، في مغيب اليوم ذاته، إلى «القامشلي»، بعدما استأجر صهرها سيارة خضراء، لا نوافذ لها، اضطروا إلى دفعها مرتين في الطريق بأيديهم. ومن «القامشلي» أوصلهم سائقهم «نعمان» إلى الهضبة، متأسّياً طوال الوقت بعباراتٍ جوفاء: «لنا الله يا عمي موسى. سمعنا دويَّ الطائرات هنا. أُقسمُ..». وكان يظلّ يبحث، في الطريق، عمّا يُقْسِمُ به، متردّداً بين ذِكْرِ أمّه، أو تراب أبيه: «أقسم بالتراب الرطب في قبر أبي أنني سمعت قصف طائراتهم»، ثم يلتفت إلى «خاتون» من فوق كتفه: «هل قصفت الطائرات مرَّة؟»، فإذا ردّت المرأة: «مرتين»، ضرب بكفّه على مقود السيارة، صارخاً: «مرتين. أقسم أنني سمعت القصف مرتين. يا لكُفّار جهنّم».

قضت عائلة «موسى موزان» الليل صامتةً، فيما اعتذر السائق عائداً إلى القامشلي. لكن الأيام التالية ـ التي لم تحمل من أخبار «سعيد آغا الدّقوري» الملتجىء إلى تركيا، أو العراق، دون جَزْمٍ ـ خفّفت من الغم الصامت الذي اعترى «موسى»، فعاد إلى طبعه المرح الذي لا يخرج عن الرّصانة. لكنه لم يسأل قط عن أحوال حقول القطن التي تكفّل بها أخوه «كَرْمو»، وتناسى الجهة الشرقية من الهضبة، حيث الكَرْم الشاسع الذي تنحدر شجراته الصغيرة حتى ضفة النهر، مُشْغِلاً نفسه باستقصاء السفح الغربي المتّصل بالأرض الكلسية ذات البياض المُرَفَّه، كأنّما يدرس علامات بياضها المتداخلة، ويقيس المسافة بين النهر الذي يخرقها وبين البيت المختبىء وسط أشجار التوت الضخمة، غربي الجسر المُمَدَّدِ وديعاً يصلُ أسفل الهضبة بالطريق المؤدية إلى «القامشلي».

لم تبدُ عليه إمارات قلق، بل انشغالٌ محض. لذلك لم يسأله أحد من عائلته عن الحسابات التي يجريها في المُنْبَسَطِ الكلسيّ، إلاّ «أحمد كالو» الذي بادره ذات يوم: «أتظن أن أحداً مّا يقطن ذلك البيت المهجور؟»، وهو يعني المنزل المختبىء في واحة شجر التوت، فالتفت إليه «موسى» متأمّلاً: «وأين يكونُ، يا أحمد، إذا لم يكن هناك؟» فسأله صهره: «من تعني؟»، فردّ أبو زوجه: «ومن تظنني أعني غيره؟»، ثم ابتسم: «لا بد من مياه يا أحمد. لا بدَّ من مياه ليبقى مختبئاً هناك»، مشيراً بيده إلى المنزل، غربي الجسر.

منذ تلك المحاورة الخفيفة، ذات ظهيرة خفيفة، انخرط «أحمد كالو» مع «موسى» في حَفْرٍ شاقٍّ بمعولين ورفشين، وإزميل، ومطرقة، وحمارٍ يعينانه بِدَفْعٍ من أيديهما كي يجر العوائق بحبل مشدود إلى خاصرته، جاهدين أن يفتحا للماء مجرى إلى الناعورة الجاثمة في ظلام ذلك المنزل الذي كان طاحونةً مائية من قبل، على الأرجح، وقد طمر الوقت منافذ المياه إليها بعد هجرانٍ طويل. وفي كل يوم من عنائهما كان «موسى» يزداد إشراقاً

في حديثه المتسلسل عن وصف الكائن الذي ينبغي إبقاؤه مختبئاً في الظل: «عليه أن يبترِد يا أحمد. الظل والماء هما البَرْد يا أحمد. إنّه ناريٌّ». ويكرّر كلماته كأنّما صهره طفلٌ: «إنّه ناريٌّ. هكذا خُلِقَ يا أحمد، وعلينا أن نرفده بالماء ونبقيه في الظلِّ»، مشيراً إلى الكائن الذي لا يعرف «أحمد» لماذا عليهما أن يبقياه مختبئاً في ذلك البيت المهجور، برغم شرح تفصيلي من حميه: «الضوءُ. أتعرف يا أحمد ما هو الضوء؟»، وإذ يرى حيرة زوج ابنته يهوِّن عليه في مَرَحٍ: «الضوء حيلةٌ. وهذا..» مشيراً بيده إلى البيت المهجور وسط شجرات التوت: «وهذا الجالس هناك هو على شاكلة الضوء، فإذا أبقيناه في الظلّ الرطب خفّفنا من حِيَلِهِ على الهضبة». ويستنجد، من تلقاء نفسه، بشرحٍ أوفى، وهو يضع أذيال جلبابه في أطراف حزامه الصّوفيّ، مشمّراً عن ساقيه العاريتين: «في الضوء تشتدُّ أحابيله، لأن الضوء من مادّة نسيجه الناريّ، يا أحمد، وكلّما خفّفنا من وهجه الناريّ خفّفنا من شهوته إلى الضوء. أتفهم؟». فيردّ صهره في لا مبالاة: «أفهمُ. نعم. سندير الناعورة بالماء على رأسه، ورأس أبيه. أفهمُ. سيرتجف»، فيقاطعه حموه: «من ذكر لك أنه سيرتجف؟ معاذ الله. إنه سليل النار التي خُلقت منها الملائكة، والملائكة لا ترتجف يا أحمد». وإذ يعنُّ لـ «أحمد كالو» أن يسأل «موسى»: «لماذا تظن أنه يقطن ذلك المنزل؟»، يرد أبو زوجه واثقاً، بابتسامة واثقة: «وما الحكمة في أن يبقى هذا المنزل الكبير مهجوراً؟»، ويستمر في توضيحه المتسائل: «وأشجار التوت؟ ألا ترى أشجار التوت؟»، وإذ يرفع صهره كتفيه غير فاهم، يحدق فيه «موسى»: «كنا قريبين من دغل التوت حين قصفتنا الطائرتان، يا أحمد».

لم تكن أسئلة «أحمد» الكثيرة تعيقه، على أية حال، عن الخوض حافياً في مجرى قديم لساقية قديمة، مُقَلِّعاً رُكامَها برفشه القصير، مستسلماً للرضى الغامر الذي ينبثق ناعماً من عيني «موسى موزان» كلمان شَقّا المجرى متراً في الأرض الكلسية: «سنصل إليه» يتمتم الرجل الطويل،

ملوِّحاً بذراعه لحارس النهر «جاجان بوزو»، الذي يعبر تلك الأنحاء كل يوم، وهو يعقد يديه خلف ظهره لا يفكّهما مهما أسرع في مشيه، فيردّ الأخير بصوته الخشن: «لن تسرق هذا النهر مني»، ويضحك ناظراً إلى الطيور المنخفضة في طيرانها نظرة مَنْ ينذرها.

خلال شهرين، أو أقلّ، من خريف رطبٍ ذي مزاجٍ دافىء، لم يحدث أن زار الرجلين أحدٌ من آل موسى، حتى كان يومٌ انحدرت فيه «هدلةُ» الهضبة، ظهراً، تنطنطُ ابنتها «هبةُ» ـ التي ما بلغت السادسة بعد ـ من خلفها كجندب، في الموعد الذي تعرف أنهما سيعودان فيه المنزلَ للغداء، لتصطحبهما هذه المرّة، ولتقف على ما وصلا إليه من حفرٍ سمعت شتاتاً من أخباره من فم زوجها، الحريص على أن لا يكون البادىء في شروح كثيرةٍ يراها من مهمة أبي «هدلة». وقد أظهر الرجلان فتوراً لمجيئها، فأبدت بدورها لا مبالاةً وهي تنعطف بابنتها شرقاً، في اتجاه الطريق الاسفلتي الضيق غير المنجز: «تعالي يا هبة لنرى إذا كانت هنالك براميل». لكن «موسى» بادر ابنته: «لا براميل هناك. سرقها أهل القامشلي»، ثم تأفّف: «يجدّد الفرنسيون رصفَ هذا الطريق لتنزلق الدّواب عليها»، والتفت مبتسماً إلى صهره: «من حظ نعمان حاج مَجْدَلُو أن يعبر بالسيارة من هنا، وإلا دفعها ألف مرة، بنفسه وبركابه، إلى الحسكة». بعد ذا نادى حفيدته: «هبة. . أتحبين أن تساعدي جدّك في الحفر؟»، فهرولت الطفلة عائدة إليهما، فتلقّفها «أحمد»: «حاذري. الأرضُ زَلِقةٌ هنا».

قرفصت «هدلة» ترقب الاثنين، وهي تُعَدِّل خمارها الذي انزلق إلى الخلف فكشف مفرق شعرها المستقيم، فيما دارت «هبة» من حولها تشدّها بين حين وآخر: «تعالي نحفر يا أمي»، فابتسمت لها أمُّها: «إنهما قوّيان يا ابنتي. لن يتوقفا حتى يبلغا البلدة» وأشارت بيدها شمالاً صوب البعيد، فقهقهت الطفلة من إشارة أمّها، ثم صاحت: «لا. بل إلى هناك» وأشارت هي، بدورها، صوب جبال طوروس الغارقة في وحشتها الرّمادية، فقهقهت

«هدلة» مؤيدة كلام ابنتها: «نعم. نعم. ومن هناك إلى السماء»، ففتحت الطفلة عينيها في مرحٍ يعروه دَهَشٌ: «أيستطيع أبي وجدي أن يحفرا السماء؟». إذ ذاك ارتفع صوت «موسى»، وقد استقام يريح ظهره المتصلّب: «لن نحفر حتى السماء يا روحي» قالها ناظراً إلى ابنته «هدلة»، كمن يبلغها أنه عرف بالتهكم الذي في حوارها مع «هبة»، مضيفاً: «سنحفر إلى هناك فقط»، مشيراً بيده صوب المنزل المسيج بأشجار التوت، فاقتربت منه حفيدته متسائلة: «هل ستقطعون أشجار التوت؟».

«لا» رد «موسى»، «لا حاجة بنا إلى قطعها يا روحي. سنعبر من خلف الشجرة الضخمة. أترينها؟» ومال على الطفلة يوجّه بصرها صوب شجرة ضخمة، شعثاء جداً بغصونها غير المتجانسة: «من خلفها، تماماً، سيجري الماء فيسقط على الناعورة المدفونة في قبو المنزل الخلفي». واستدرك فاستقام من جديد، متجهاً بجذعه صوب «هدلة»، التي بدت أنها تتبّع المحاورة في إهمال، فتنكث الأرض أمامها بعودٍ: «أتعرفين الماء يا هدلة؟».

«الماء؟»، تساءت «هدلة» بصوت فيه مرح مّا، وأردفتْ: «ألا تظن أننا نعرف الماء؟».

«لا. نحن لا نعرف الماء» قال «موسى»، ناظراً إلى صهره: «أتعرف الماء يا أحمد؟»، فتأمّله «أحمد» صامتاً، فيما استرسل الرجل الطويل: «نتوهم أننا نعرف الماء».

«ولماذا نسمي الماءَ ماءً؟» سألته «هدلة».

«لا أعرف» ردّ «موسى»، والتفت إلى المنزل الغارق بين أشجار التوت: «ربّما نعرف الماء حين يصل إلى ذلك المنزل»، ثم طأطأ بعينين ثقيلتين: «الماء حيلةٌ»، قالها تمتمةً.

لم ينتظر الرجلان هبوط المغيب الخريفي،كأنما يحثهما وجود الطفلة

«هبـة»على البُكُور، فَبَكَّرا في مغادرة المكان بآلاتهما الملوثة بالطين، صُعُداً في اتجاه الهضبة، عبر الجسر الأسهل عبوراً. غير أنهم ما كادوا يجاوزون ثلث الدرب ذي الأحافير، المطلّ بارتفاعٍ على الأرض الكلسية الواقعة إلى غَرْبه، حتى لمحـوا ـ في الضياء الضحـل للمغيب الكشّاف ـ كـوكبة من الفرسان على جيادهم، واقفةً في نصف دائـرة مشوّشـة، فيما لاح خيـال شخص واحد، واقف على قدميه قرب جواده، لم يلبث أن انحنى، ثم ركع على ركبتيه، ثم سجد مُطيلاً سجوده، في صلاة لا يؤديها إلا مُسْلم.

كان واضحاً أن رجلاً من بين رجال تلك الكوكبة يصلّي. ولما كانت ملامحهم غير أكيدة فقد حث «موسى» ابنته وحفيدته أن يسـرعا أكثـر في مشيهما، فاضطر «أحمد» إلى حمل «هبة» على ظهره. لكنهم لم يبتعدوا كثيراً، لأن وقفة أولئك الفرسان انتهت حين أنهى رفيقهم صلاته، فاتجهوا بجيادهم عبر الأرض الكلسية صوب الـطريق المتصل بـالهضبة مبـاشرة، سائرين من خلف «موسى» ومن معه تماماً، مما اضطره إلى الطلب من صهره وابنته أن يخففا من مشيهما خوف إثارة الريبة.

حاولت «هبة» أن تلتفت إلى الخلف، وهي ممتطية ظهر أبيها، فعاتبها أبوها على حركتها: «لا تنظري إلى الخلف»، مما حدا بها إلى دفن وجهها في رقبته، فيما كـانت ضربـات حوافـر الجياد على الـطريق الصلد تترك حموضة خفيفة تحت لسان «موسى»، وهو يستشعرها مقتربة أكثر فأكثـر، حتى وجد نفسه ـ مع صهره وابنته وحفيدته ـ محاطاً بأرداف حيوانات قوية وبأفخاذها المرتجّة في خيلاء، بينما عمدت الوجوه العـالية إلى التفـرّس فيهم، من فوق ظهور الجياد، كأنّما تتسلل إلى دخـائلهم.

قبعات مستديرة، ذوات استطالاتٍ من أمام، زادت وجوه الفـرسان أولئك إعتاماً. وإذ جاهد السائرون على أقدامهم أن يجدوا بين تلك الوجوه العسكرية وجه دليلٍ مّـا، غير فـرنسي، لم يتمكنوا من ذلـك. والأدلاّء، بعامّةٍ، ما كانوا يرتدون ثياباً عسكرية حين يصاحبون دوريات الفرنسيين،

وكانوا يستنطقون المارّة، عادة، بأسئلتهم العربية، لمّا يطلبُ الفرنسيون عنهم استنطاق المارَّة، في تلك الأنحاء المقفِرة، بالرغم من أن الأدلّاء والفرنسيين لم يكن يفهم أحدهم الآخر إلا بإشارات مكسورة من الدليل، وألفاظ عربية مكسورة من قوّاد الدوريات، ذوي الوجوه الشمعية المحترسة.

بدا الفرنسيون، في إحاطتهم بالعائلة السائرة على الطريق، كأنما يحرسونها أما «موسى» و«أحمد»، و«هدلة»، و«هبة» فقد بدوا حائرين بالوجوم الذي غشا سيرَهم الحَذِر. يتنفسون في ثِقَلٍ، ويختصرون التفاتاتهم إلى الخيول. لكن إشارة صغيرة من أحد أولئك الفرسان هَدَّأ من فزع الظلام نفسه، الذي تمدَّد مرتعشاً أمام أعين العائلة على الأشياء، فتمالكت العتمة الخفيفة نفسها، صائرةً إلى دفءٍ، حين أسرعت الخيَّالةُ فجاءةً فجاوزت آل «موسى موزان»، ثم انعطفت جيادهم غرباً لتنحدر صوب المرمى الكلسيّ الشاسع، الذي علق بصخوره الملساء ضياءٌ شارد نسيه النهار.

أنزل «أحمد كالو» طفلته عن ظهره، فتسلمتها زوجه «هدلة» ممسكةً بيد ابنتها، وقد توقفتا إزاء «موسى» الواقف وهو يتمعّن في أولئك الخيَّالة يمضون حثيثاً وسط الوقْع المتَّزن لحوافر الجياد: «مَن منهم كان المُصَلّي؟»، سأل الرجلُ الطويل نفسه بصوت عال، والتفت إلى ابنته: «من كان المصلّي؟».

«إنهم متشابهون» ردّت ««هدلة».

«لا. أظنني عرفته» قاطعها زوجها، ثم جاهد أن يدلّ على الشخص المقصود بإصبعه، وهو يكاد يغمض عينيه، وعاد فأرخى يده: «اختلطوا عليّ».

حين وصل «موسى» وصحبه إلى الهضبة كان سائقهم «نعمان» هناك، معرِّجاً على العائلة في طريق عودته المسائية من بلدة «الحسكة» خالي

الوفاض من الـراكبين. وقد نهض واقفاً لما دخـل «موسى» إلى المنـزل الغربـي، مبدياً أسفه دون داعٍ: «لا أحد يغادر قريته إلى قرية أخرى يا عمي موسى. الناس يختفون»، فخلع «موسى» حـذاءه في ركن قرب البـاب، ومشى خطوتين ليجلس على الأرض، فوق السجادة السميكة، في الموقع ذاتـه القريب من المـوقد، حيث ستتـزاحم الملاعق الخشبيـة في قصعـة المعدن المليئة بالحساء وقد فُتَّ فيه الخبز قِطَعاً كبيرة، تحت ضوء السراج الممسك بالظلال في حكمةٍ.

«لا تشتك يا نعمان» قال «مـوسى»، فيما دائـرة الجالسين للعشـاء تكتمل بدخول «نعمان» نفسه في حلقتها، وأردف: «ألا تحمل أخباراً؟».

«طائرات الفرنسيين ضربت قرية دِيْكيه يا عمي موسى»، وفتح عينيه على وسعهما: «هربوا. الكل هـرب إلى الحدود التـركية، صـوب قريـة حمدوفة. حتى الكلاب هربت. ما هذه الآلات؟» قالها فَـزِعاً، وأكمـل: «إنهم كفّار، ومع هذا يعطيهم الله طائرات يا عمي موسى. ألسنا أولى بها منهم؟. لو كانت عندنا طائرات ضربنا بلادهم».

«أين بلاد الفرنسيين يا أمي؟» سألت «هبة أمّها، فردت «هدلة»: «بلاد الفرنسيين. . .» ورفعت كتفيها حائرة: «ربمـا جاءوا من بـلاد الروميين»، والتفتت إلى زوجها: «أليس الكفّار كلهم روميّين؟»، فتدخلت أمها «خاتون» بابتسامتها الثابتة، المُرْتسمة في إهمال على زاوية فمها اليسرى: «البحر هو بلاد الفرنسيين. إنهم يأتون من البحر»، وتطلّعت إلى زوجهـا «موسى»، الذي مسح قطرة حساء سالت على شعر ذقنه المُهْمَل، تسأله: «ألم يأتوا من جهة البحر؟»، فردّ الرجل ذو الشعر القصير حين نزع حطته السميكة عن رأسه : «الكفار كلُّهم يأتون من جهة البحر» . ثم تمتم : «ماء البحرُ كلُّه ماء . هل يُعْقَلُ هذا؟» ، ومسَّد على أنفه بسبّابته : «البحرُ حيلة من حِيَل الشيطان» .

لم يكن «نعمان» يبالغ في أخباره، وهو يسمع أسئلة «موسى»: «لماذا يضربون قرية دِيْكْية بالطائرات؟ ماذا في هذه القرية؟»، ويلتفت إلى زوجه «خاتون» بعينين حائرتين: «إنهم ـ معاذ الله ـ يحاولون أن ينسبوا إلى أنفسهم ما لا يقدر عليه إلا الله»، ويرفع يديه متشهِّداً قبل أن يُكمل: «لقد جاءوا بشياطينهم». لكن «نعمان» يمضي في سرده: «من يدري يا عمي موسى؟ ربما كانت قرية ديْكْيِهْموجودةً، خَطَأً، على طريق طائراتهم».

بيد أن الأخبار تتالت في ما بعد، عبر «نعمان» وعبر سائقي العربات التي تجرّها البغال جنوباً: لقد ضُربت قرية «ديكيه» بالطائرات، بعدما انتفض ناسُها دعماً لسعيد آغا الدَّقوري. ولربّما كانت ثمت مبالغة في إحصاء الطائرات المغيرة، التي قُدِّرت بثلاث، ولم تكن ـ على الأرجح ـ سوى اثنتين، أغارتا إغارات دون قصف، للتخويف، فهرب أهل القرية محتمين بالعشائر الكردية في الجهة الأخرى عن الحدود التركية، مدى شهرين، قبل أن يعودوا متفقّدين أوعية السّمن التي أدلوها في الآبار، بحبالٍ، حتى لا تُسْرَق. غير أن الفرنسيين عمدوا، قبل تلك الإغارة القاصمة بالطائرات، إلى اعتقال خَلْقٍ كثير من أهل القرى المحيطة بـ «عامودا»، ووضعوا المعتقلين موثوقي الأيدي في براميل محمولة على شاحنات، واتجهوا بهم إلى بلدة «دير الزور»، الواقعة جنوباً، على الحدود العراقية، تمهيداً لنقلهم إلى جزيرة «أرواد» على الساحل السوري شرقاً. بيد أنهم لم يكملوا نقل المعتقلين كتوفيرٍ للجهد على شاحناتهم، ربّما، فيما كانوا نقلوا، من قبل، بعضهم إلى تلك الجزيرة، التي تولت الأمن في أصقاع الشاطىء القريب منها كتائب من إحدى الطوائف تم تجنيدها لمؤازرة الفرنسيين، الذين استطاعوا استمالة الأشوريين، والأرمن، والسريان، أيضاً، في الشمال، فأوكلوا إليهم إدارات محليّة صغيرة، ووظائف في التموين والنقل. لكن أحداً لا يعرف لماذا وقفت عشائر من البداة العرب

مثل «جُبُوْر»، و «طيء» و «شَمَّر» إلى جانب الفرنسيين، فاستباحوا الحقول في الجنوب، والجنوب الغربي من سورية، وهم الأقوام الرّعاة؟ ثم انطلقت حرب شعواء في الشمال الغربي بين عشائر «بكارة» العربية وبين عشائر «كِيكان» الكردية، بتحريض فرنسي صرف، لكن عشيرة «حَرْب» العربية وقفت إلى جانب الأكراد في هذه الحرب التي سُمّيت «حَرْب كيكان»، وقد دامت سنين بين كرٍّ وفرٍّ، ونهب وسلب، وغزو، وغدر، وقطع طُرقٍ. فلمّا مالت الكفّة لصالح الكرد تدخّل الفرنسيون فأوقفوا المهزلة التي حبكوها.

لا أحد يدري، بعد ذلك، من أوعز إلى الفرنسيين اللجوء إلى تنصيب «آغا» عربيٍّ على عشائر منطقة «درباسية»، عندما استعصت عليهم استمالة أولئك الكُرْدِ المسرفين في النظر إليهم ككُفَّارٍ. فقد عيّنوا عربياً هو «عيسى القُطْنَة» في منصب «آغا»، على نحوٍ لم يكن معهوداً قط في تاريخ الكُرْد: فالآغا، عادةً، هو سليل آغوات آخرين، أباً عن جدٍّ، وله دم كرديٌّ صرف. فأقام ذلك «القُطْنَة» في المنطقة، محمياً من رجال الدّرك، أحول العينين، هو وأبناؤه، يثير سخرية الناس، وفكاهاتهم، حتى السنين التي أعقبت رحيل الفرنسيين إلى عالم ما وراء البحر.

«موسى موزان» وصهره «أحمد كالو» لم يتوقّفا عن حفر المجرى إلا أيام الجمعة، حيث يمضيان إلى بلدة «القامشلي» لأداء صلاة الظهر، والإصغاء في رهبة إلى إمام مسجدها، الذي يُلقي خطبته باللغة العربية الرّنانة، ذات المخارج المجنونة حين يتمطّقُ الرجل الملتحي، من فوق المنبر الأخضر الخشبي، بـ «أعوذ بالله». وبعد كلّ عودة إلى الهضبة كانت أسئلة «موسى» تزداد ثقلاً على صهره: «ألا ينبغي أن نموت يا أحمد؟»، فيرد الشاب الشاحب البشرة، ذو العينين الأنيستين: «ولماذا علينا أن نموت؟ ألا تظن أننا نستعجل قَدَرَ الله فَنُثْقِلُ عليه؟».

«لا» يقول «موسى»، ويتأمّل صهره مبتسماً: «إذا استعجلنا الموت

سنترك لوعةً عند هذا المخلوق»، فيما يفهم «أحمد» أن أبا زوجه يعني الكائن المختبىء (دون أن يعرف لماذا هو مختبىء) في المنزل المحاصر بأشجار التوت. لكنه يسأل الرجل الطويل:

ـ أية لوعة؟ إنه لا يعرفنا حتّى. . .

«آه يا أحمد، أنت لم تتمعَّن في ما نفعله» يردُّ «موسى»، ويسأل صهره:

ـ لماذا نحفر هذا المجرى؟.

«ليبترد ذلك الكائن. ليهدأ إذا مسَّه الماء. أليس هذا ما قلته لي؟» يقول «أحمد»، فيسترسل «موسى» آنذاك:

ـ وماذا سيجري إذا متنا قبل إنهاء حفر المجرى؟.

«لن يهدأ، بالطبع. لن يصل الماء إلى الناعورة، في قبو المنزل، والكائن لن يهدأ» يردُّ «أحمد» فيتمتم «موسى» واثقاً: «لو متنا، إذاً، سنترك لوعةً في أعماقه».

إذْ ذاك يصير من المنطقي أن يسأله صهره المُرْهَق من ضربات المعول: «لماذا نحفر هذا المجرى يا عمي موسى؟ فلنتوقّف»، فيحتدم «موسى»، منتصباً: «أريده أن يعرف أننا نملك الحيلة التي يملكها هو».

ويلين الشابّ دون أن يعرف لماذا يلين، لكنه يصرُّ ـ في حياءٍ ـ على سؤاله الصغير: «لماذا نحفر؟ إنه يفهمنا، ونحن نفهمه»، ويتطلع إلى «موسى» ليرى وقع كلامه في عينيه الواسعتين، لكن الرجل الطويل يردُّ في هدوء المطمئنِّ إلى أعماقه: «لا نفهمه كثيراً بعدُ، لا يفهمنا كثيراً بعدُ. الموت سيمكِّننا من ذلك».

«الموت؟» يتمتم «أحمد كالو»، فيؤكد «موسى» على كلماته:

ـ نعم. إذا متنا سيصير يائساً.

«أيّ موتٍ؟ أيّ يأس؟» يهمس «أحمد» كلماته في عتاب خفيٍّ، ويضيف كأنّما يقنع نفسه: «دون ماءٍ يُبرِّد المخلوق الناريَّ، هذا، سيندفع خارجاً إلى الضوء، فيعبث بكل شيء». ويدرك «موسى» قلق صهره، فيطمئنه بما يزيد قلق الشاب: «إنه يائس، على أية حال، وموتنا سيضاعف يأسه». آنئذٍ يخرج «أحمد» ـ كما في مرّات قليلة جداً ـ عن طوره:

ـ لماذا نحفر هذا المجرى، إذاً، بحق الله؟.

فيرد «موسى» في هدوء، ملقياً بصره إلى المنزل الأسير بين أشجار التوت الضخمة: «لنطمئن يا أحمد إلى أننا نغلق اليأس عليه كثيابنا»، ويتلمس صدر ثوبه. ثم يلتفت إلى صهره: «لنطمئن إلى أنه ـ هو أيضاً ـ يعرف يأسنا». وإذ يدرك «أحمد» أنه لم يقع على جواب، يروح مندفعاً في الحفر أكثر، منتفخ الأوراد، يقتصُّ بمعوله من التراب الصامت؛ التراب الذي يغتلي الجسدُ ريبةً منه، ومن وحشته المنتظرة في الخطوة الأولى إلى الأبدية.

وعلى نحوٍ ما كان في مقدور «أحمد كالو» أن يتشمَّم الأبدية بمنخريه، في الهواء المبذَّر، الذي ينثر رطوبة النهر على المكان دون حساب. فقد تكاثفت دوريات الفرنسيين في تلك الأنحاء، على خليطٍ من الجياد والبغال، قادمة من الغرب في اتجاه الشرق، بمحاذاة النهر، دون أن تعير الرجلين انتباهاً خاصاً وهما منكبّان على حفر المجرى. غير أن «موسى» و«أحمد» كانا يغليان قلقاً، ولا يلتفتان إلى الدوريات خوف أن يثير ذلك ارتياباً مّا. ثم امتدّ القلق من الأرض الكلسية البيضاء إلى داخل المنزلين فوق الهضبة، فأصاب الإناث كلّهن، حتى «هبة». وترعرت محاولات خجولة من «خاتون» و«هدلة» لثني الرجلين عن التواجد هكذا في العراء المريب، ثم اشتدَّت المحاولات حتى حدود الصراخ. ولطالما تدخل «نعمان» السائق، أيضاً، عشيَّات إيابه بمركبته الآلية، إذا لم يكن قد عثر على راكب ينبغي إيصاله إلى بلدة «القامشلي»، فيوفّر لنفسه عشاءً على

صحفة العائلة، والكثير من الثرثرة عن أحوال القرى.

لأنَ «أحمد كالو» كثيراً، فالمخاوف لها أسبابها. ومن يدري إذا لم يظهر أحدهما، أو كلاهما معاً، في جزيرة «أرواد»، ذات يوم، إن ارتابت فيهما دوريةٌ حمقاء، وأخذتهما للتحقيق؟ نعم. جزيرة «أرواد»: يا للرهبة!! مياه في كل مكان ستجعلهما متلعثمين إلى الأبد من الحيلة التي تكمن في امتدادها المجنون، العبثي.

«نحن لا نحب مياهاً من هذا النوع. لا. كيف يمكن للمرء أن يتأمّلها؟» يقول «أحمد» لنفسه مقشعّراً. «البحر حيلة»، يقول لنفسه، أيضاً، ثم يحاجج أبا زوجه: «لنفترض أنهم قبضوا علينا، وأرسلونا إلى شواطىء البحر، ثم أفرجوا عنا، فكيف نعود؟».

«ما قصدك؟» يسأله «موسى» مرتاباً، فيفتح الشاب عينيه باحثاً عن سَنَدٍ مُقنع: «أعني: مَنْ سيعيدنا إلى المنزل عبر هذه المسافات التي لا يُقدِّرها إلا الله؟»، فينفخ «موسى» متأفّفاً: «لا تخف. لن يقبض أحدٌ علينا». وهنا تتدخل «خاتون»: «لا نفهمهم، ولا يفهموننا. . وليست لنا وساطات معهم يا أبا البنات، فماذا يمنعهم من ـ لا سمح الله ـ أن. . .»، فيقاطعها زوجها: «سيمنعهم ـ يا خاتون ـ أننا نكمل ما تدبِّره الله لهذه السهول، وللهضبة».

«يستطيع، بنا أو من دوننا، أن يكمل الله ما تدبِّره لهذا الشمال كلّه يا عمي موسى» يقول «أحمد»، فيحتدم الرجل الطويل: «فلنكمل، أولاً، حفر المجرى يا أحمد، ولنترك البقية على الأقدار»، ثم يبحث بعينيه عمّا يسعفه في شرحٍ أكثر بساطة: «إنه ينتظرنا»، ويشير بيده إشارة صوب الشمال، حيث الجسر: «هذا المخلوق ينتظرنا».

«لماذا تعتقد أنه ينتظرنا، نحن تحديداً، يا عمي موسى؟» يقول «أحمد»، فيردّ «موسى»: «لأننا نقطن هذا الجانب الذي فيه ماء»، ويتمتم:

«النهر. كل مكانٍ فيه نهرٌ مكانٌ يمكن أن يكمل الإنسان فيه تدبير الله». فتنبري «هدلة» له بسؤال خفيف، وقد توضحت لديها مرامي أبيها ـ عبر أشهرٍ ـ بإشاراته إلى «المخلوق» الناريّ: «ألا تعتقد أن الفرنسيين يفهمون الذي تفعلانه؟». ويمسد أبوها على ذقنه براحته: «لا أعتقد»، متفرِّساً في وجه ابنته: «أيقرأون الغيب؟»، فترد «هدلة»: «لديهم مياه كثيرة. لديهم بحار يا أبي»، وهنا يتراجع «موسى» إلى الخلف، بارد النظرات قليلاً: «البحار حيلة» يقولها، ويردف كأنّما يقنع نفسه المرتابة: «ليسوا مثلنا يا هدلة. إنهم يتركون مخلوقاتهم النارية طليقة. هم ومخلوقات النار التي في ديارهم ـ معاذ الله ـ يتشابهون». ثم يرفع يديه أمام وجهه كأنما يقرأ الفاتحة: «أنتِ لم تري أعينهم» ملتفتاً إلى الآخرين في المجلس: «أنتم لم تروا عيون الفرنسيين عن قرب: زرقاء. أكثرها زرقاء إلى درجة لا تشبه، قط، زرقة الأعين التي نعرفها. إنها مضاءةٌ بالوهج المنبعث من مخلوقات النار. يا إلهي»، ويضرب كفّاً بكفٍّ ملتاعاً على نحوٍ غير مفهوم: «لماذا كلُّ هذا الضوء في عيونهم؟».

يلين «أحمد»، لكن «موسى» لا يلين: «سنكمل حفر المجرى». وهكذا يمضي الرجلان كل صباح، بعد جدالات الليل العابقة برائحة حساء العدس، إلى الأرض الكلسية، مستجيبين للنداء الأبيض، الخافت، في صخورها، برغم القلق اللجوج كغيوم الخريف. ويعودان في المساء، تحت أعين الظلال القوية التي تخلِّفُها دوريات الفرنسيين على ضفتي النهر، وفي الماء الصلب ذي التّماوج الصلب، تحت السماء الممسكة بالهضبة كنسرٍ من زجاج معتم. بيد أن «أحمد كالو» بات ينجرف إلى هذيانَ مّا، بمخاوفه المُحِقّة، وحيائه من أن يخذل الرَّجُلَ الطويلَ: «لم أعد أرى إلا الماء يا أمي» يقول لزوجه «هدلة» حين ينفرد بها. وهو، بعامَّةٍ، يناديها «أمّي»، فتتلقّفُ كلمته بقلبها، بالرغم من أنها تصغره بست سنين، وينادي ابنته «هبة» بلفظة «أمي» أيضاً. ويسرد لهما أحلامه القوية المقلقة،

كلَّ ليلٍ، حين يأوون إلى منزلهم عائدين من منزل «موسى» بعد العشاء الجماعي. وفيما تغفو الطفلة على نبرات صوته الخافتة، تعمد «هدلة» إلى التخفيف عليه: «سيتعب والدي من هذا الحفر، قريباً يا أحمد»، فيردّ زوجها: «أرى إصراراً في عينيه، يا أمي. وأخاف أن أخذله إذا توقّفت وحدي»، ثم يسأل امرأته سؤالاً يترقرق من أعماقه إلى لسانه: «مَنْ هناك يا هدلة؟. أثمّت أحد في ذلك المنزل المهجور؟ أتعتقدين حقّاً. .»، فتقاطعه وهي تفكّ جدائلها المائلة إلى الشقرة قبل أن تعيد جَدْلَها بإحكامٍ أكبر تأهُّباً للنوم، الذي يبعثرُ الشَّعْرَ بأمشاطِ حقيقته: «لماذا لا تتفقّدان المنزل أوّلاً، لتتأكدا، أنت وأبـي؟».

وتفترّ شفتا «أحمد» عن دَهَشٍ خفيف: «نتأكد مِمَّ يا أمي؟ لا نستطيع أن نرى المخلوق الناريَّ حتى لو شدّنا من ثيابنا»، فتلقي «هدلة» برأسها على المخدة وهي تندسُّ في الفراش، قائلة: «لا أعرف يا أحمد. لا أعرف»، وإذ يستقر جسدها تحت اللحاف تسأل زوجها أن يخفّف ضوء السراج، فيعمد الشاب إلى تخفيف الشّعلة بإدارة القُرص النحاسي الناتئ، الذي يرفع الفتيل أو ينزلُه. ثم يندسّ، بدوره، تحت اللحاف، لصق زوجه، ناظراً إلى السقف العالي، المتماوج، كأنما يرصد نهراً يجري على علوِّ متر من جسده: «هبة تكبر في سرعة»، يقول، فتتمتم «هدلة» من وراء نعاسها: «ستساعدني الحلوةُ في الطهو قريباً».

باتت الأمتار تتقاصر بين الساقية التي شقّها الرجلان وبين منزل أشجار التوت، فيما اتسعت رقعة المياه في أحلام «أحمد كالو»، فغطت السهل كلَّه بعلوٍّ يكاد يبلغ منتصف الهضبة. وكان الشاب يستيقظ، دائماً، قبيل الفجر، مختنقاً، حين يرى نفسه ويرى «موسى» متوجهين، تحت الماء، مشياً على أقدامهما، صوب الأرض الكلسية البيضاء، فيكتم أنفاسه في النوم. وإذ يستيقظ منتفضاً، تكون آخر علامات حلمه عالقةً بجفنيه على شكل طيفٍ يتكرّر كل فجر ليس إلّا طيف ابنته «هبة» تشق طريقها تحت الماء، بدورها،

إلى الرجلين، من جهة الطريق المعبّد في إهمالٍ كبير، يتقدّمها «توسي» و «هرشه»، الكلبان الأطرشان، وهما يحدّثانها. وتكاد «هبة» أن لا تكون هي نفسها في غلالة ذلك الطيف، إذ تبدو أكبر كثيراً، أكبر منه وعن أمها، فيناديها: «لا تتنفّسي يا أمي».

أطياف أخرى تعبر أحلام «أحمد» المائية. حتى النهر ذاته، يتدفق في مجراه، مرئيّاً، مستقلاً بين ضفتيه عن المياه التي تغمر المكان كله، فلا يمتزجان. وقد يلوح حارس النهر «جاجان بوزو» أيضاً، في مكانٍ هنا أو هناك، يضرب بخيزرانته لقالق لا تطير، بل تعول عويلاً كالنساء. فيما تنبت على جنبيّ الجسر الضيق زعانف كبيرة تخفق كالأجنحة دون أن يتحرك الهيكل الحجريّ للجسر. أمّا السماء، التي تعلو المياه بأشبار قليلة، فلا تغدو إلاّ أثلاماً كأنما هي جداولُ لم يكتمل حفْرُها، داكنةٌ من غير لون. لكن المكان الذي بلّل أحلام «أحمد»، ويقظته معاً، كان على عهده من الاتساع في عرائه، الذي يقطع صمته الشاسع رنينُ معولَيْ الرجلين وخفقات قلبيهما المرتابين، يوماً بعد آخر، حتى ذلك المغيب الأبيض، الذي انحدرت فيه «خاتون» من الهضبة صوبهما، فتمزّق كلُّ شيء.

كانا يتخاطبان بكلمات قليلة في يومهما الأخير من الحَفْرِ الذي لم يُنْجَزْ. متران، أو ثلاثة، بل أربعة أو خمسة، على الأرجح، بينهما وبين المنزل المهجور. وهما يلهثان حين يحفران، ويتأمّلان إذ يتوقّفان عن الحفر، دون كلام. «أحمد»، حين آذن المغيب بانصرافهما، أبدى استياءً واضحاً: «كم من السنين تكفي، يا عمي، بحسب ظنك، للانتهاء من هذا؟»، ناظراً في غضب إلى الأمتار القليلة الباقية، فابتسم «موسى»: «إذا قسنا الأمر على همتك نحتاج إلى يوم آخر، أمّا على همّتي فنستطيع إنجاز الأمر الليلة». وانتفض «أحمد كالو»: «لا أظنُّ أن الوقت يعنيك في شيء»، ورفع يديه إلى السماء: «ألا تراها سوداء معتمة؟ إنه المغيب، وليس الفجر»، ورمى معوله جانباً: «هل الوقت كلب لنجعله ينبح؟». فاحتدم

«موسى» بدوره، صارخاً: «لا تشتم الوقت يا أحمد. الوقت هو الله». ثم غطى على صوتيهما صوت طلقات ثلاث، وأنينٌ صاخب من حنجرة أليفة على الرجلين، فتراكضا صوب الشبح الذي تهاوى قرب منعَرَجٍ من ضفة النهر. ولم تمض برهتان حتى تهاويا بدورهما، «موسى» بعد «أحمد»، في المغيب الخجول.

لن يتأكد أحدٌ، قط، من الدافع الملحّ للدورية الفرنسية في إطلاق النار على «خاتون» أولاً، وهي القادمة بأخبار خاصة إلى الرجلين تلقّفتها من السائق «نعمان»، ولم تستطع انتظاراً على رجوعهما، لأنها تتعلّق بتدابير تخصُّ الهضبة. كما لن يتأكد أحدٌ، أيضاً، من جدوى إطلاق الدورية النار على «موسى» وصهره، الراكضين في أسى مختنقٍ، كأنما عرفا أن المرأة أصيبت مقتلاً. لكن اللحظات التالية لتلك اللوعة المنبثقة من أعماقهم كانت على شيءٍ من الحذر. فقد نهض «أحمد كالو»، بعد سقوطه يتأمّل جسده المُخْتَرَقَ بطلقتين، في الكتف، والحوض، ثم التفت إلى «موسى»، المثخن، الذي نهض بدوره متأمّلاً ثيابه المثقوبة: «أتظنُّ أننا قُتِلنا، يا عمي؟»، فتنهد الرجل الطويل: «أعتقد ذلك يا أحمد. أتحسُّ بألم؟»، فردّ الشاب: «لا». وهنا ابتسم «موسى» ابتسامةً عريضة، ناظراً إلى «خاتون» التي وقفت على قدميها وهي تتأمّل الثقوب في ثوبها، قائلاً: «سنترك لوعةً في أعماقه، الآن»، والتفت صوب المنزل المهجور بين أشجار التوت الحكيمة.

بيد أن الأمور لم تكنْ مُحْكمةَ على النحو الذي خمنت أعماق «موسى». فاللوعة التي ظنَّها أبدية بالنسبة إلى المخلوق الناري باتت مهدَّدة، في السنة السادسة من مقتلهم، حين شهدوا - بأشباحهم - مجيء «مكين» وأختيه، ذلك الصباح الخريفي المهشّم في عيني الديكين «رشْ» و«بلك»، وهما يتوعّدان الحياة بمقاييس صامتةٍ في عراكهما الحيوانيِّ.

كانت أشباح الرجلين والمرأة - التي لم تغادر الهضبة، والسهل

الكلسيَّ، وضفتي النهر، قطّ - تشهد، بين حين وآخر عبور مخلوقاتٍ شتّى، عجولة، منصرفة إلى ما أُوكِلَتْ به، على شكل أطيافٍ من الماء عليها ثياب نورانية. لكن «مكين» - الذي انبثق انبثاقاً مع أختيه، وحمّال متاعهم الذي سيقدّمونه لعائلة «موسى» على أنه «كلب» - لم يبدُ عجولاً، وهو يتقدّم الآخرين كأنما لفظته جهة مّا غاب عن الأشباح الثلاثة أن يرصدوها، فاسترابت الأشباح. ثم اشتدت ريبتها حين عاينتْهم يصعدون سفح الهضبة في اتجاه المنزلين. فلحق بهم «أحمد كالو»، أولاً، حتى حاذاهم، وهو يتأملهم وهم يتأملونه. وقد همَّ مراراً أن يسألهم عن قصدهم من صعود تلك الناحية من الهضبة، لكنه استنجد بأبي زوجه، عبر التفاتات متكرّرة إلى الوراء، كأنما يحثه على الإسراع ليستجلي الأمر. وما كاد «موسى» يدركهم، بدوره، حتى توقفت «كليمة»، ناظرة إلى «أحمد»، الذي جمد أمام وجهها المترقرق في بياضه الغريب: «أأنت تتبعنا؟» سألته بصوت وادعٍ.

«أنا؟»، رد «أحمد» مستاءً، وإذْ همَّ بالاقتراب منها، مسّ «موسى» كتف صهره يوقفه، فيما خاطبها هو: «نعم. نحن نتبعكم». فتدخل «مكين» مبتسماً: «فليتبعونا يا كليمة»، ونظر إلى عيني «موسى» الغارقتين في ظل الخمار المسدل على نصف وجهه: «أعرف اسمك»، فردّ «موسى»: «وأنا أعرف اسمك»، ثم تقدّم خطوة في اتجاههم: «لماذا تصعدون صوب منزلينا؟».

تنهّد «مكين»، والتفت إلى أختيه: «أظن المكان يناسبنا»، وتمتم يخاطب «الكلب» المنحني تحت ثقل أحماله: «أنا اخترت هذه الهضبة».

«أنت اخترتها؟» سأله «موسى» بصوت فيه سخرية وأردف: «أنت لم تجد مكاناً آخر أكثر سهولةً». فعبس «مكين» أولاً، ثم رقّت ملامح وجهه الحليق تحت قبعته المضلعة الحواف: «مررت بأمكنة كثيرة يا سيدي، من قبل، وهذا المكان ليس أسهلها»، ومدَّ بصره إلى أرجاء الأفق الذي ظللته غيوم

عالية :«أحبُّ هذا الهدوء الثقيل. أحب هذه الوحشة التي تليق بعمل خفيفٍ». فتدخلّ «أحمد كالو» : «إننا نسألكم لماذا تختارون منزلينا؟» فرد «مكين» : «أتقطنونهما أنتم؟»، وأشار إلى ثلاثتهم.

«لا يهمّ» ردّ «أحمد».

«اعتقد أن المنزلين لم يعودا لكم، أنتم»، قال «مكين»، فدمدم «موسى» :

«ما الذي تعتقد، وما الذي لا تعتقده؟»

لم يجب «مكين»، بل أكمل صعوده بمرافقتيه، فاحتدمت «خاتون» وهي تتبعهم بنظرات مستنكرة، والتفتت إلى زوجها: «أليس هذا كثيراً علينا؟»، فهمهم الرجل الطويل، وقد استسلم لهدوء يليق بشبح : «لا أعرف يا أم البنات، لكن هذا يحصل في كل مكان».

محاورات صغيرة، أخرى، جرت بين الأشباح الثلاثة وبين الوافدين، بعد الذي قاله «مكين» حول أمر يتعلق بالفزع : «هذا هو الفزع . .»، ملفتاً ناظري «موسى» إلى الشخص المسمّى كلباً، بالسلاسل التي تتدلى على جذعه، وبالأقفال المرتطمة بفخذيه وهو يصعد الهضبة، بدوره، لاهثاً على نحوٍ مختلف. وحينما أنفصلت العائلتان، إحداهما متجهةً صوب المنزلين لتستأجر الغربيَّ منهما، وانعطفت الأخرى صوب الساحة، التي تماوجت بركة الدجاجات فيها تحت المطر، تناهت أصوات بنات «موسى» من جهة سور الخرنوب، راكضاتٍ في مرح، فيما كان «أحمد كالو» يسبر صورته، المنحلة إلى فراغٍ ماجنٍ في مياه البركة. وقد سألت «خاتون» زوجها، كما سأله صهره: «ألن يُفْجِئْهنَّ الأمر؟»، فرد: «بالطبع سيفاجَأْن». ثم مضت برهات ذلك الصباح متصاعدة، كتصاعد خطوات الأشباح الثلاثة على المنحدر المطلّ غرباً على المنزلين، والساحة، وسور الخرنوب، حيث اتجهوا إلى تخوم الأرض التي جرى بَسْطُها في إتقان، وقد تناثرت من حولها مداحل وجرّافات رابضة كحيواتٍ من معدن قويٍّ. وهناك، عندما كان

«موسى» يتأمّل المبنى المستطيل، ساخراً من نوافذه الكثيرة، ومن برجه القصير الشبيه بمئذنة،ويردُّ على بعضٍ من ملاحظات صهره الغيورة عن نظرات السائق إلى «هدلة»، تأمَّلتْ «خاتون»، للمرّة الأولى، ثقوباً في ثوبها هامسة: «أريد أن أرتِّق هذه الثقوب»، التي لم تكن إلّا أثراً لطلقات اخترقت خاصرتها، من جهة الظهر، فقاطعها «موسى» بنبرة وادعة: «منذ ست سنين وأنتِ تحاولين رَتْقَها».

كان كل شيء هادئاً تحت مطر ذلك الصباح العالي، إلّا المحاورات التي جرت في المنزل الغربي بين بنات «موسى» والوافدين، حين فوجئن بهم يتجادلون جدالاً ساخراً عن أسباب اختيارهم للمكان. وهو جدال لم تأبه له الأشباح الثلاثة كأنما ملَّتْهُ من قبل، بالرغم من مكوثها أمام باب المنزل قليلاً، قبل التوجه إلى تخوم الأرض التي مهّدتها الجرافات، وسوَّت سطحها المداحل. لكنها ـ كأشباح عارفة بخفايا تلك الهضبة، ومجاري رياحها، سنةً بعد أخرى، ولا يخفى عليها مسارُ الأجنحة العالية للطيور، وخطواتُ الشخوص الأكثر شفافيةً ـ لم تتمكن من تقدير واقعيٍّ لمهمَّة كل تلك الأكوام من البراميل السوداء، والخيام المتقابلة كأثداء كلبةٍ. أما الأرض الممهَّدة على نحوٍ مستطيلٍ، شاسعٍ، فكان تأمّلُهم في سطحها، المرصوف بقارٍ أسود يمتدُّ من المبنى ذي المئذنة القصيرة إلى مدى متداخلٍ مع الأفق الغربيّ ،تأملاً موحشاً حتى بالنسبة إلى أشباح. فالسواد المطلق، ذاك، المسترسلُ في اطمئنانٍ إلى لونه الضّاري، لا يوحي بتمهيدٍ للزرع مثلاً، ولا بالإقامة، إذْ لم تنهض فيه جدرانٌ، أو سياج، أو أساسات، إلّا المبنى المستطيل، المنفلت بهندسته الطائشة من مخالب القار، لكنه مستسلم له في الآن ذاته، كأنما هو فريسةٌ جمَّدتها نظراتُ اللون الأسود ـ القنّاص.

قطعت «خاتون» تلك السكينة، التي تتأرجح تحت خيوط المطر كمفاتيح كثيرة من النحاس في حلقة يركض بها طفل، هامسة بسؤالٍ إلى العراء، لا إلى زوجها أو صهرها: «لماذا يسكن الجميع خياماً؟»، فالتفت

إليها زوجها يتأملها بعينيه الرابضتين في ظلام نقابه المسدل على نصف وجهه: «نحن لا نسكن خياماً يا أم البنات»، ففاجأه صهره «أحمد»، الذي استرعاه سؤال أمّ زوجه: «نحن لانسكن أيّ شيء يا عمي موسى»، فقاطعه «موسى»: «نحن نسكن هذه الرحمة كلَّها»، وبسط يديه على نحوٍ كأنما تلتقطان العراء والريح معاً، دون أن تنجو السماء أيضاً، وخفَّف من نبرته: «هذه الرحمة كلَّها. هذا الأكيد كلُّه، يا أحمد»، وأردف كلماته الخفيضة بهمس حنون: «لم نعد عالةً على المساكن يا أبا هبة». لكن «خاتون» بدت كمن ألقى بكلام لم يُرِدْ له مداخلة كتلك، فعادت تهمس في توضيح: «قصدت هؤلاء» وأشارت إلى خيام العمال، «وأولئك» ـ أضافت ـ مشيرة إلى خيام سوداء أبعد بفرسخين أو ثلاثة من الحواف الغربية للأرض الممهَّدة بجبِلَّةٍ من الحصى المهشم والقار الملتئم في ملاسةٍ. وهي خيام حطَّ بها غجر قبل يومين. ثم استدارت صوب الحافة الشمالية للهضبة: «وهناك، أيضاً»، فالتفت الرجلان دون أن يقع بصرهما على خيام، فاسترسلت «خاتون» موضحةً: «لا خيام هناك، الآن. لكنني رأيتها يوم انحدرت إليكما وأنتما تحفران المجرى، لأخبركما بأمر»، وعضت على شفتها السفلى محاولةً أن تتذكَّر الأمر، الذي حدا بها إلى نزول الهضبة ـ قبل مقتلها بقليل ـ فلم تتذكر. فعادت تكرِّرُ: «رأيتها، هناك. كانت واضحة جدّاً»، ورسمت نصف قوس وهميّ بإصبعها على أفقٍ وهميّ: «كانت متجاورة على امتداد القوس الترابيِّ، هناك»، ثم أرخت يدها لتمسك بها نقابها المسدل على وجهها، كأنما تحمي الظلال الشاحبة تحتهُ من ضياء الهضبة الشاحب، المتعثر في قناعه المطريِّ على درجات الغيم. وتمتمت، من ثمَّ، دون أن يكون في صوتها ما يوحي أنها تحاول إقناع الرجلين: «خيام من نور. رأيتها هكذا»، ولوت عنقها صوب زوجها، قبل أن تكمل التفاتتها تلك فيستقرّ بصرها على وجه صهرها الذي لا يُرى تحت نقابه: «حتى حبال الخيام كانت نورانية. وكذلك الأوتاد». وسكتت برهةً تنظر من يقطع عليها

استرسالها، سواءاً بتأكيدٍ أم بتعريضٍ، فبقيا على صمتهما. فهمّت «خاتون» تستدرجهما إلى الإصغاء أكثر: «فألُ خيرٍ أن نرى أشياء نورانية، يا أحمد. أليس كـذلك؟»، والتفتت إلى زوجهـا لا إلى صهرهـا، مضيفـةً: «أليس كذلك، يا أبا البنات؟».

قبل يومين من وقوفهم ذاك، جاءت عربات قليلة محمَّلة بأقفاص فيها دجاج كثير، تجرّها بغال ضامرة، لتتوقف على مبعدةٍ من الأرض التي جرى رصفها، دون أن تقترب منها، وكانت تحدو تلك العربات حمـيرٌ تترنّـح تحت أحمالٍ تبعث على اليأس من مستقبلٍ مّا، لكنها تتصابـر ـ كحميرٍ تطمئن، أبداً إلى غفلةِ الحياةِ عنها ـ فتتهادى وديعةً، زائغات الأعين، وقد علاها أطفال كُثُر، ونساء، وجرار، وأغـطية، وأوانٍ مبعـوجة من التـوتياء المسودّ، وطناجر نحاس، وقُلَلٌ، تواكبها كلاب هزيلة، عصبية، تلتف حول أنفسها في محاولات لعض أذيالها، كأنما أجسامها ليست لها؛ لاهثة في المركز الرَّطب الذي تحدّق فيه الغيوم من أعلى، وهي تعاين الهضبةَ بعيون من ماء تبدو حكمةُ وجوده ثقيلةً في الكثافة الملبّدة العالية، على شكل غيم. والكلاب، تلك، كانت مرحة على نحوٍ غير مفهوم، إلاّ على افتراض أنها انتقلت، للمرّة الأولى في حياتها، من مكان إلى آخر، في فصل الخريف، حيث لم يكن معهوداً، قط، أن يجوب الغجرُ تلك الأنحاء في غير الصيف.

خيـام سوداء، من شعـر المـاعـز، لا من نـورٍ، انبثقت في تجـاور عشوائي، تاركةً للريح مساربَ لتعصف، مع قدوم الشتاء المرتقب، بالحبال وبالأوتاد، كأنما غير معنية بأن تتحصَّن لفصل سيدلف مطرُهُ، طويلاً، من سطوحها، بالرغم من تصفيحها بجلود مربوطة، متجاورة، لتدرأ أنفاذَ المطر. كمـا أحيطت الخيـام بخنادق ضحلة على حدود نسيجهـا الـذي يـلامس الأرض، لتحتـوي المياه، فتجـري ـ بعـدئـذ ـ في جـداول متفـرّعـة عن الخنادق، صوب الأرض المائلة على حدود الهضبة.

خيام في غير موسمها، وغجر في غير مـوسمهم. لكنهم، قطعـاً،

اشتمُّوا نوراً مّا على الهضبة، لا يشبه نور الخيام التي رأتها «خاتون» قبل مقتلها، لأنه لاح ـ أول ما لاح ـ على شكلِ مصابيح أمامية في سيارات «جيب» قدمت، مساء اليوم الثاني تحديداً، إلى الهضبة، كأنّما اشتمَّ حديدُها ـ على نحوٍ مفْعَم بفراسة الحديد ـ أن العُمُدَ الخشبية انتصبت تحت النسيج الماجن الأسود، في الخلاء الماجن. وبالرغم من أن فوضى ماثلةً ضربت المكان، لأن الوافدين الشُّعْثَ كأذيال دجاجاتهم لم يرتبوا استقرار متاعهم الفاحش، فقد هدرت محرّكات مختنقة، آتية من بلدة «القامشلي» في اتجاه الحظوظ المأمولة لِلَّهْوِ الذي ستقدّمه نساءٌ رثّت ثيابهن وأثداؤهن، على صوت ربابات يتكسّر تحت الأصابع الشاحبة لأزواجهن المبتسمين عن أسنان متباعدة، وهم يشجعون زبائنهم على المضي أكثر في مداعبة الإناث، ممَّن في الخيام، مهما كُنَّ: أخواتٍ، زوجاتٍ، أو بناتٍ لم يبلغن طمثهن بعد، ما دمن مرغوباتٍ في الهبوب القوي لشهوة القادمين المرحة. لكن المتعة التي ستخفق بجانحي صقر، قرب الأرض المرصوفة، ستكون قلقة في الأيام التالية، بحسب ما ترى الأشباح الثلاثة. فالقادمون اللاّهون ـ وهم، بعامَّة، من أبناء الآغوات، وبقايا الأفندية من ذوي الدَّم العثماني، المشهود لهم بفنون الوجاهة ـ سيجدون منافسين أكثر فضولاً ذوي عيون زرقاء، أو أي لون آخر تحيله العتمة إلى أرزق ما دامت الكلمات التي ينطقونها فرنسيةً صرفةً. إذْ سينضم معظم جنود الحامية، الذين قطنوا المبنى المستطيل ذا النوافذ الكثيرة في ذلك العراء، إلى الخيام اللاّهية، حيث سيقودهم الفضول، أوّل الأمر، وهم يرون مصابيح السيارات المريبة متجهة إلى الجهة الغربية من الهضبة، على نحوٍ قوسيٍّ يجاور الحدود القوسية للأرض الممهَّدة بالقار. لكنهم سيركنون، بعدئذٍ، إلى النعمة الشاحبة في ذلك العراء الموحش، متمايلين في جلوسهم على الأرض تحت الخيام طَرَباً من طنين الرَّبابات في رتابتها الساذجة، فيما النساء يرقصن رقصاً لا رِفْعَةَ فيه، مثيراً بابتذاله أولئك المقذوفين من وراء البحار إلى شرقٍ طريٍّ

كأوراق البصل الخضراء.

وستجري، بالطبع، مشاحنات غير معلنة؛ مشاحنات مكتومة على غيظٍ مكتومٍ في أعماق أبناء اليُسْر القادمين من «القامشلي»، وهم يرون حركات الغجريات - في هزّ أجسادهن، وفي الإيمان بشفاههن، وفي الغمز المُغرض ببيِّناتِهِ الشهويَّة - تنحسر عن حلقتهم، حيث يجلسون، في اتجاه حلقة الفرنسيين الأكثر صخباً، التي لا يتورّع رجالها عن النهوض راقصين مع الراقصات، يضمّونهنَّ ضمّاً يندر أن يفعله أبناء البلدة ذوو الشوارب التي يجدر بها البقاء ساكنةً فوق الشفاه، مهما اغتلى مرحهم، لئلا تذهب حركاتُ ما جنة محتملةً منهم بهيبتهم كرجال. إذ حسبهم أن يدسّوا أيديهم في جيوبهم لينقدوا النساء، كلّما اقتربن من أحدهم، أوراقاً ملوَّنة، أو قطعاً معدنية، في كرمٍ استعراضيٍّ فيما لن يفعل الفرنسيون ذلك قط، لكنهم سيحصلون على مداعبات سخية من النساء اللواتي ستتساقط خُمُرهن عن شعور طويلة، ملبّدة، متباعدة الخِصَل لأنهنّ لم يغسلنها من أمد طويل.

ولأن أبناء اليُسْر، القادمين من «القامشلي» في سيارات آبائهم المخصصة لأمور الزراعة، لن يقدروا على دَفْعِ احتجاجهم إلى العلن ضد استئثار الجنود الفرنسيين بالفاكهة الناضجة للمرح، فإنهم سيعمدون إلى السخرية من ذوي العيون الزرقاء - حتى لو لم يكن بعضها أزرق - بإيجاد شبه بين أفواههم المفتوحة من أثر اللهو وبين أفواه كلاب الغجر، التي تتمدّد أمام مداخل الخيام، من الداخل، متفرّسة - بأشداقٍ مفتوحة كمن يُقَدِّر حصيلةَ الليل السخية من هبات الضيوف - في الوجوه المتقابلة لأولئك المتنافرين في صمت أعماقهم، برغم الضجيج الذي يوحّد أمزجتهم كأوتار مشدودة، متوازية، تحدِث طنيناً بأيّ إصبع كان. لكن نظرات الجنود الفرنسيين، بحقٍّ، تشبه نظرات كلاب الغجر على نحو مّا، بالتأمُّل المبطَّن الذي فيها، وبجسارتها على التحديق طويلاً دون أن تَطْرِفَ. فيما على أبناء اليُسْر، برغم يُسْرهم، وعلوّ شأنهم في الأمكنة التي لا تشرف على بواطنها

عيونٌ فرنسية، أن يكونوا أكثر احتشاماً في استقراء الوجـوه بعيونهم، وأن لا يطيلوا التحديق في ذوي اللغة الغربية حتى لا يستثيروهم.

قبل يومين من وقوف الأشباح الثلاثة على تخوم الأرض الممهدة بالقار الأسود، جاء الغجر ذوو الشفاه الزرقاء من أثر البرد، الذي لم يكن إلاّ وليداً دافئاً في قماطات الخريف ذاك بَيْدَ أن اللون الأزرق يُعْزى، بعامة، إلى لون بشراتهم الداكنة وقد لامسها بردٌ مّا، ليس حاصلاً بالضرورة، لكنه لن يتأخّر على أية حال. وفي وصول قافلتهم البطيئة، قبْل الظهيرة، لم تتوقّف كلابهم الكثيرة كما تـوقفوا، هم وحميـرُهم، وبغالُهم، ودجـاجاتهم الأسيـرة في أقفاصها. فقد حامت الكلاب، تلك، حول الموقع الذي اختارتـه القافلة لتوطيد فتنتها المرغوبة، ومن ثم أكملت انحدارها صوب الطريق الإسفلت شرقاً، لتتوقّف، هناك، دون عبوره. وقد نبحت نباحاً خفيضاً، فإذا «هرشه» و «توسي» يأتيان هرولةً، بأشداق مفتوحة عن لسانين يتذوَّقان الفراغ الصامت للهضبة. ولمّا بلغا الحافة الترابية المطلّة على الطريق الإسفلت، غربـاً، توقّفا في مواجهة الكلاب الأخرى، نابحين بدورهما نباحاً متقطعاً، خجولاً وخفيضاً.

ابتسم «مـوسى موزان» تحت نقـابـه الكثيف وهـو يتفحص الكلبين الأطرشين يؤدّيان ما تؤديه الكلاب التي تسمع. وتمتم: «يا للخدعة». وقد بدَّد المشهد ظهور «هبة» حاملة حجراً قذفت به كلاب الغجر وهي تصرخ: «يـا فئران الجحيم»، فتفـرق شملها، منسحبـة صوب الخيـام، فيما بقي الكلبان «توسي» و «هرشه» في وقفتهما لم يسمعا صفير الحجر المقذوف، ولا صرخة «هبـة»، التي اضطرت إلى الالتفـاف عليهما لتـواجههما حتى يرياها، رافعةً ذراعيها: «أتريدان أن تلتحقا بهم؟!» وأرخت ذراعيها متمتمة: «هيا. لكما ما تريدان. اذهبـا»، وأشارت بوجهها إلى الجهة التي قصدتها كـلاب الغجر: «لن تـأكلا غيـر اليرابيـع، وروث الحميـر»، فبـدا الكلبان مذعورين من نظراتها، وحركاتها التي توحي برغبةٍ في تشريدهما، وعَلّتْهـما

مَسْكَنةٌ امتدت من رقبتيهمـا، اللتين تقلّصتـا، حتى عيـونهمـا الزائغة. واستدارا، من ثمّ، مهرولين إلى ساحة المنزلين.

لم يهدأ الكلبان في الليلة الأولى لمجيء الغجر، ولم يهدأ في الليلة الثانية: ظلّا يهزّان من المساء إلى الفجر، كأنما يخاطبان أطياف الكلاب الأخرى، التي انتشر نباحها كبذور الخُبَّيْزِ على الهضبة. وقد حاولت بنات «موسى»، بالتناوب، أن ينهرنهما فما أفلحنَ، حتى أن شبح «أحمد كالو» تدخّل، بنفسه، ليرفع عن ساحة المنزلين ذلك القلق الذي أثاره الكلبان بين الدجاجات، وعلى صفحة ماء بركة الدجاجات، التي بدت لعينيه الخفيَّتين عميقةً على نحوٍ لا يسبره الظلام الثاقب الليل، أو ضياء الفجر الجوّال على عكاكيزه الشاحبة في فجوات الغيوم. وفي محاولاته تلك، المضحكة، وهو يحوم حولهما، ويلوّح بذراعيه متوعّداً، لم يكن يشكّ أنه أقرب إلى البلاهة في عيني «موسى» وعينيِ «خاتون»، اللذين اكتفيا بالهمس طويلاً، متقاربين تقارباً حميماً، كأن قبلةً محتشمةً تمزِّق نَفْسَها نصفين في الفراغ الضئيـل بينهما.

كـان يغبط بنات «مـوسى»، طوال يـوم ونصف اليوم، قبـل وصول المستـأجرين، أن يشهـدن نبـاح كلبين لا يسمعـان، ولا يشمّـان، بـرغم ما يعرفن من حكايات عن اقتدار الكلاب على استجلاء الخفيّ الذي لم يقع بعد. غير أنهنّ لن يقتنعن، على أية حال، أن كلبين مثل «توسي» و «هرشه» لهما خاصّية نوعهما الحيوانيّ. فهما يخطئان، أبداً، في توقيت إنذارهما، إذ ينبحان حين لا يكون أثرٌ لمرور ملاك ـ حتى ـ على الهضبة. ويصمتان لمّا يقتنص سائقو العربات الخشبية، المحملة بالروث الجاف أو القش، دجاجاتِهنّ الشاردة أبعَد من الطريق الإسفلت غرباً. بل أنهما لا ينبِّهانهنّ إلى مجيء سـائقهن «نعمـان»، ذهـابـاً وإيـابـاً، وهـو الـذي يـزلـزل قنّ الدجاجات، وسور الخرنوب، والهـواءَ الذي يكمِّم النهـر، ببوق السيـارة الأبحّ، وبصوته المتذرذر كرماد لفافاته. لكن الكلبين هدآ، من جديد،

بعد وصول «مكين» وأختيه، وحمّال متاعهم، عائدين إلى ما كـانت عليه حالهما قبلاً. بيد أن «هبة» كانت تستطيع إدراك الخبث الذي ظهر جلياً على أحداقهما الماجنة بنظراتها، بعد ذلك، وهذا ما حدا بها إلى إبداء بَرَمها منهما إلى درجة الصراخ: «لماذا لا نتخلص منهما؟»، دون الإفصاح عن أنها ترى خُبثاً مّا في عيون الكلبين، وهو ما سيثير سخرية «ستيرو» قطعاً.

على أية حال، لم يكن مُؤكَّداً أن ما تراه «هبة» هو خبثٌ مّا. فقـد تداولت الأشباح الثلاثة، الملتفعة بعباءاتها ذوات الألوان غير الأكيدة، في أمرٍ يتعلّق بعدد قليل من الحيوانـات يدخـل الجنة: «دلـدل النبـيّ؛ بقرة موسى؛ ناقة صالح؛ هدهد نوح؛ حوتُ يونس؛ وذلـك العنكبوت الـذي ضرب نسيجه على مدخل الغار، حيث التجأ رسول الله محمد، وصحابيه أبو بكر؛ وكذا ستدخل الجنة حمامةٌ باضت على مدخل الغار ذاته، فموّهت على المقتفين آثار من يقتفون».

الآدميون، وحدهم، سينهضون يوم الحشر، دافعين أمامهم عظامهم الرقيقة، بأيديهم التي من هواءٍ، إلى الميزان الكبير الذي سيزنُ خلودهم الآخر. أما الحيوان، ذو العظم واللحم، والصـوت، والنظر، فسيمضي، بعد موته، إلى خاصيَّة أمله العدميّ، دون يقظة قطّ، مُنحّلاً كياناً بعد كيانٍ، بذراته الترابية وبروحه، في سلسلة لا تنتهي من اليأس من قيامـةٍ مّا؛ في سلسلةٍ من يأسٍ يتوالد كمجرّاتٍ من التّرف لا تلبث أن تفسح لمجـرّاتٍ أخرى فراغها المُخَلْخَل؛ في سلسلة من الفـراغ يتقوَّض في دويٍّ هـائل يستنهضُ ـ كما يستنهض بوق إسرافيل الآدميين ـ فراغاتٍ عريقةً في ثقلها، أزليّة كوجودٍ من شُبهةٍ يلقيها العدمُ على الصيرورات.

هكذا ستمضي الحيوانات ـ غير الآدمية ـ بعد موتها إلى فناءٍ أبديٍّ يتدرَّج بها إلى أقاليمه الكبيرة الأكثر سحْراً من القيامة ذاتها، لأن الشكل يخصِّص وجوده، آنذاك، بهـالاتٍ من الحِيَل لا تُصـرِّح عن مراميهـا لأيَّةِ بدايةٍ.

لا بداية للحيوان، لذلك يُعفى من المساءلة التي هي افتتاح القيامة من أجل وجودٍ ثانٍ. ومع ذلك تبقى استثناءاتٌ أوردتها الأشباح الثلاثةُ. لكنها أغفلت، على نحوٍ غير مفهوم، ذكر كلبِ «أهل الكهف»، الذي لا ريب في دخوله الجنة بدوره، إذ تمدّد أمام الباب الصخريّ يحرس النائمين فيه أكثر من ثلاثمائة سنة.

ثمت كلب سيدخل الجنة، أيضاً. وقد همست «خاتون» تذكّر زوجها: «أليس من كلبٍ يدخل الجنة، يا أبا البنات؟»، فالتفت «موسى» إلى صهره، متمتماً من تحت نقابه الكثيف: «أتعرفُ كلباً يدخلُ الجنة، يا أحمد؟». فلم يردّ «أحمد»، لأنه بدا متأمّلاً، ثم ارتفع سؤال خجول من حنجرته التي تحتبس الهواء: «إلى أين سنمضي نحن؟»، فجمد «موسى موزان»، وقد امتصّه الظلامُ الذي تحت نِقابه، قبل أن يردِّد كلمةً ذات حروف خشنة: «نمضي؟»، كأنما يستقصي وقعها على مسمعيه، وتطلّع إلى زوجه «خاتون»: «أعلينا أن نمضي؟»، فالتفتت المرأة، تلقاءً، إلى صهرها وقد مطت عنقها من وراء جذع زوجها، تستفهم منه، تحديداً، جواباً على سؤالٍ أطلقهُ هو. لكن صهرها الشاب باغتهما بسؤال آخر: «أين نحن، الآن؟»، وجلس القرفصاء في هدوءٍ ثقيل، مستروحاً عن نفسه من وقفته الطويلة، مضيفاً: «لم نلتق أحداً مّا ذاهباً إلى..» وصمت.

وجومٌ لا يليق بالأشباح خيّم على ثلاثتهم، قبل أن يتململ «موسى» سعياً إلى تبديده: «أنت مستعجل» قال لصهره، الذي ردّ، وهو ما يزال جالساً القرفصاء، بالتفاتة قليلة من عنقه صوب أبي زوجه الواقف كفراغٍ حيٍّ:

ـ أأنا مستعجل؟ وما الذي استعجلتُ فيه؟

«أنت عجول. كنتَ عجولاً دائماً» قال «موسى» مهمهماً، فنهض الشاب على ساقيه مواجهاً الرجل الطويل، وألقى كلماته في عتابٍ صامت:

«ها أنا أسألك بعد ست سنوات يا عمي موسى»، وكاد صوتُه يتهدَّج: «أين نحن، الآن؟ لقد سألتك هذا بعد ست سنوات».

«هذه النعمة كلُّها» تمتم «موسى» بصوت رقيق وهو يشير بيديه إلى العراء، ثم أرخاهما هامساً: «ألا ترى أننا لسنا في أيٍّ مكانٍ، يا أحمد؟».

«لسنا في أيّ مكان؟» قالها «أحمد» مستنكراً. والتفت إلى «خاتون» يستنجد بها: «ألسنا في أيّ مكان يا أم هدلة؟»، ودار من حول نفسه: «هذه الخيام. هذه الهضبة. هذه الجرّافات. هذان المنزلان»، وتوقّف باحثاً عن تأكيد آخر، فتطلع إلى السماء: «هذه الغيوم.. هذه الغيوم..»، وأبدى دهشاً صاعقاً تحت نقابه، فقاطعه «موسى»: ليس مكاناً ما تراه، يا أحمد».

«أهذا ليس مكاناً؟» قالها «أحمد كالو» بصوتٍ مستسلم باردٍ، فردّ حموه: «تطلَّعْ إلى نفسك في بركة ماء الدجاجات، هيا»، ودفعه من كتفه دفعةً هيِّنةً: «هيا..»، فلم يتحرّك صهره، بل تمتم: «تطلَّعت يا عمي موسى. تطلَّعتُ». واستدار إلى الرجل الطويل يكملُ: «لم أر شخصي. أهذا ما تسألني؟ لم أر صورتي».

«لسنا في أيِّ مكانٍ، إذاً»، قال «موسى موزان».

«أأقول لك إنك تبلبلني؟» سأل «أحمد» أبا زوجه، الذي ردّ مستغرباً:

ـ أأنا أبلبلك، يا أحمد؟

فاحتدم الشاب احتداماً فيه خَفَرٌ: «ألا ترى هذا كلَّه؟»، وكاد يركض في الاتجاهات الأربعة ليبرهن على قوله: «ما الذي نراه، هنا، بحقِّ الله؟» وبدأ يخبط الأرض الطينية بقدمه: «إنني أسمع خبطة قدمي، أيضاً، يا عمي»، فردّ الرجل الطويل، الذي التصقت زوجه «خاتون» بكتفه الأيسر: «إنها النعمة يا أحمد. إنها النعمة أن يراك المكان». وصمت برهةً يتأمّل وجه صهره المشتت في ظلّ نقابه: «نحن لا نرى هذا الذي نراه» قال ذلك

مقتربا من صهره الشاب، المغلوب على أمرِ أسئلته الخفيفة: «المكان هو الذي يرانا، يا أحمد»، وكأنما استدرك الجملةَ التي كانت مدخلاً إلى محاورتهما، فتمتم على نحو من يقنع شخصاً مّا بكلامٍ فيه يقين أخير: «حين يتغيّر المكان. . حين. . » وتطلّع من حوله مستجلياً دائرةً كبيرة من ذلك المدى الترابيّ: «نغادر هذه الهضبة حين تتغيّر هذه الهضبة». فقاطعه «أحمد»، بإصرارٍ:

ـ أين نحن، الآن؟

«نحن؟» قالها «موسى» بنبرة ساخرةٍ، مشبعة بهدوءٍ شبح، مضيفاً: «أنت عجول، يا أحمد».

كان نباح كلاب الغجر يتصاعد مع انحسار المطر كلما اقتربت الظهيرة البكماء، المثقلة بغيم كَلُحُفٍ متراصة، فيما انحدرت الأشباح الثلاثة في اتجاه ساحة المنزلين، التي بدت هادئة من أية حركة، كأنما اتفق الأحياء المختبئون في مساكنهم، من بنات «موسى» إلى دجاجاتهنّ، وإوزّاتهنّ، وديكيهنّ، والكلبين، أن ينتظروا هدنة المطر ليتفقدوا الخارج. ولمّا صاروا قرب البئر، تحديداً، تمتم «موسى» متأمّلاً سور الخرنوب اليابس، ذا الرائحة الرطبة: «لماذا لم نسيّج الساحة ببعض الشجر؟»، وأردف يخاطب زوجه«خاتون»: «ألم يكن ذلك أفضل، يا أم البنات، من هذا السور؟».

«أأنت تعاتبني؟» ردّت «خاتون»، والتفتت إلى صهرها، لا إلى زوجها: «أهو يعاتبني؟»، فألوى الشاب عنقه صوب «موسى»، بوجهه الذي لا يُرى، يستوضحه إنّ كان في سؤاله عتاب مّا، فهمهم «موسى»: «لا. لا، يا أم البنات. كنت أتمنّى، فقط، لو ذكرني أحدٌ بإهمالي زرع شجر هنا». وقد كاد «أحمد كالو» يطلق ابتسامةً تعليقاً على كلام حميه، لكنه احتبسها في مكان ما من فراغ شكله الذي هبّ عليه حنين صامت، رقيق، آتٍ من المنزل الشرقي، إذ عبرت خيالَهُ محاورةٌ صغيرة قبل موته، بينه وبين «هبة»

التي سألته: «ماذا يوجد في باطن الأرض، يا أبي؟»، فردّ «أحمد» وبه استغرابٌ:

ـ تحت الأرض؟ الكثير يا روحي. حجر، رمل، ماء، جذور. .

فباغتته الطفلة: «الموتى، أيضاً. كل من يموت يدفنونه تحت الأرض»، فوافقها أبوها مبتسماً:

ـ نعم. الموتى يُدفنون.

«إلاّ الدجاجات. نحن لا ندفن الدجاج»، قالت: «هبة» في مرح، وأردفت: «لا ندفن الكلاب»، فأومأ «أحمد» برأسه إيجاباً: «نعم. ندفن الآدميين، وحدهم، تحت الأرض».

«عندما نموت؟» سألته «هبة»، فردّ: «عندما نموت، يا روحي»، واستدرك: «أتعرفين لماذا ندفن الآدميين تحت الأرض؟»، وقرّبها منه: «لينبتوا من جديد. ألا ترين شجرات العنب؟ جذورها في باطن الأرض، لذلك تنبت». فتطلعت إليه الطفلة عابسة: «لا تمُتْ يا أبي. لا أريدك شجرةً».

ظهر «توسي» و«هرشه» في ساحة المنزلين، أوّلاً، آتيين من زاوية مّا، حين خَفَتَ المطر، أو كاد يتلاشى، متوجهين ـ مباشرةً ـ إلى حيث تقف الأشباح الثلاثة. ولمّا بلغا البئر أقعيا مُهَرْهِرَيْن، فتمتمت «خاتون» مستغربةً: «إنهما يرياننا!!»، فأمسك «موسى» بذراعها، سائلاً بدوره: «لماذا الآن؟». وإذ تقدّم «أحمد كالو» منهما ليسْبر الظنون التي انتابت والدي زوجه، ألفاهما يكادان يتمسّحان به، ففتح ذراعيه منذهلاً: «إنهما، حقاً، يرياننا»، وتحوَّل عنهما صوب بركة الدجاجات القريبة ضاحكاً، ثم حفن بيديه من مائها يرشق به الكلبين، اللذين بوغتا فنهضا واقفين على قوائمهما، ثم نفضا عن جلديهما البلل البارد الذي أصابهما من يديّ «أحمد». غير أن الكلبين تقهقرا، فجاءةً، حين انبرى «جاجان بوزو»، حارس النهر، قادماً من جهة

السفح الشرقي إلى الهضبة، طويلاً كخيزرانته الرفيعة الطويلة في معطفه الرثّ، المسدل فوق شرواله، وعلى وجهه الـرمادي غيـر الحليق ظلٌّ من الغضب. وإذ واجه الكلبين المنسحبين رماهما بعصاه ذات الصفير الجاف وهو يصرخ: «منذ متى تعرفان النباح؟». وقد كاد «أحمد» يوقفه، ليوضح أن النباح قادم من جهة خيام الغجر، لكنه استدرك فأعفى نفسه من محاولـةٍ لا يقـدر شبحٌ عليهـا، فيما استـرسل «جـاجـان بـوزو» في المضي خلف الكلبين. ملتقطاً عصاه كلما رماها، كأنما سيطردهما إلى أفق خلف أنهار الأرض. ولبـرهة فُتِحَ باب المنـزل الشرقي، لتـطل منه «زيـري» بعينيها الشهلاوين، دون غطاء على شعرها، ثم ابتسمت عن غمـازة في خدّهـا الأيسر قبل أن تنسحب إلى الداخل وهي تطبق الباب خلفها. ولو كـانت الأشباح الثلاثة قريبة من العتبة لسمعت الفتاة تتفكّه: «لم يجد جاجان طيوراً اليوم فأتى وراء كلبينا»، وإذا أصغت تلك الأشباح أكثر لبلغ مسامعها صوت «زيري»، أيضاً، تقول: «لا ترخي يديك يا هبة»، وتكون «هبة» ـ بالطبع ـ قد سهت قليلاً عن إعانة خالتها على جعل القماش يمضي مستوياً في الجهة الأخرى من آلة الخياطة التي تدار باليد، والمنصوبة على صندوق بارتفاع شبرين، لا أكثر، ممّا لا يُمَكِّنُ العاملة عليها من الاشتغال بيديها الاثنتين في تسوية القماش تحت الإبرة، فتستعين بشخص آخر، يجلس قبالهـا، من الجهة الأخرى لصندوق الآلة.

أمّا «جاجان بوزو»، الذي عاد أدراجه بعدما أقصى الكلبين إلى ما وراء الطريق الإسفلت، فكانت أعماقه مكشوفة كبـركة مـاء الدجـاجات، تستطيع الأشباح الثلاثـة أن ترى فيهـا الغيوم منحلّةً حـول مغازل السمـاء الباردة. ولو تمعّنتْ في تلك الأعماق، من جهاتها البسيطة، لتتبّعتْ سواقي تخفق خفقاً، وأنهاراً تجري إلى لا مكان، لكنها آمنةٌ إلى رقابته.

وما الذي لا يمكن رؤيته، على أية حال، من أعماق «جاجان بوزو»؟ رجل أعجف لا يخفي جسدُه الهواءَ العابر من خلفه، ولولا معطفه البني،

الداكن، فوق شرواله الأسود، الذي يشدُّه إلى الأرض بالطين الملتصق به، لحلَّق خفيفاً، يتبع غربان الزرع والزرازير. لكنه، بالهيئة التي ابتكرت نفسها شكلاً إنسانياً، كان أشدّ طغياناً من الهواء، ومن النهر؛ عميقاً بفداحة عقد عمره الرماديِّ الخامس، يضرب بعصاه الخيزران كلاباً شفيفة كالنّور من حوله فتتهشم؛ ويضرب كلاباً أخرى ذات أشكال رقيقة مليئة بالماء فينفجر الماء إذ تتهشم أشكالُها؛ ويضرب كلاباً من دخانٍ يترقرق كدخان لفافات التبغ، ثم يضرب الشارع الإسفلت وحوافه الترابية العالية، متجهاً إلى حيث صخبُ الجرّافات الآلية والمداحل، دون أن يقترب منها، وهو يدور من حول نفسه، في حلقة صغيرة، ذاهباً آيباً، يسيل الغضب من معطفه حتى ربلتي شرواله، كأنّما هُتِكَتْ روحه. ولربما تمتم: «إنها تتحصّن»، أو هذا ما يتناهى إلى مسامع الأشباح الثلاثة. لكن جملته، هذه، تتأكد حين يمضي في اتجاه ساحة منزلي «موسى موزان»، ثم يقف في وسطها، متوجهاً بكلامه إلى باب المنزل الغربي الموصد مرَّةً، وإلى باب المنزل الشرقي الموصد مرَّة أخرى، بعينين لا تخفيان ذعرهما: «إنها تتحصّن يا بنات موسى. الملائكة تتحصَّن» مشيراً بيده اليسرى إلى السفح الشرقي للهضبة: «مِمَّ تخاف الملائكة لتتحصّن هكذا؟». ويندفع حتى يكاد يقتحم سور الخرنوب، منحني الجذع من فوقه يستشرف السفح المتصل بالنهر: «لماذا تنقل كلَّ هذه الحجارة البيضاء إلى الجهة الشرقية؟».

التفتت الأشباح الثلاثة، واحدها إلى الآخر، دون فضول يُذكر. فهي التي لم تبارح الهضبة ستّ سنين، والعارفة بالأطياف الغادية والرائحة، والخيالات الأكثر شراهة للنبات، وللنهر، وللطير، وجدت في كلمات «جاجان بوزو» خَبَلاً. فالجهة الشرقية من سفح الهضبة هي معقل الكروم، لا أكثر، وما من ملائكة تنقل حجارة بيضاء إلى هناك، إذ يكفي من يريد حجارة بيضاء أن يقيم في السفح الغربي المتصل بالعراء الكلسي الصقيل. أمّا أن تتحصَّن الملائكة ـ مِمَّ؟ ـ فذلك يدلّ، بحسب ما يرى «أحمد كالو»،

على ذعرٍ كبير يعيشه حارس النهر المسكين: «يا عمي موسى، على أحد مّا أن ينقل هذا الرجل من هنا»، ويمضي متسائلاً: «لو يتخذه أخوك كرمو حارساً لحقول القطن. ما من جرادة، أو دودة، تنفذ من طحْنِه. إنه عين الهواء».

بيد أن «جاجان بوزو» ـ الذي لا يخطىء سمعه لهاث اليرابيع من مائتي ذراع، وتستحوذ عيناه على الممرّات الخفية التي يفتحها الهواء لعبور الطير ـ يتأمّل من حافة السفح ملائكته القلقين ينبثقون من ماء النهر حاملين حجارةً بيضاء يرصفون بها السهل الشرقي، كأنما يجري التمويهُ على المكانِ ليجاريَ الأرضَ الكلسيةَ أسفلَ الهضبة غرباً، في الآن الذي تعود الأشباح فيه صوب الطريق الإسفلت، وهي تشهد صعود سيارات رمادية أنيقة، تتقدَّمها دراجتان ناريتان، يقودهما جنديان يبعثان على الضحك بنظارتيهما الكبيرتين، اللتين تحيط بحوافهما إطارات مطاطية، سميكة سوداء، وعلى رأسيهما قبعتان من جلد بنيّ، لهما زوائد تنسدل على آذانهما.

كان واضحاً أن أمراً ما قد استُكْمِلَ، أو كاد، في جهة الضجيج الكبيرة ـ جهة المداحل والجرّافات التي هدأت، وأن هؤلاء الصاعدين في مركباتهم الآلية، يمتحنون بعيونهم الضجرة، وحركات أيديهم المقتضبة، ذلك المبنى المستطيل ذا النوافذ الكثيرة، والمئذنة القصيرة التي تعلوه، دون أن تشبه المآذن، وإذ ينزلون من سياراتهم بحركات واثقةٍ وأنيقة، يستعرضون الأرض المُمهَّدة بالقار الأسود من الشرق إلى الغرب، في رضى يتدحرج ككُرةٍ من صوف الماعز الخشن تجاوزُ حافةَ الهضبة نزولاً إلى سفحها المشرف على الأرض الكلسية البيضاء.

ثمت أمر استُكْمِلَ في تلك الأنحاء لم تَسْتَبِنْهُ الأشباح الثلاثة، برغم استطلاعها اليوميِّ، ستّ سنين، حركةَ الآلات المتجهّمة والعمال الرّاضين عن طحن مطارقهم للحجارة، وهم يمسحون عرقهم بين الفينات التي

يتأمّلون فيها استسلام الأرض الشعثاء تلك لهندسةٍ ملآى بضجرهم: إنهم، بتحديد بسيط، لم يسألوا عن غاية عملهم، إذ حسبهم ـ كما قيل لهم ـ أن يمعنوا في جعل السهل المترامي مستوياً كظهر جندبٍ، قبل رصفه بحجارةٍ تفرّغها الشاحنات أكواماً ينهالون عليها بالمطارق حتى تتشظّى رقيقةً، ثم تأتي المداحل عليها فتسوّيها بالأرض، قبل أن تأتي شاحنات أخرى تلقي بحمولاتها من الحجر فوق الذي سوَّته المداحل، لينهال الرجالُ المعروقون عليها، من جديد، بمطارقهم يفتتونها تفتيتاً كالحصى.

جولة قصيرة قادت الرجال الأنيقين في ثيابهم العسكرية إلى الجهات الأربع: خطوات هنا وخطوات هناك، لا أكثر. نظرات متفحّصة، وتمتمات ألقوا بها إلى رجال آخرين يرتدون قبعات مدنية، ثم غادروا الهضبة، متأمّلين ـ بابتسامات تحمل وعيد الشهوةِ ـ خيامَ الغجر المتقابلة كأثداء الكلبة، بعدما استفسروا العارفين عن كنهها، وكنه قاطنيها. وقد آوى العمال، ومرؤوسوهم، إلى خيامهم أيضاً، إثر انطلاق سيارات أولئك العسكريين عائدةً شمالاً، فيما بقيت المداحل والجرّافات، وآليات أخرى رابضةً على تخوم الأرض السوداء كأطياف تتهيّأ للطيران بأجنحةٍ من غيم ذلك النهار.

وماذا لو طارت المداحل، والجرّافات، والشاحنات الصغيرة، وسيارتا «الجيب» الخضراوان، والمبنى المستطيل ذو النوافذ المفتوحة على مغاليق الهضبة؟ «فَلْتَطِرْ» سيقول لنفسه «جاجان بوزو»، الواقف في مكان ما قرب ضفة النهر «فلتطر». إنها فرصته أن يجرّب خيزرانته على آلات كهذه، بعدما جرّبها على طيور وكلاب. «فلتطر» يقول لنفسه، ولتكن لها أجنحةٌ كالتي لطيور الرخ. لتكن لها الأجنحة التي تشاء ما دامت لن تنجو من الخيزرانة: ستتطاير عجلاتها، وأبوابها، وأضواؤها، ومقاودُها، وزجاجها، وعوارض جسومها الحديدية، وحديدها، وبراغيها، نوابضها، وأسلاكها الغبراء، ومحرّكاتها، وأنابيبها المستقيمة والملتوية، ومقاعدها الرثّة؛ ستتطاير كأنما يحلجُها الله حَلْجاً كالصّوف على وترٍ مشدود بين الأرض والقيامة.

في هدوء كان على الأشباح الثلاثة أن تنسحب من المشهد هناك، مثلها مثل السيارات الأنيقة التي غادرت المشهد بدورها. وقد بدت، لوهلةٍ، لا تعرف أين تتّجه في تلك الظهيرة الممسَّدة بيد الرماد. ففي حين كاد «أحمد كالو» أن يتوجه إلى السفح المطل على الأرض الكلسية البيضاء، استدار «موسى» و«خاتون» صوب المنزلين، وراء الطريق الإسفلت شرقاً، متقدّمين في تـؤده، وهما يتحادثان همساً تحت نقابيهما المظلمين، فتتبّعها الشاب، آليّاً، مرسلاً بصره إلى الوقائع الصغيرة، الأليفة، التي ستشهدها ساحة المنزلين، والمنزلان: ستختلط الإوزات بالدجاجات، على مضض، باحثاتٍ عن رزقهن على حواف بركة الماء. سيتواثب الكلبان الأصمّان دون سبب ظاهر، مرحين، بأشداقهما المفتوحة. وفي ركنٍ مّا، من غرفة داخلية في المنزل الشرقي، سيرتفع بخار قويٌّ من القِدْر الضخم الذي سخن الماء فيه على الموقد المؤجَّج بالروث اليابس، والعيدان، بعدما حملته إلى هناك، من مقابضه النحاسية الأربعة، ثلاثُ من بنات «موسى»، تمهيداً لاستحمامٍ تفتتحه، عادةً، «هبة» و«ستيرو» معاً.

ستقف ابنة «أحمد كالو» عارية في طشت كبير من التوتياء، فيما ستغرف خالتها العارية، بدورها، الماء الساخن من القِدْر بطاسةٍ تدلقها على قمة رأس الفتاة فتشهق صارخة: «أنت تحرقينني» وترقص من ألمها.

إنها المشادة الساخنة كالبخار الساخن، كل خمسة أيام: طاسة من الماء المغلي، لم يجر خلطها بماء بارد لتخفيف لذْعها، تندلق على رأس الفتاة الصغيرة، أولاً، عن قصدٍ ربّما، فتشتعل الغرفة الداخلية بصراخها: «إنها تحرقني. ستيرووووو..»، فتتأفّف «ستيرو»، بعدما تكون استنفدت ما في طاستها: «قولي إنه ساخن، يا بنت، لأخفِّف من سخونته»، وتتراجع إلى الوراء قليلاً تتأمّل ابنة اختها التي ترفع ساقاً وتضع ساقاً كما يفعل اللقلق، تعبيراً عن سخطها، ثم تتمتم: «من أين لك هذه العظام الخشنة؟» مردفةً: «ماذا تأكلين لينمو عليك هذا اللحم؟ «وتقرصها من ردفها، فتجلس

الفتاة القرفصاء في الطشت، متكوّمة على نفسها وهي تكاد تبكي: «لو نزل عليك هذا الماء ياستيرو لذابت عظامك»، فترد خالتها: «لماذا لم تجلسي هكذا، في الطشت، من قبل؟ كنتُ تداركتُ أن يكون الماء ساخناً إلى هذا الحدّ»، فلاتفهم الفتاة الصغيرة تبريرات خالتها قط.

غير أن «هبة» تتعمَّد، بدورها، تناسي خلط الماء الساخن بالبارد، فتدلق طاساتٍ حامية على «ستيرو» التي تطيش أعضاؤها من اللَّذع وهي جالسة القرفصاء، منطوية الجذع كأنما تداخل بعضه في بعض، لتُمكِّن ابنة أختها من إعانتها على الاستحمام ـ فتنهض بطولها الفارع، نابضةً نَبْضاً وسط رغوة الصابون المنتشرة كثيفةً على جدائلها الذهبية: «ماذا تفعلين بي يا ابنة أحمد كالو؟»، فتتراجع الفتاة الصغيرة خوف أن تبلغها ذراع خالتها بلطمة على جلدها العادي، وهي تخفي تشفِّيها: «ألا يجعل الماء الساخن شعرك أشدّ شقرة، يا. . »، وتقطع جملتها في تظاهرٍ بالسذاجة تحت تحديقٍ من عين واحدة تفتحها «ستيرو» على ابنة اختها، فيما تبقي الأخرى مدفونةً في الرغوة البيضاء: «هكذا، إذاً؟ . » تتمتم الشابة الطويلة، ثم تنفخ على الفقاعات التي تنحدر على أنفها، هامسةً: «لا تكرّري سلخ جلدي» في وعيد واضح.

هكذا، مشاهد صغيرة، أخرى، ستتبدّى لعيون الأشباح الثلاثة، في بقية نهارهم ذاك. لكن الذي لم يكن أليفاً، للمرّة الثانية، هو أن «هبة» التي خرجت من المنزل الشرقي، حين جاوزوا البئر في اتجاه سور الخرنوب، بدت مبتسمة وهي تتجه ببصرها إليهم، كأنما تتأملهم في وداعة لا مفاجأة فيها. وكان حسبهم، من قبل، أن الكلبين «توسي»، و«هرشه»، عمدا إلى الحركة ذاتها، مقتربين من «أحمدكالو»، الذي رشّهما بحفنات من الماء. غير أنها، إذْ قاربتهم، توقفت صامتةً، بذراعيها الطويلتين المرتخيتين على جانبي ثوبها السميك ذي التخاريم السوداء، المتدلّي فوق سروال طويل تختفي أطرافه السفلى داخل عنقي حذائها المطاطيّ الطويلين، فيما حرّكت

نسمة خفيفةٌ جديلتيها المفكّكتين فتناثرت زوبعة خرنوبية اللون، من الشّعر، حول وجهها الوديع، لتضفي إشراقةً غامضة على عينيها الشهلاوين وهما تفتحان المنافذ الأكثر فتنةً في الأشكالِ، أبعد مِمَّا يُدْرَك، وأقلَّ من حقيقةٍ سهلة على مرمى إدراك إنسانيّ.

دمدمت «خاتون نانو»، محدّقة في حفيدتها: «أظنها ترانا»، وأمسكت ردْن الملاءة المسدلة على هيكل زوجها:«أهي ترانا يا أبا البنات؟» قالتها بصوت شابته غرغرةٌ من التأثر. لكن «هبة» استدارت فجاءة، قبل أن يبدي «موسى» جواباً، متجهة بالكيس الصغير، الذي لم تلحظه الأشباح الثلاثة في يدها اليسرى، صوب قُنّ الدجاجات، حيث نثرت على المكان فتاتاً من الخبز اليابس، وهي تُحدثُ صوتاً كالقأْقأةِ، فانفجرت الجهاتُ الساكنة متفتّحة عن كُراتٍ من الريش تدحرجت في اندفاع طائش قادمة من الزوايا، ومن داخل القنّ، ومن فوق سور الخرنوب، ومن حواف الهضبة الأبعد، ومن باطن الطين أيضاً حيث خرج الديكان «بَلَكَ»، و«رش» كأنما كانا يرقدان في العماء الأعمق للأرض، حيث لا يصلهما مطر، مرتفعين أشباراً عن الأرض يسبقان الدجاجات الشبيهة بكراتٍ من ريش أطلقها المكان من المكمن الأكثر تهتُّكاً في غرائزه. حتى أن الكلبين الأصمّين تقدَّما هرولةً صوب «هبة» ـ مندفعين بالشهوة ذاتها التي صفّقت بيديها للدجاجات ـ يبديان مشاركة حيوانية، لأنهما لن يأكلا ذلك الخبز قطعاً، ثم توقفا قرب الفتاة الصغيرة يلهثان، من أشداق يسيل لعابها، مسبقاً، على عظام قد تلقي العشيةُ بها إليهما، حين يكونان وحيدين في الساحة الوحيدة، قابعين في صمتهما ذي الوبر الخشن كوبرهما، هنا أو هناك، لاجئين من المطر إلى فجوات في سور الخرنوب مثل الإوزات. لكن سيتعين على من تلقي بالعظام إلى الساحة أن تبحث قليلاً عنهما ليرياها، فيتسنى لهما، آنذاك، اتخاذ التدبير المحْتمل، ما دام سمعُهما لا يسْعفهما، وكذلك الشمُّ الذي يفتقدانه.

كـان المشهد البـاقي من ثلث ذلك النهـار مقسّماً بين نبـاح كلاب الغجر، وانقلابات في الغيم، وانحدار آليات قليلة من الهضبة صوب بلدة «القامشلي»، وبوق سيارة «نعمان». ولمّا كان المساءُ ـ الذي أوفدت بنات «موسى» في أوّله حفيدته «هبة» إلى المستأجرين تسألهم إنْ كانوا يريدون عشاء ـ اتجهت الأشباح الثلاثة إلى الأرض الكلسية، وسط محاورات خفيفة كلفافاتٍ من تبغ مشتعلةٍ في عتمة بعيدة، تتأجّجُ كلّما اسْتُنْشِقَتْ، ثم تخبو: لقد كان «أحمد كالو» يلقي أسئلة خافتة على أبـي زوجه:

ـ لماذا لا نبقى قرب المنزلين، هذه الليلة، يا عمي موسى؟

«ليس مُرضياً أن نـرى كل شيء يـا أحمد» قـال «موسى»، فهمهم «أحمد كـالو» بصوت خفيض وهو يسدل نقابه على وجهه، بعـدما نـزح قليلاً، في الظلام الذي لا يرى عينيه، ولا تراه عيناه:

ـ الموتى يرون كل شيء يا عمي موسى.

«لا» قاطعه الرجل الطويلة، ناظراً إلى موطئَيْ قـدميه في انحـداره السفحَ، وكرَّر: «لا، يا أحمد. إنهم يحفظون للأحياء بعض مستورهم، ليحفظ الأحياء، حين يموتون، لأحياء آخرين بعض مستورهم»، ودمدم من حنجرة تحبس الكلام فتهمسُهُ: «إنها هدنة الله». وقد سكت «أحمد» قليلاً، يتفكَّر ـ ربّما ـ قبل أن يسترسل من جديد:

ـ ألم يرَ الموتى، الذين سبقونا، كلَّ أفعالنا؟

«أأنت تجدّف، يا أحمد؟ هل رأينا، نحن، كل أفعال ساكني هذه الهضبة، مثلاً؟»، فردّ الشاب:

ـ نستطيع ذلك، إذا أردنا.

«لكننا لا نريـد» أجاب «مـوسى موزان»، وأردف: «مـاذا يتبقّى من سِتْرِكَ أنت إذا جعلت الأحياء مكشوفين لنفسك؟»، ثم توقف عن المشي،

متأمّلاً الأرض الكلسية أسفل السفح، وهزَّ رأسه: «لقد بدأ الضجيج».

كان البياضُ المترامي، الذي لم يستطع الليل إغواءه، يموج مستيقظاً من سباته النهاريّ، غير ممْسوسٍ بالشبّاك القوية للغيم ذي الطبقات. فالأرض الكلسية، المتلألئة تحت ضوء منبعث من فتنتها، استقلّت عن المكان، بحدودها المحفورة في ظلامٍ متوهّج يبدو الغيم من فوقه مرتبكاً، كأنما يجاهد أن يتفادى البقاء، ولو للحظاتٍ، على علوٍّ منه. لكن القلق ذاك، على أية حال، لم يكن يمنع الغيم المفتون بيقظة الخريف النهم عن التمادي في استعراضه الأنثوي، عالياً، بأثلامه الكبيرة، وعَطفَاته التي أثقل عليها اللون المحتدم فَعَرقت عرقاً بارداً. وكان، إذ يتبدد بعضه عن بعض أحياناً، يشهق شهقاتٍ خفيفةٍ إيذاناً باندفاع موجاتٍ جديدة من تلك الكائنات الأكثر خفّةً، من خلاله، متجهة من السماء إلى الأرض الكلسية، وهي تبتسم عن أسنان من الذهب تتوهّج كالحُباحب في الظلام، أما جسومها فكانت فراغات محضة، تخلق دوائر فضيةً في طيرانها، وتتكلّم كلاماً أنيساً، في صخبٍ كالمشاجرات: «لماذا لا تسكت بنات آوى، هذه؟ ألا تبرد؟»، دون تعيين الجهة التي تسمع منها أصوات بنات أوى.

«لم هي صاخبة، هكذا، كائنات الله هذه؟» تسأل «خاتون» شبحيْ زوجها وصهرها، فيردّ الأخير: «إنها العجلة، يا أم البنات. الوقت ضيقٌ»، فتهمهم المرأة مستوضحةً: «أيّ وقتٍ تعني؟ الوقت تدبير من تدابير الأحياء».

«ولمَ هم مستعجلون، إذاً؟» يواجهها «أحمد» باستفسار، فيتأمله «موسى»، من سَمْتِهِ: «إنها خاصّيتهم يا أحمد، وهم مدفوعون بنفخ من الله على الجهات كلها، في آن واحد». لكن «أحمد» يلقي إلى أبي زوجه باستفسار آخر، على بداهته: «لماذا ينهى أحدُنا الآخر عن العجلة، إذاً؟».

«حتى لا نتشبّه بكائنات الله المقرَّبة هذه. حتى نبقى أرضيين، يا

أحمد»، يردّ «موسى» كمن يحسم المحاورة، التي لا يحسمها «أحمد» بسؤاله الجديد:

ـ أنحن أرضيّون، الآن، يا عمي موسى؟.

كانت كائنات الله الخفيفة، الطائرة، أُوْلاتِ الجسوم التي لا كثافة فيها، لا تصغي في عجلتها إلى محاورات «موسى» وآلِهِ، بل تقتلع الحجارة البيضاء بآلات لا تُحدث صخباً، ثم تعلو بها متجهة إلى شرقيٍّ الهضبة. أما النهر فكان أشبه، في الليل، بحنشٍ فضّيّ مشدود برسن يجعل ماءَهُ يتقلب كلَّما شدَّته اليد الخفية لعراء الكلس، ثم يتلوى، ويختضّ، ويتشقّق سائلُهُ العكر فاتحا مسارب من الأعماق إلى الهواء يصعد الطينُ منها على هيئاتٍ شتّى، رشيقةٍ، تتراكض من حول الضفتين وهي تحمل خيزراناتٍ من نور، وتُجرجر من أخلافها سلاسل من نور، ولها طنين مدوِّم كأن مخاطباتها تصطدم بقشور تُغلِّف جسومها الشاحبة، فترتجُّ كجلودٍ مشدودة إلى أقصى احتمالها.

تلاشى، في الفجر، كل أثر للصخب الذي أشار إليه «موسى موزان»: عادت الغيوم أكثر سكوناً، صقيلةً في كمالها الرماديّ، وهدأت كلابُ الغجر التي سهرت معظم الليل. وإذْ تمكن ضياءٌ واهنٌ من بلوغ أنحاء الهضبة، فُتح باب المنزل الشرقي لتخرج منه «هبة» إلى الساحة، راكضة وراء إحدى الدجاجات تقتنصها للغداء. ثم كان ما كان من خروج المستأجرين من المنزل الغربي، في صباحهم الأول هناك، ومحاوراتهم الخفيفة مع «هبة». وكذلك خروج الشقيقات، بنات «موسى»، إلى سعيهنّ في ضفة النهر.. إلى آخره. أمّا الساحة الكبيرة وراء المبنى ذي النوافذ التي لا تحصى، في العراء الذي سوّته المداحل ورُصِفَ بالحجر وبالقار، فقد شهدت تجمّعاً للمركبات الحديدية الثقيلة، وسط طنين العمال الكثر، المجتمعين حلقات من حول مداحلهم، وجرّافاتهم، وشاحناتهم الصغيرة المهترئة، كأنما أُنْجِزَ المأمولُ، وصار الجميع على أهبة المغادرة.

مضت ساعتان أو أقلّ ربّما، والآلات الجهمة والعمال ينتظرون، قبل وصول ثلاث سيارات صغيرة، داكنة، ترافقها ناقلة جند ذات هيكل من الخيش يحيط بعوارضها العالية من الجانبين، ومركبتا «جيب»، ودراجتان ناريتان. وبعد محاورات مقتضبة بين رجال مدنيين وعسكريين فرنسيين، صعد العمال إلى شاحناتهم، والسائقون إلى مداحلهم وجرّافاتهم، لتتقدّمهم إحدى السيارات العسكرية، وتلحق بهم الأخرى، منحدرين الهضبة في اتجاه بلدة «القامشلي». أما العسكريون الأنيقون، والمدنيون ذوو القبعات والمعاطف الخفيفة، فقد اتجهوا إلى المبنى الرمادي، ذي المنارة القصيرة، المفتوحة في وسطها على الجهات كلها.

غرْبانٌ قليلة ألقت نظراتها الحديدةَ على القافلة في اجتيازها الجسر، شمال الهضبة، حيث المنحدر السهليّ الذي ينبسط ـ فيما بعد ـ كسطح قبّعة، وكانت تنعق نعيقها الاستعراضيَّ من الأعالي المنخفضة، ليسمعها «جاجان بوزو» من مكان مّا على ضفة النهر، بين القصب العتيق أو العراء الطيني. وهي لم تغفل، بالطبع، في اندفاعها شرقاً بأجنحتها الملولة، من أن تعاين تلك الصُّبيّة الصغيرة، الراكضة في محاذاة مجرى النهر صوب القافلة، بخطوات متعرّجة بحسب تعرُّجات المجرى، قافزة بين حين وآخر كالجندب لتتلافى الأمكنة الزَّلِقة من الأرض، وكذلك البِرَكَ الجانبية التي تموِّهُها الأعشاب. وكان في مستطاع تلك الغربان، أيضاً، أن تلمح الأشباح الثلاثة، بملاءاتها المسدلة على وجوهها، واقفة قرب الجسر، متجة بعيونها الخفية إلى «هبة» اللاّهثة كأنما يعينونها، بأعماقهم الأبويَّة، على طيرانٍ خفيضٍ يجمع الهواء ـ رويداً رويداً ـ تحت سترتها المخمل، ذات التطاريز، لتنبسط من خلفها كذيلٍ قصير، لكنه عريضٌ أسود، كذيل بطّة نهرية، قويٌّ في احتماله. وفي برهاتٍ أخرى، حين صارت الفتاة الصغيرة إلى الطريق التي تسلكها القافلة، كادت «خاتون» أن تبدي صرخة مكتومة وهي ترى «هبة» تستل حجراً من الأرض وتتوعّد به جنديين في «جيب»

عسكريٍّ باردٍ: «ماذا تفعل البنتُ؟» سألتِ الرجلين دون التفاتٍ إليهما. ثم هدأت أنفاس الثلاثة من الإثارة التي لم تكن تليق بأشباح، عندما توقفت ابنة «أحمد» عن الجري، ليسقط الحجر، بعد ذلك، على الأرض من بين أصابعها المرتخية في استسلام طفوليٍّ. وإذ استدارت عائدةً أدراجها صوب الهضبة، خيّم عليهم ظلٌّ مطمئنٌّ من الغُيُم غير القلق في لحظاته تلك، فيما انبعث من سكونهم صوتُ طَرْقةٍ خفيضة استقصاها «أحمد كالو»، كأنما بوغت، فألفى سبحة في يد «خاتون» تصادمتْ حبّاتُها المعقودة من نوى الزيتون، فساءلها:

ـ منذ متى تحملين سُبحة، يا أم البنات؟

«هذه السُّبْحة؟» قالت المرأة مستغربةً، وأضافت: «كانت معي، دائماً».

«ولماذا تحملينها؟»، سألها «أحمد»، فبوغتت «خاتون» لبرهة، ثم التفتت إلى زوجها مستنكرة: «ما به زوجُ ابنتك؟»، فالتفت «موسى»، بدوره، إلى صهره: «ما بك يا أحمد؟»، فردّ صهره ردّاً فيه توضيح لسؤاله: «أتحاول أمّ البنات إخافةَ أحدٍ ما؟»، فقاطعه «موسى موزان»: «أإذا سبَّحتِ الله قصدتْ إخافةَ أحد؟».

«نعم» قال «أحمد كالو»، هامساً.

«مَنْ؟» سأله «موسى» هامساً بدوره، فردّ صهره: «لا أعرف».

«أنت عجول، يا أحمد» دمدم «موسى» من وراء نقابه، بصوت عميق، وهادىء، فأجابه «أحمد»: «العَجَلةُ من خصائص كائنات الله المقرَّبة»، فواجهه الرجل الطويل ممتعضاً:

ـ لكنك أرضيٌّ يا أحمد، وفي عجلتك استهتار بالنعمة.

«انظرا» قاطعتهما «خاتون»، ثم أضافت محدقة في حفيدتها المتجهة

صوب الهضبة: «ما الذي تفعله هبة؟».

كانت «هبة» قادمة في اتجاههم، وهم وقوفٌ على حافة الجسر الصغير، عامدةً بإيماءاتٍ من يديها إلى أن تحفن ماءً خفياً ثم تنثره على الجهات، كمن يمازح شخصاً فيرشُّه ليبتلّ. ولمّا قاربتهم ازدادت سرعةً في لعبها: تغرفُ الماء وترشُّهُ، منحنيةً على الأرض، ثم لا تلبثُ تستقيمُ، ضاحكةً،حتى ظنت الأشباح الثلاثة أنها تداعبهم، فعمدوا، بدورهم، إلى رشقها بحفناتٍ من مياه لا تُرى، بحركاتٍ تنمّ عن لعِبٍ فاضح. لكن البرهة تلك لم تَطُل، إذ حادتْ «هبة» عنهم، ثم جاوزتهم، ناظرة إلى جهات أخرى وهي على حالها ترشق الماء شرقاً وغرباً، وإلى أعلى، كأنما تمشي في مجرى خفيٍّ، تفرَّع عن النهر، ليعبَر الجسر من فوق، دون ضفتين، خفيفاً كأثير. وكانت تعمد، أيضاً، إلى إبداء حركاتٍ كأنما تغسل رقبتها، وترشّ وجهها، مغمضة العينين حتى لا تبتَلَّ، ثم تغسل فخذيها، وصدرها، مقهقهةً: «كلّ هذا الماء. . تعالي ياستيرو».

الفصل الثالث

كمائن الفراغ

قويَّةً تصادمتِ الأجنحةُ الأربعةُ بظلالها المنعكسة على طبقة الطين، فيما اشتدَّ الألقُ الغاضب التماعاً في العيون الأربع التي لم تستطع طبقةُ الغيم الكتيمةُ أن تخفّف منه، في ذلك الصباح الشاحب. وفي خفَّةٍ تواجهت مخالبُ موحلةٌ في الهواء، أعلى من رأسَيْ الديكين «رَشْ» و«بَلَكْ» ذَوَيْ الحنجرَتين المدرَّبتين، بجسارتهما الحيوانية، على مراوغاتٍ في الصوت تخفي حقيقة ألمهما، كأنّما ارتطامُ أحدهما بالآخر، في علوٍّ أشبارٍ عن الأرض، استعراضٌ لونيٌّ يوفّره الريشُ الْمُسْتَنْفَرُ حول رقبتيهما، وفي أعلى الصّدرين.

تخرَّمت الحلبةُ الطينيةُ الصغيرة تحت مخالبهما، وتحرَّثَتْ خطوطاً ودوائر وأحافيرَ من تشبُّثِ أرّجلهما بالأرض ليتوازن جسماهما المتعاركان، برهةً، قبل أن يتقافزا في ضجيجٍ ينفخه الوحلُ إلى أعلى، مع الريش المتناثر من الذيلين. وفي دورانهما، أحدهما من حول الآخر، لم يغفلا عن الأشباح الثلاثة التي اقتربت من ساحة المنزلين، ملتفّةً بملاءاتها السميكة من رؤوسها حتى ربلات سيقانها. غير أنهما عاودا العراك، غير آبهين إلاّ بالمشهد الذي ترسمه أعماقهما المفتوحة كعبثٍ شبيه بعريشة العِنب العالية في ساحة منزل «كرمو موزان»، جنوبيّ بلدة «القامشلي»، حيث الموئل الذي تحدَّرَتْ منه سلالةُ الدّيكين، أباً عن جدّ، وأُمّاً عن جدَّةٍ، قبل أن يتبرع «كرمو» ببعض تلك السلالة لعائلة أخيه، إثْرَ مجزرة حقيقية أتت فيها الثعالب على دجاجات بنات «موسى»، في غفلةٍ ليلية من الكلبين «توسي» و«هرشة».

فجرى، بعد ذلك، دَعْمُ سور الخرنوب بأكوام إضافية من الأغصان، وتضييقُ باب القنّ، وتعديلُ منافذ ساحة المنزلين، المفتوحةِ حُرَّةً على ثلاث جهاتٍ وربع جهة، بحجارة مُشَتَّتة، وفخّين نصبهما السائق «نعمان» دون تعيين، مع تحذير البنات من وطْئهما. فيما نال الكلبان ركلاتٍ من الجميع، ولعناتٍ كانت حَرِيَّةً أن تقشعرّ منها عِظَام اللبونات جميعاً، المطحونةُ منها والتي لم تزل صلبةً ملقاةً في الجروف تتناول عليها الحرآت.

لهاثٌ كثير أُهرِقَ على الأرض الطينية، من بركة الدجاجات حتى الركام الترابي على حافة الطريق الإسفلت، لكنه لم يُثْن قلبي الدِّيكين المرتجفين من المضيِّ بخيُلاءِ فِطْرتهما إلى أقصى ما في لعبهما القاسي من عراكٍ، طائرين أحياناً كأنهما تحرّرا من الحكمة الغامضة التي جعلت نوعهما عَصيًّا على الطيران، مرتطمين ارتطاماً أعمى كجمادٍ يكاد يتصدّع. وهما يلقيان، في حالهما تلك، نظراتٍ جانبية من عيونهما التي تحذرُ الخديعةَ، على بعض ريشهما، دون أسفٍ، لأنه ريش لم يستطع، بخصائصه التي لاتختلف عن أي ريش آخر، أن يوفّر لهما نزوعهما ـ كفصيل من الطير ـ إلى مجاراة الريح في حذاقتها كمُهرِّج.

عُرْفُ الديك « رشْ» كان الأكثر ارتطاماً بجانبي رأسه، بسبب طوله وتَهَدُّلِهِ، لذلك دأبَ، بعد كلّ انقضاض، إلى أن يهزّ رأسه هزّاً قوياً، كأنما يطرد ذبابةً لحوحة، ليتسنى له النظر بجلاءٍ إلى «بَلَكْ» ذي العُرْف القصير، والمنقار المفتوح من الهياج عن لسانٍ نَضْنَاضٍ. كما كان «رشْ» أقلّ دوراناً في الحلبة من خصمه «بَلَكْ» المُتَحيِّنِ، الكثير الدوران من حوله، وهو يقرفص ثم يستقيم، على نحوٍ سريع ومضحك، موهماً «رشْ» بانقضاض وشيك من الجهات الدائرية في محيط عراكهما الدائريّ. لكنهما نَقَضا استرسالَهما الغاضبَ للحظات لم يقدِّراها، حين اقتربت منهما حفنةُ ظلالٍ، أو هكذا بدت في انعكاس هيئات آدمية على الأرض البليلة، لأن السماء ذات الغيم الكَتِيم لم تكن لتسمح ـ على أيِّ وجهٍ ـ أن تكون للظلال

سطوتُها في تلك الأنحاء. وإذْ جاورتهما تلك الشخوص، ـ التي كانت امرأتين ورجلاً، يتبعهم كائن مُغرقٌ في انحنائه تحت أحمال عظيمة، يخفيه معطفُه السميك ونقابةُ المسدل على وجهه ـ توقفتْ ناظرةً إلى الديكين في وداعة، قبل أن تهمس المرأة ذات العينين اللتين لا يُرى لونهما إلى الأخرى: «إنهما مهرِّجان». ثم تابع الجَمع الصغير طريقه إلى المنزل الغربي في في الساحة، لتدفع «كليمةُ» بابه في رفقٍ فينفتحَ على ظلام الدّاخلِ الرَّقيق.

كمن يعرف المنزل، ذاك، تقدَّم «مكين» بعد دخول أخته، مشيراً على مَنْ من يسمونه «كلباً» أن يضع الأحكال في إحدى الزوايا، قرب عمود منتصب حتى السقف، بدت مهمّتُه كمهمة مشجبٍ، علَّقتِ العائلةُ إلى مسامير ضخمة فيه أَجْرِبَةً، بعضها من الجلد، وبعضها الآخر من الصوف، تحفظ فيه الخبز، والملاعق الخشبية، والخِرق، وكرات الخيوط، ومخدّات في حجم الكفّ مغروزة بالإبر، إضافة إلى أشياء أخرى تعرفها الشقيقات الثلاث: «جملو» و«زيري»، و«بسنة»، اللواتي تَقطُنَّ المنزلَ الغربي. وحين أنزل المدعو «كلباً» أحماله إلى الأرض اتّكأ بظهره إلى الجدار من التعب، ثم انزلق حتى جلس على الأرض مطرقاً، بينما توجَّه «مكين» إلى مسطبة عالية غطتها زرابية مخطَّطة، فجلس عليها، قريباً من الموقد الخامد، البارز من الجدار، قبالة أختيه اللتين جلستا على مخدّات أرضية.

«لماذا اخترنا هذا المنزل؟»، كانت تلك هي الجملة التي قطعت صمتهم مُذ دخلوا المنزل ذاك، وهم لم يلتقطوا أنفاسهم بعد، فدمدم «مكين»، محدّقاً في أخته «كليمة» ـ صاحبة السؤال: «أفي كل مرّة نختار مكاناً، على أحدنا أن يسأل لماذا اخترناه؟»، ثم مدَّ ذراعه، مشيراً به إلى الجهة الشمالية: «إنه بين أشجار التوت، منذ ست سنين وهو بين أشجار التوت».

«هُوَ..» تمتمت «نفير» بما يشبه الاستياء، مضيفة: «أعلينا كل ست سنين أن نحرِّر مخلوقاً نارياً من كهفه؟»، ونفخت من فمها في لوعةٍ خفيفة:

«لماذا لا يستطيع هؤلاء الأرضيون إنجاز سواقي المياه في السنة الأولى لنشوء مخلوقاتهم النارية؟»، وفتحت يديها كمن يحمل طِسْتَ ماءٍ يهمّ بإدلاقه: «قليل من الماء وتبقى تلك المخلوقات أسيرة في كهوفها، إلى الأبد، لكن هؤلاء الأرضيين لا ينجزون شيئاً».

«لا تقولي ذلك»، قاطعتها اختها «كليمة»، وتطلعت إلى أخيها الجالس في صمت: «هؤلاء الذين التقيناهم. .»، وأشارت بإصبعها إلى الخارج: «موسى، وصهره، كادا أن ينجزا المجرى المائي». لكن «نفير» اعترضت توضيح أختها بسؤال مُقْلِق، في غير سياقه:

- لماذا تكتمل المخلوقات النارية في ست سنين؟

«أعطاها الله خصيصةً هي من خصائص الخَلْق في مراتبها السادسة»، قال مكين».

«ونحن؟» سألته «نفير» مبتسمة، فابتسم «مكين» لسؤالها: «نحن لنا خصيصةُ المطاردة في اليوم السابع، يا أختي»، وأنزل قبعته المضلّعة الحواف عن شعره الرمادي الطويل: «أن نطارِد، يا أختي، أن نطارد. تلك خصيصة من خصائص الرحمة».

«وماذا لو لم تكن هنالك مخلوقات نارية، يا مكين؟»، سألته «نفير»، فردّت «كليمة» في إهمال: «كنتِ ستطاردينني، أو يطاردك مكين، على الأرجح»، فعبس «مكين»، مبدياً استياءً خفياً: «يبدو أننا نبالغ في شططنا»، وأشار بيده من جديد إلى الجهة الشمالية: «إنه هناك، وعلينا أن نخرجه إلى مهمّته».

«ألا نستطيع أن نفترض شيئاً مّا كالذي قالته نفير؟»، سألت «كليمة» أخاها في دعةٍ ظاهرةٍ، فردّ «مكين»: «نعم. في اليوم السابع وحده نقدر على تقديم افتراضات، فيما ننجز الذي ينبغي أن ننجزه»، وأردف، في هدوء: «المكان هادىء، هنا»، ثم ابتسم يبدّد الجوَّ الثقيل الذي خيم على

حواراتهم، فتمتمت «كليمة»: «نحن؛ أنا ونفير ، علينا أن نختار الجهة التي سنعمل منها»، فقاطعها «مكين»: «لقد اخترتماها. كل مرَّة اخترتما مكاناً فقدنا واحداً منا، ولكني قبلت أن تختارا، هذه المرّة أيضاً»، ثم ضحك: «ربما تريدان التخلّص مني»، فاحتدمت «نفير»: «لم نعد نعرف مَنْ الذي يختار»، ثم نهضت واقفة، فنهضت اختها، كما نهض «مكين»، بدوره، واضعاً قبعته على رأسه، كأنما يهمّون بالدخول في مشادة، قبل أن يسترعيهم دخول بنات «موسى موزان» إلى الغرفة، مدهوشاتٍ.

بعد مجادلات قليلة استأجر «مكين» وأختاه المنزل الغربي من عائلة «موسى»، وما أن خرجت الأخوات الخمس، و«هبة» من المنزل حتى عمد النُّزلاء إلى ترتيبٍ أضفى معالم أخرى على صحن الغرفة الأمامية، إذْ راكموا أوراقَهم وقواريرهم، التي أخرجوها من لفائف الأمتعة، ومدّوها على المساطب العالية، من جهات ثلاث، ثم أخرجوا جلوداً مستطيلة، عليها رسوم لا تنتهي، فبسطوها على الأرض، في المدى الذي يُمَكِّنهم من تأمُّل خطوطها، ومناسِكها الظاهرة، فيما رفع رابعهم ـ حاملُ الأمتعة ـ سراجاً ضخماً من النحاس البراق، أعانه الرجل وأختاه عليه، فربطوه إلى حبل أسود يتدلّى من خشب السقف، مخصّص لذلك، لم تستعمله بنات «موسى»، مكتفيات بوضع سراج صغير في كوَّة من الحائط، إضافة إلى مصباح صلصاليٍّ مليء بالشحم، كنّ يصطحبنه إذا انتقلت إحداهن بين الغُرَف. وبعد حين علّقوا إلى الجدار الجنوبيّ سجادة ضخمة، تشكِّل رسومُها مشهداً مفتوحاً على فراغٍ قريب، تنهض فيه أشجار متقابلة، تبرز من بين ورقها عيون، وثمّت جسد مسجًى على امتداد صفّي الأشجار، إضافة إلى غرابٍ، أكبر حجماً من رجل واقف قرب الميت المسجّى ذاك، يكاد ينقر ورقة طائرة في الهواء عليها رسم ميزان. أما الفراغ الأبعد في مشهد السجادة فكان مشهد أرض بيضاء، صقيلة دون تضاريس من شدّة بياضها، لكنَّ تحديقاً صارماً سيكشف للناظر أن ثمت أجنحة، غائمة جداً في ذلك

الفراغ المُهْرَقِ إلى لا نهايةٍ، تعبر السجادة من جهة إلى جهة، حيَّةً متحرِّكة كما لو أن البياض الصقيل زجاجٌ والأجنحة تخفق من ورائه خَفْقاً يُسْمع في أنحاء تلك الغرفة الواسعة، أنيساً، يواكب حركةَ المستأجـرين في ترتيب إقامتهم. وقد عمدت الشقيقتان «نفيـر» و«كليمة»، إثـر ذلك، إلى تعليق سجادة أخرى على الجدار الغربي، موشومة برسوم، أيضاً، لامرأة ورجل عاريين، وأفعى طائرة لها وجهُ آدميٍّ لا هو ذكـرٌ ولا أنثى، رقيق، مطمئن كَمَنْ استيقظ توّاً بعد نوم رخيٍّ.

لم يبدُ على الأربعة أنهم على عجلة من إنجاز أي عمل آخر، بعد الترتيب الصغير لمعالم شاءوها في الغرفة. فقد انسحب حمّال الأمتعة إلى رُكْنٍ، وجلست الشقيقتان على الأرض، ثانية، في مواجهة شقيقهم الجالس على المسـطبة، وهـو يتأمّـل يديـه في استغراق أثـار فضـولهمـا: «أتقـرأ خطوطهما؟» سألته «نفير» متفكّهةً، فهزَّ الرجل رأسه نَفْياً دون أن يرفع عينيه عن اليدين المبسوطتين بظاهريهما تارةً، وبباطنيهما تارةً أخرى، قبـل أن يتمتم: «من أين جاء هذا الشحم الأسود؟»، ومدّهمـا يُرِيْ أختيـه ما علق بأطراف أظافره، وأخاديد الجلد في أصابعه، من شحم يَعْلَق، عادة، بأيدي من يشتغلون على تصليح المركبات الآلية. وعاد فرفع يديه إلى منخريـه يشمّهما: «رائحة زيت معدني» همس، وتطلع إلى الأنثيين: «أبين أمتعتنا زيوت، وشحوم؟»، فهزّتا رأسيهما نَفْياً.

لا يتذكر «مكين» أنـه مسَّ آلةً من آلات الآدميين، ذات الانبعـاث التلقائيِّ بمحرّكاتها الصاخبة، التي تتلو سـطوراً مُنذِرَةً من الـدخان: كـلُّ الذي مَسّهُ قواريرُ نظيفة، وحوائج لا زيوت عليها قط، وكذلك جلود بَسَطها مع أخيته ليتدارسوا مواثيق رسومها المشيرة إلى مداخل الأرض ومخارجها، بدءاً بالمكان الذي مهّدته المداخل جنوباً حتى العراء الأبعد من المنـزل الغارق بين أشجار التوت شمالاً، إضافة إلى مطاوي الهضبة، والجروفِ الخفيفة أسفل سفوحها، والنهر، والجسر الموشوم بعلامات كثيرة كأنه مركزُ

الثِّقَلِ في التوزيع البيانيِّ للكثافات والمسافات.

«هذا الشحم..!» تمتم «مكين» من جديد، مستغرباً. ثم نهض متجهاً إلى حمّال الأمتعة المتربع في ركن من المنزل، منزوياً، فأراه يديه: «من أين تظنّهما تلطّختا بهذا..؟»، فلم يرفع الشخص وجهه الغارق في ظل نِقابه، ولم يتفوَّه بكلمة، ممّا حدا بـ«مكين» إلى إبداء استيائه: «أمهمّتك أن تبقى أخرسَ؟» ثم عاد إلى المسطبة فجلس عليها صامتاً.

سريعاً مضت الظهيرة، وكذلك العصر، قبل أن يحمل المغيبُ إلى المستأجرين صحفة «هبة»، التي قرّرت الأخوات الخمسُ أن يسُقْنها إليهم بما عليها من طعام للعشاء. ولمّا خرجت الفتاة من المنزل الغربي، إثر سماعها بوق سيارة «نعمان، بعد محاورةٍ شاردةٍ مع «مكين» وأختيه، تحت الضوء المُبْهر للمصباح النحاسي الكبير، انصرف الثلاث إلى طي الجلود التي تحمل رسوماً للمكان، متأهّبين لمغادرة المنزل، وهم يشيرون على حمّال أمتعتهم ـ الذي سمّوه «كلباً» أمام بنات «موسى» ـ أن يحملها، مُزَرِّرِيْنَ معاطفهم اتّقاءً للبرد المُحْتَمَلِ في الخارج، ثم خرجوا اتباعاً إلى الساحة، متجهين صوب بركة ماء الدجاجات، في خط مستقيم، كأنما يتفادون أن تراهم «هبة» و«ستيرو»، اللتان تسابقتا إلى ملاقاة سيارة «نعمان»، الواقفة وراء الركام العالي للجهة الشرقية من الشارع الإسفلت فلا تُرى. ولو نظرت الفتاتان إلى الساحة، من مكانهما ذاك، لما رأتا ـ أيضاً ـ مستأجري منزلهما يعبرون الساحة شمالاً، حيث سفح الهضبة يغدو أكثر انحداراً. غير أنهم نزلوه خِفافاً، متوازنيْن بأجسادهم التي يسندها هواء خفيٌّ، إلاّ حَمَّالهم الذي كثر عَنينُه، وتعالى لهاثه فكاد يوقظ كرومَ العنب الدافئة، ويُربِكُ النهرَ النائم.

وديعاً كان الليل، على نحوٍ مّا، وهو المشتبك مع الغيم دون صخبٍ، كأنّما تواعدا على إرجاء انتصار أحدهما على الآخر. أمّا البومة، التي

رفرفت من فوق الأمتعة المحمولة على كتفي «الكلب»، فقد دارت دورتين، بطيرانٍ منخفض، في محيط أولئك النازلين صوب النهر على مهلٍ، ثم انعطفت شمالاً، متّخذةً وجهتهم تماماً، وانطلقت ناعِبةً، فتمتمت «نفير»: «تريد هذه البومة أن تسبقنا».

«لا جدوى» قالت «كليمة»، مُرْدفَةً: «ما من أحد يسبقنا، قط».

«ما من سيارة تسبق هذه السيارة» كان «نعمان حاج مجدلـو» يردّد، بدوره، كلماته في اعتدادٍ أمام بنات «كرمو موزان»، ذلك المساء، بعدما أركن آلتهُ إلى ساحة الدار التي لا سور لها، ودلف يريد حديثاً عابراً، في موعد العشاء الذي سيضطرُ العائلةَ إلى دعوته لمشاركتها قصعةَ البُرْغلِ، الملتمعِ تحت السراج من كثرة السمن فيه. وإذ جلس الرجل الممتلىء الجسم على الزرابية التي اقتعدتْها عائلة «كرمو»، في غيابَ ربِّهـا، حرَّر ساقيه قليلاً من جلبابه السميك، ليتمكّن من التَّربُّع، متلمساً بيده شاربيه الأصفرين وهو يحدّق في صحفة الطعام: «سبقتُ سيـارة جيب فرنسيـة، اليوم» قالها بصوت خفيض فيه خيلاء، فأبدت بنات «كرمو» الأربع دَهَشَهنّ: «سيارة جيب عسكرية؟»، «نعم» ردّ «نعمان».

«كُنْ حذراً» قالت أمهنّ «كاني»، مردفةً: «هؤلاء لا يلعبون مع أمثالك»، فردّ «نعمان» وقد أدركَ سخريتها: «وأنا لا ألعب معهم، يا خالتي. سيارتي لا تلعب»، ثم برّرَ ثقته تلك: «لم يروني حتى. سبقتهم ولم يروني. طرتُ»، وتطلّع إلى وجوه البنات، قبل أن يبدي دَهَشاً متأخّراً في غير محلّه، لكنه نزوعٌ إلى اختصار النظرة المتفحّصة من عيني «كاني» إلى عينيه: «أين عمي كرمو؟».

«لا أظنه سيتعشى معنا» قالت «كاني» ذات الوجنتين البارزتين، مضيفةً: «اعتقل الفرنسيون حسين مصطفى آغا، واقتادوه إلى بلدة دَيْرُ الزّورْ»، ففتح «نعمان» فمه، مبدياً صوتاً فيه استغراب حقيقي: «اعتقلوا حسين آغا؟ متى؟

لم. . »فقاطعته المرأة النحيلة: «سمعنا بالأمر قبل ساعة». فدمدم السائق: «هكذا، إذاً منذ ساعة. . ها» كأنما يتدبّر لنفسه عُذْراً عن نقص معلوماته، فهو لم يكن في البلدة، وفاتَهُ الحَدَثُ الذي سيؤجّج القرى الكردية شهوراً، لأن المُعْتَقَلَ الرّزين، الهادىء، كان ممّن يمدّون «سعيد آغا الدقوري» بالكثير، في ثورته، دون الاضطرار إلى إعلان الحرب على الفرنسيين جَهْراً.

بدا «نعمان»، لدقائق، زائغاً، بالرغم من ازدراده لِلُقيمات من البرغل الساخن: «من يتجرّأ على حسين مصطفى آغا؟»، كان يقولها في أعماقه. إنه رجل نفوذٍ، ومالٍ، وعشائر، وتقوى أيضاً. «لا» همس، ثم هزّ رأسه، والتفتَ إلى وجوه البنات اللواتي لم يبدين اكتراثاً كبيراً للموقف: «من هي فرنسا؟ من أين جاءت؟» سألهن، وانطلق لسانه من جديد، عارفاً أنهن لن يُجِبْنَ: «الآن أخاف على فرنسا» قالها بصوت هادىء تماماً، وكرّر: «الآن أخاف على فرنسا».

«لا يستطيع أولاده الوصول إلى فرنسا»، قالت إحدى بنات «كرمو» على نحوٍ جادٍّ، فقاطعها «نعمان» محتدّاً: «لا يستطيعون؟ أنت خَرِفَة. أين فرنسا؟» سألها، فرفعت الفتاة كتفيها تقول: «لا أدري»، فابتسم السائق كأنما غَلَبَهَا: «أنت لا تدرين. نعم. لكن عشائر حسين مصطفى آغا تعرف أين فرنسا»، ورفع وجهه إلى سقف البيت، مُغَمْغِماً: «أين ستختبىء فرنسا؟».

كان على فرنسا أن تختبىء، بالطبع، في مكانٍ مّا وراء البحر، حيث تسقطُ الشمسُ، في المغيب، سقوطاً أخرسَ، وهي تتشبث بشعاعاتها المنسية على سطوح البيوت في بلدة «القامشلي»: هذا ما يتخيله «نعمان». أما أين ستختبىء فالأمر لا يعنيه. ستختبىء فحسب، وليس في مقدوره أن يقدم لتلك الدولة مشورةً حول المكان الذي ستختبىء فيه. «أيكفي الدغل الغربي؟» يسأل نفسه، ويحدّد في أعماقه مساحة ذلك الدّغل من شجر الشربين والصفصاف، غرب «القامشلي»، فيهز رأسه من الشّكّ: «أظن

فرنسا أكبر من الدغل». ثم يقرّر أن يقطع استرساله ذاك في تصوُّرِ دولةٍ بأكملها تعمد إلى الفرار شعباً، وأرضاً، وسماءً، ودجاجات، وغيوماً، وعربات عسكرية، لأنه لا يستطيع العثور لحشدٍ كهذا على فراغ يخفيه عن عشائر حسين آغا. ويمعن النظر في صُغرى بنات «كرمو»، العابسة: «الشمس لا تغيب عن فرنسا»، فتمضغ الفتاة لُقمتها على ضجرٍ لا يرحمه «نعمان»، الذي يلتفت إلى امرأة «كرمو» نفسها: «طوال الشروق ترسل الشمس ضياءً على ما وراء البحر؛ على فرنسا. وإذ تغيبُ تغيبُ فوق فرنسا»، ويزدرد لقمة، ثم يرفع طاسة الماء إلى شفتيه متمتماً: «الشيطان يأتي من هناك. ضياءٌ إلى الأبد! ضياء دائم.. يا لَعذاب الله!».

تناهى إلى الجالسين حول قصعة الطعام، بعد جُمْلة «نعمان» تلك، صياحٌ فيه ذعر، وجَلَبَةُ ركضٍ، فهبَّت بنات «كرمو» واقفاتٍ، بينما ظل السائق والأم على جلوسهم، متوفّزي العنقين يصغيان في قلق. وإذ حاولا النهوض، على مضضٍ، برغم فضولهما الطاغي، كانت البنات الأربع قد صِرْنَ إلى خارجٍ، يستطلعن الظلامَ بصرخات خفيضة من حناجرهن: «من أنت؟ حليمو. أأنت حليمو؟ ما الذي يجري؟».

كانت أصواتهن تغدو متسائلةً، ورطبةً، بعد نبرة الصراخ الجافة التي انتابتها، لأنها باتت تميّزُ، في الظلام، أشكالَ جيرانهنّ الراكضين في اتجاهات عدة، دائرياً، وهم يتبادلون إشارات التحذير، والتوبيخ: «هل أفلتا منك؟» يقول أحدهم، فيرد الآخر عليه مُعَيِّراً: «أفلتا مني كما أفلتا منك». ولم تستطع بنات «كرمو»، في الهياج الصغير ذاك، أن يستوضحن أحداً أمرَ انكسار الظلام شظايا من حول الأجساد الهَرِعَة. إلاّ أنهنّ انكفأْنَ، فجاءةً، صوب باب دارهن، متفاديات بغلين، كادا يصدمانهن وهما يعبران، حَرِدَيْنِ، في ركضٍ جامحٍ، وما لبث أن ظهر أشخاص قليلون، راكضين بدورهم، يحالون اللحاق بهما.

هكذا، إذاً، بغلان هربا من اصطبل جيران «كرمو»، دون داعٍ، فأثارا

استياءً في ملامح «نعمان»، حين عادت البنات إلى الداخل، فأخبرنه، واخبرن أمهنّ بالحادث العارض: «لماذا يفرّان؟»، قالها السائق، واحتدمَ: «فليذهبا إلى تركيا»، فأبدت زوج «كرمو» استغراباً: «لماذا إلى تركيا؟»، فخامرَ «نعمانَ» هدوءٌ، ثم مسّد على شاربه: «لينجوا»، وابتسم للفتيات اللواتي لم يُظْهِرن اكتراثاً لكلامه كله: «هما أحمقان إذ اختارا جهة أخرى غير تركيا. إن هذا الأعور..»، وأشار بيده إلى جهة يفترض أن منزل صاحب البغلين يقع فيها؛ «ماذا يطعمهما؟ ها؟ تبناً مبلولاً، وطيناً؟»، ثم انحنى على صحفة الطعام فغرف منها بملعقته الخشبية، التي فاض عنها البرغل فتساقط بعضه في الطريق من الصحفة إلى فمه.

تراجعت البنات الأربع عن صحفة الطعام إلى الخلف، زاحفاتٍ، ومن ثم تراجع السائق والأم بدورهما، في السكون الذي عمَّ الغرفة، كأنما عمد الجميع إلى استمتاعٍ صامت بآخر مضغة من البرغل الذي بَرَدَ السَّمن عليه. وقد أخرج «نعمان» كيس تبغه فهيّأ لنفسه لِفافةً لم يكد يشعلها حتى باغتته الأم «كاني» سائلة أن يصنع لها واحدة، فأعطاها السائق لفافته، وعمد إلى صنع أخرى.

«كيف هبة؟»، سألته صغرى بنات «كرمو»، فنفخ نعمان دخاناً طويلاً من فمه المزموم، وقد أغلق إحدى عينيه على نحوٍ ساخر، مجيباً: «وما الذي سيتغير في أربعة أيام؟ ألم تريها؟»، وابتسمَ: «أصابعها أكبر من أصابعي يا فتاة»، فتطلعت صغرى بنات «كرمو» تلقائياً إلى أصابع «نعمان»، الذي عمد إلى رفع يديه إلى مستوى وجهه، تحت ضوء السراج، وهو يقلبهما لتأكيد ما يقول أمام العائلة، التي لم يمض على عودة بناتها من زيارة بنات عمهن «موسى»، على الهضبة، أربعة أيام، حيث مكثن يومين لا غير، اضطررن بعدهما إلى العودة، بسبب مشاجرة بين «أَقِيْسْ»، الثالثة في تراتُب أعمار بنات «كرمو»، وبين «زيري»، ابنة عمّها الطويلة الممتلئة. وقد بدأت أوائل النظرات النارية من إحداهما إلى الأخرى قرب النهر، عصر اليوم

الثاني عن الزيارة، حين أبدت «زيري» دَهَشاً كبيراً «ماذا تفعلين؟» تمتمت بصوت مبحوح، وهي تنظر إلى «جاجان بوزو» ذي الوجه السارح كمالك الحزين، وهو يعبر خَجْلاً على الضفة الأخرى من النهر.

«أنا؟» «ردت «أَقِيسْل» مندهشة، بدورها، وتطلعت إلى حيث تتطلع «زيري».

«أنت تغمزينه» قالت «زيري»، مكرِّرة في توبيخ ساحق: «أنت تغمزين الرجل».

«أنت مجنونة» ردّت «أقيس».

«رأيتك بعينيّ هاتين»، قالت «زيري»، مضيفة وهي تضع يدها على صدرها في أسن: «ما الذي سيقوله هذا الرجل عنّا، بعد اليوم؟».

«لو مرّ يوسف النبيّ، من هنا، ما غمزته» ردت «أَقيس»، ثم رمت أوراقاً خضراء، طرية، كانت جمعتها من ضفة النهر، واستدارت لتصعد سفح الهضبة في اتجاه المنزلين.

كان جَمْعُ البنات الأخريات على مبعدة منهما، فلم يسمعن حوارهما، لكنهن توقّفن عن جمع نبات الأرض، عارفات أن أمراً ما على غير ما يرام بين الفتاتين، بسبب الحركات العنيفة التي أبدتها «أقيسْ» من يديها. ولبرهةٍ همَّت «هدلة» أن تلحق بها، بعدما رَمَت من يديها العصا المفلطحة، التي كانت تضرب بها ثياباً مغسولة، ملمومة فوق حجر صقيل. لكنها أدركت، من المسافة تلك، أن ابنة عمّها ستدرك سطحَ الهضبة قبل تمكّنها من اللحاق بها، فهزّت رأسها امتعاضاً، وهي تطيل التحديق في اختها «زيري»، المُنكبَّة على لملمةَ النباتات التي بعثرتها «أَقيسْ» على مدى أمتار، في لحظة غضبها.

كادت بنات «كرمو» أن يغادرن منزل بنات عمهن مغيبَ ذلك اليوم،

لولا جهد «هدلة» في ابقائهن حتى الفجر، وليس أبعد منه. إذ جمعن حوائجهن القليلة، متجهات مشياً إلى بلدة «القامشلي»، تحت السماء المنذرة بمطرٍ يجهلُ لعبةَ الغيم، وهنّ يتبادلن مع بنات «موسى» نظرات اعتذار من ذلك التنغيصِ الذي دفعتْ بِهِ أختهن «أقيس» إلى أقصاه: «أنا عائدة». هذا ما قالته، فاضطررن إلى حَزْمِ أمرهنّ على مضضٍ، وعُدْن دون انتظار سيارة «نعمان» في رجعتها من بلدة «الحسكة».

أربعة أيام، فقط، مضت على عودتهن، وبرغم ذلك سألت صغرى بنات «كرمو» السائق عن «هبة». وإذْ ألْمَحَ الأخير ساخراً، إلى ضخامة يديّ الفتاة التي لا تُجاوز الثانية عشرةَ، ونفخ من فمه، ومن منخريه، دخاناً يكفي لجعل النظر إلى عينيه، عن كثبٍ، عَصِيّاً، حدَّق في وجه الأم «كاني»: «ألا يتحقّق أحد من الذي يجري غربَ ذلك الجسر؟»، وتوقّف لحظة ليعيد الشرحَ: «رأيتِ، بالطبع، أشجارَ التوت، تلك؟ قبل الجسر، بقليل، وأنتِ متجهة إلى الهضبة، ثمت أشجار توت، إلى يمين الطريق. أرأيتها؟». فهزت المرأة رأسها في إهمال، غير عابئة بإبداء جواب واضح، بينما استرسل «نعمان» موضحاً: «أسمع طنيناً صادراً من المنزل الذي تستره أشجار التوت؛ أسمعه أعلى من خوار هذا الثور الحديدي ـ التوربيدو». ثم استدرك مُؤَكِّداً: «حتى الركاب يسمعون ذلك يا خالتي».

كان الطُّنينُ المختنق يتصاعد، بحقٍّ، من المنزل الذي تحجبه أشجار التوت، كلّما اقتربت المرأتان «كليمة» و«نفير»، وأخاهما «مكين»، و«الكلب»، من حدوده المعتمة، ذلك المساءَ المُنْكَبَّ بخيوطه القوية على رتْقِ الأمكنة الممزَّقة، بدءاً بالنهر وانتهاءً بالفراغات الأكثر شحوباً من حول هياكل الشجرات الضخمة، المكسوَّة بقليل من الورق اللحوح وبكثير من السكينة التي تشبه أوراقها.

وشوشاتُ المرأتين الخفيضة، وحدها، كانت تقاسم الخطواتِ نُبْلَها الغامضَ في العراء الذي تعوَّد على أقداره في امتثالٍ وألقٍ. بيد أن «مكين»

لم يَكن يسير سيراً واثقاً كالذي تسيره أختاه، فيتخلّف قّليلاً عنهما، ثم يسبقهما، ثم يتوقف، ثم يسرع، ثم يلقي نظرات شتّى على فراغ المساءِ الطاووسيِّ، ثم يعدِّل من وضْعِ قبَّعته المضلَّعة قبل أن يعمد إلى شمِّ أصابعه: «إنها رائحة زيت معدَنيٍّ» يقولها متوجِّساً، قبل أن يحشرَ نفسه بين أختيه، في فضولٍ تغلب عليه الرَّصانة :«عمَّ تتحدثان؟».

«عنك» فَجَأَتْهُ «كليمة» بنبرةٍ فيها زَجْرٌ هادىء. وأضافت وهي تمسك بعضده كامرأة تقود طفلاً: «نتحدث عن الذي كنت تفعله على الهضبة قبل مجيئنا». فأبدى «مكين» ذهولاً من كلامها، متوقفاً عن المشي بعدما سحب ذراعه من يد أخته: «أأنتِ تتفكّهين؟»، فأجابته «نفير»: «إسأل حمَّال أمتعتنا. هو، نفسه، يعرف أيضاً أنك كنت هنا قبل مجيئنا نحن الاثنتين».

كانت السخرية المفاجئة، التي أحسها «مكين» في كلام أخيته، تدفعه ـ للمرّة الأولى، كما يظنّ ـ إلى الخروج عن رزانته القدريَّة. فهو لم يعهد، قطّ، أن تَدَبَّرَ له كائنٌ مّا عبثاً كهذا العبث، وهو ماضٍ من مَهَمَّةٍ إلى أخرى، في صيرورته الأزلية كنفخٍ من الله في الضياء لا في التراب: «هذا أنا»، يستطيع أن يقول لنفسه ساخراً من أخيته: «هذا أنا، منذ الضربة الأولى، التي مزقت ستارةَ المياه عن الخلائق»، لكنه يجاريهما، فجاءةً، ساخراً بدوره: «نعم، كنتُ على هذه الهضبة قبل مجيئكما»،

«إنه يعرف»، قالت«نفير»مستغربةً، ثم توقفت ملتفتة إليه: «إذاً، أنت تعرف». وقد توقفت «كليمة» بدورها، محدّقة في الظلام، الذي يدور حلقاتٍ ناعمةً من حول وجه أخيها: «لقد اهتديت، سريعاً، إلى ذلك!». فأدرك «مكين»، وهو يرى استغراب أخيته، أن مزاحَه أقحمَهُ في إشْكَالٍ: «أصدَّقتماني ؟»، قالها متوقّفاً عن المشي ، ثم أضاف:«أأنتما ترتِّبان لي فراغاً؟».

«اسمعي يا نفير» قالت كليمة: «اسمعي أخاك يتحدث عن الفراغ كأيٍّ

آدميٍّ»، وعادت خطوة إلى الوراء لتحاذيَ أخاها: «لا نرتّب لك فراغاً، يا أخي. ذاكرتُك هي الفراغ».

«لا فراغَ، قطّ» همست «نفير». والتفت، بدورها، إلى أخيها في الظلام: «أنت تُجَدِّف إذا ظننت أننا نرّتبُ لك فراغاً»، ثم اقتربت منه: «لا فراغَ في مسافة الله».

أحسَّ «مكين» نَهْباً بارداً يتخاطَفُه من جهاتٍ أعماقه وأعضائه، معاً، فيما أكملت أختاه، على مهلٍ، سيرهما الهادىء، تتبادلان الوشوشات الخفيضة، فالتفت إلى حمّال الأمتعة الذي جاوره، وأمسك به من جانب معطفه الخشن: «ما هو الفراغ، أيها الآدميّ؟». فتوقف الأخير يسحب نَفَساً عميقاً من شدّة تعبه، ثم زفر زفرةً وَخَطا لاحقاً بالمرأتين في صمت ثقيل.

«لا فراغَ»، ردّد «مكين» الكلمةَ في أعماقه، كأنما يقلبها على وجوهها: «لا فراغَ». ونظر من حوله إلى الظلام المُتْرَف يثبِّتُ الأرضَ الكلسيةَ بأوتاده البيضاءِ إلى وحشتها، ثم أغمض عينيه، ومشى دون أن يتعثر، لأنه كان يحسبُ لخطواته مواطىءَ في ذاكرته، لا في المكان، متماوجاً في لِيْنٍ على المياه التي لا تعكس شكله، ولا يبتلُّ نسيجُهُ الطليقُ بها. لكن يداه تشتغلان على تثبيت أعمدة خفيفةٍ دون ثِقَلٍ، في مشارف بعيدةٍ من ذاكرته، ومن حوله خَلْقٌ آخر، جمٌّ لا يُحصى، بنسيجٍ كنسيجه الطّليق، منكبّون على المياه يشقُّونها، ويلحمونها، ثم يرفعون عَمَداً من الظلام مبتلّة بالضياء، أو عَمَداً من الضياء مبتلّة بالظلام، ويسندونها بهالاتٍ من الياقوت، رافعين غيماً أخضرَ - مرايا فوق المياه لتتعدَّد الوحدةُ الكُلّيّةُ للشّكل الظاهر والخفيِّ، حيث الخيرُ هو بلاغةُ الشّرِّ القصوى، والشّرّ هو بلاغةُ الخير القصوى، في أزلٍ لم يُسْتَكْمَلْ بَعْدُ، وأبدٍ مُشْرِفٍ على ماضيه المُؤَجَّل إلى لا نهايةٍ.

خَلْقٌ كثيرٌ من حول «مكين»، على صورتِهِ واشتغاله؛ خَلْقٌ في دَأْبٍ،

يتمازجون وينفصلون في سعيهم، وهم ينطقون نُطْقاً لطيفاً أسماءَ لا تنتهي، كأنما يحصون مكنونات الخليقة، من لطائفِ الجمادِ إلى المُسْتَسِرِّ في فِكر الأحياء: حيواناتٍ، نباتاً أو آدميين.

. . و «مكين» يجهد أن يوقف يديه فلا تتوقفان، في الشروقِ الرَّحْبِ لذاكرته: تلتقطان كلَّ شيء، في البرهة ذاتها، وتوزّعان الهواء على مساربه الغامضة تحت الظل، الذي ينتشر قوياً كلّما ثَبَّتَ الخَلْقُ من حوله الدعائمَ التي لا تُلْمَسُ، بل يجري رَفْعُها بنفْخٍ من الأفواه. وإذ ينظر إلى أعلى، ليتحرّى السقفَ الذي يبثُّ الظلَّ لا يرى كثافةً، فيغْشى من الفراغِ الممتلىءِ بفراغٍ ممتلىء، قبل أن يطأطىء مستغفراً: «ياليَ؛ يالي أتجرَّأُ على الكمال!!»، ويغمض عينيه، فيما تسترسل يداه في اشتغالهما على مفاصل من ريح يحزمُ انخلاعاتها بسيُوْرٍ ملساء، ويطرقُ الضوءَ بأزميل ذهبيٍّ كأنما ينقش الأبديةَ عليه على شكل مثلثات متوالية، وخرومٍ يستطيع الرّائي أن يرى منها نفسَه، في الجهة الأخرى، متوالياً كأفقٍ ينهبُ اللونَ.

«لم يعد عمي كرمو» تمتم السائق «نعمان»، وتململ في جلسته المريحة متصنِّعاً بعض القلق، فتأمّلته «كاني»مبتسمة في خبث: «أأنت تنتظره لتقول له شيئاً مّا؟»، فقاطها الرجل ذو لفافة التبغ الثخينة: «لا، لا يا خالتي. لقد قلقت قليلاً، لا أكثر»، فطمأنته المرأة في سخرية: «لا تقلق. سيرسلون إلينا عظامه، في الأقلّ، إذا أكله البدو». وتوقّفت عن الكلام تتأمّله من خلال دخان لفافته المتوهجة: «البدو يتوافدون بالآلاف»، والتفتتْ إلى إحدى بناتها: «أبقيَ موطىءُ قدم، من حول مبنى السراي، ليستْ فيه عباءة، أو بغل؟»، قالت ذلك في مبالغة، قبل التحديق، من جديد، في وجه «نعمان»: «اعتقل الفرنسيون حسين مصطفى آغا لأنه قَتَلَ. . .»، واستدركت: «بل حرَّض ابن اخته على قتل حمدان المرزوق، من عشيرة طَيْ، وهذا الرجل له كلمته عند الفرنسيين».

«وما دَخْلُ عمي كرمو في الأمر؟»، سألها«نعمان»، فردّت المرأةُ وهي

تفتح يديها كأنما ترفع دعاءً، أو تتلقّف سؤال الرجل بأصابعها: «حين يعتقل الفرنسيون حسين مصطفى آغا، ويحتشد البدو في ساحة السراي، تصبح لك، ولعمك كرمو، ولجدّيكما، علاقةٌ بالأمر يا نعمان»، ثم زمّت شفتيها قبل أن تهمس: « معهم خناجر، وبنادق». وضربت كفّاً بكفّ، دون أن يدلّ ذلك على قلقٍ مّا، قائلة: «خسرنا ديكاً، اليوم». فأبعد «نعمان» لفافة التبغ عن شفتيه الرطبتين، مصغياً في اهتمام إلى المرأة التي لوت عنقها صوب ابنتها «فَطّوْمة»، قائلة: «لم تذبحه ذبحاً حلالاً. أبقتْ لَهَاةَ الديك عالقةً بجذعه، لا بالرأس». فأبدى «نعمان» نبرةَ أسى حقيقة من حنجرته، هامساً: «كيف أخطأت فطومة في أمر سهل كهذا؟ لو سحبت لسانَ الديك، وخَرَقْتْهُ بريشةٍ خارج منقاره، لانفصلتِ اللهاةُ مع الرأس»، ومسّد على شاربيه: «الأمر سهل»، ثم نظر إلى «كاني» بعينين جادّتين: «أتخلّيتم عن الديك، نهائياً؟»، فأجابته المرأة: «أنأكل لحماً حراماً؟».

«لا. أعني. . . » قال «نعمان» زائغاً بعينيه، وأردف: «أعني إذا كانت فطّوْمَة قد سمّت باسم الله عليه أثناء الذبح، فلربّما أمكنكم أن تأكلوه»، وهرب من نظرات «كاني» المستغربة، الصارمة، متطلعاً في «فطومة» التي بدت غير معنية بالتوبيخ الخفي في اتهامات أمّها، ثم سألها: «هل ذكرت الله وأنت تذبحين الديك؟»، فردت الفتاة متذمّرة، كأنما تدفع عن نفسها التهمة للمرّة الألف: «ذكرتُ الله، وأنبياءه، وأسماء عائلة موزان، وأسماء الجيران، ودجاجات بيت مانو، وسلالة أمي من جدّ جدّها. . »، فتمتمت أمها من بين شفتيها المضمومتين: «هُسْ»، بينما انصرف «نعمان» بعينيه إلى فتاتين من بنات «كرمو» وقفتا تحت السراج مباشرة تُفلّي إحداهن شَعْرَ الأخرى، التي قالت في بَرَم: «غسلتُهُ البارحة، وما زالت الحَكّةُ. . أفيه قملٌ؟»، فردت الطويلة المنحنية على رأس اختها: «لا تتحركي»، ثم توقفتْ: «لا يكفي ضوء هذا السراج يا أختي. احتفظي برأسك لي حتى الغد».

سكونٌ غطى الغرفة؛ سكونٌ كفاصلة يرتّب كلُّ فردٍ في فراغها فكرتَهُ البسيطةَ من أجل حديث تالٍ. وقد ارتاب «نعمان» قليلاً، لأن الصمت الموقوت دليلُ انفضاض المجالس حين لا يجد السامرون شأناً آخر يطيلُ المكوثَ، برغم أن الليل كان في أوّله. فتنحنحَ، ثم مدَّ لفافة تبغ إلى «كاني» التي هزّتِ رأسها ممتنعة عن تناولها، وأدار بصره على وجوه البنات المنصرفات إلى لعبةٍ يقوّسن فيها أصابعهن على الأرض، ويمرِّرن مَن بينها حصوات مدوّرة، فيما يرمين عالياً بحصوات أخرى ويتلقّفنها في مهارة: «سمعتُ أن عمي كرمو باع شحنتين من بالات القطن إلى تاجر في حلب. هذا يعوِّض قليلاً، أليس كذلك؟» قال «نعمان».

«يعوِّض ماذا؟» ردت «كاني» متأفّفةً، وأضافت: «بدأ القطن يبتلّ في أكياسه، تحت تلك السقيفة التي يدلف منها الماء»، مشيرة إلى الجهة الشرقية من بيتهم، حيث يقوم المستودع الضخم، المبني على عَمَدٍ من الخشب متراصّةٍ تشكل ثلاثةَ جدران يستند عليها سقفٌ عال جداً، هَرِمٌ، يحنو بطبقته الطينية على الأكياس الاسطوانية الطويلة، المُنَضَّدةِ مربّعاتٍ بينها ممّرات ضيقة تسمح بمرور شخص يأخذ عينات من القطن بعدما يشق الخيش بمدية، من الجهة التي يشاء، والعيّنات تلك تُرمى، عادةً، بعد الكشف عليها، فتغطي مساحات من أرض المستودع، ومن ثم تتدحرج كراتٌ منه، مع الريح، إلى الخارج، فتعلَقُ بالنباتاتِ البرية اليابسة، كقناديل من الغبار مُطْفَأةٍ. لكن أوّل مطرٍ يحوّل كرات القطن تلك إلى خَبِيْصٍ موحلٍ، وعلى غير العادة كانت أكياس القطن، في ذلك المستودع ذي الواجهة الضخمة المفتوحة، آمنة من السرقة، بعكس أكياس القمح التي كان اللصوص يغامرون من أجلها باقتحام البيوت، أحياناً.

ألم يكن القطن يستهوي السرّاقين، برغم استعمالاته الأقل شيوعاً في حشو المخدّات والأغطية؟ ربّما استخفافُ المستخفّين أنزله إلى دَرَكٍ من الإهمال، لِتَباهي الناسِ بالصّوفِ في الفُرشِ، وبالرِيش في المساند،

والمخدّات، والوسائد، لكن ذلك لم يُثْنِ «موسى موازن» عن اقتطاع حقول من أرضه لنبات تتفجر ثمرتُهُ اليابسة عن طيشٍ أبيضَ، رقيقٍ ووديع. «وموسى»، الذي غدا شبحا على أية حال، لا يرجع بذاكرته كثيراً إلى المُحَرِّض الأول، الذي حضّه على زَرْعٍ للقطن، لكنه يستطيع قَطْعاً ـ التقاطَ الصورة الأولى لعلاقته بجَوْزَةِ ذلكَ النبات، في شبابه، وهو يفتحها بأصابعه قبل أن تنضج: لِيْفٌ أبيض، رطبٌ، مُحْتَبِسٌ في تجاويف خضراء؛ و«موسى» يسحب اللِّيفَ بأناةٍ خشيةَ أن يتمزَّق.

فتنةٌ شدَّت «موسى»، حين صارَ مالك أرضٍ، إلى القطن، في حين انصرف المالكون الآخرون إلى القمح، والشعير، أو البقول والقطانيات يرونَ تجارتَها أجدى. غير أن حقوله كانت على فوضى كبيرة، إذ يعمد القريبون منها إلى زرع البندورة والباميـاء بين خطوط شتلات القطن المتوازية، فتتشابك النباتات على الحاصدين في آخر الصيف. ولطالما شكا إليه الحريصون أمر المتطفلين على حقوله، فكان يردّ: «هذه الأرض، إذاً، تكفيني وتكفيهم، إلاّ إذا سرقوا قطني»، مهتّماً بسُوق الجزارين أكثر من حقوله، يتردد عليه، من الهضبة، كل يوم، حيث يتخذ أخوه «علي» مسلخاً هناك، بطول أربعين متراً، له أرضيّة من رمل يسهل تغييره بعد أن يتلطخ بالدم، آخر النهار. ويقفل عائداً إلى منزله، قبل المغيب عادةً، في صحبة الملاّ «كمال» الذي يملك عربة يجرها بغل واحد حتى بيته القريب من الجسر، ومن هناك يكمل «موسى» سيره مشياً على قدميه، في المسافة القليلة الباقية، حاملاً رؤوس خراف، أو أحشاءها، وهو يَزِنُ المساء بأوزانٍ يستخدمها أخوه في كيلِ الحيوانات المسلوخة، المعلَّقة بخطاطيف إلى أعمدة خشبية. والمساءُ ـ كل مساءٍ ـ في عُرْفِ الرجل هو قصَبة، ورئتان، وقلب، وطِحال، بل حَشْوٌ تنفتح عنه الأضلاع المعتمة فيتدلّى أسودَ ثقيلاً كأحشاء ماعز. أما الأرض الكلسية، المنبسطة إلى الغرب من الجسر، فيراها «موسى»، في عبوره اليوميّ إلى البيت، جِزَّة كبشٍ أبيض، تنتظر أن

يرفعها أخوه «عليّ» بيده يزنها تقديراً بالعضل الذي يتشنّج في ساعده وعَضُده، وبالشريان الذي يطْفُر رقيقاً، دون بروزٍ قويٍّ، في الجهة اليمنى من عنقه. ووزنُ الجِزَزِ، على النحو ذاك ـ من غير ميزانٍ ـ موثوقٌ به، لأن ذراعَ «علي» ذراعٌ موثوقٌ بها. لكن «موسى موزان» لا يستهدي، ببصره المُلقى إلى العراء الأبيض، إلى المكمن الذي يمكن لأخيه أن يمسك به تلك الأرض ويرفعها، كما جزَّةٍ، دون أن يرفع النهر أيضاً، والجسرَ الذي يعبره إلى بيته. فيبتسم، برغم ذلك، وهو يعقد مقارنةً أخيرة بين العراء الكلسيِّ، الأبيض، الموحش، وبين حقوله: «هذا حقلٌ أيضاً. هذا حقلُ قطنٍ حجريٍّ».

«هذا ليس قطناً، بل أرض صلدة» تمتم «مكين» وهو يسند حمّال أمتعتهم، الذي تعثر بنتوءٍ من الحجر الأبيض، ثم عجَّل خطواته قليلاً حتى جاور أختيه، متردّداً في مخاطبتهما بما يشغله، منذ اكتشف بقايا الزيت المعدني على أصابعه. فبادرته «كليمة»، دون أن تنظر إليه:

ـ لِمَ قلقُك هذا؟

«لستُ قَلِقاً» ردّ «مكين» في حزم، وأضاف بشفتين متأنّيتين: «هذا مكانٌ قَلِقٌ يا كليمة».

«أنت تعرف المكان هذا، إذاً؟» سألته «نفير» بصوت خافت، فردّ «مكين»:

ـ وأيُّ مكانٍ لا نعرفه يا أختي؟ ألم نكن قبلَ الأمكنة؟.

لم تُجبْهُ أيٌّ من أختيه، فأحسَّ ريبةً خفيفة من جملتيه اللتين قالهما في ثقةٍ. ثم آثر أن يتخلّف عن المرأتين قليلاً ليماشي حمّال الأمتعة، متطلعاً إليه جانبياً دون أن يرى ملمحاً من ملامحه في الظلام: «بمَ تفكر؟»، قالها، واستدرك: «نسيتُ أنك لا تجيب. اعذرني». لكنه أمسك بردن الشخص اللاهث، كأنما يوقفه: «أكنتُ هنا، من قبل؟»، فتوقّف الحمّال، ملتفتاً إلى

«مكين» بوجهه غير المرئي تحت النقاب الكثيف، وزفر زفرةَ ضجرٍ، ثم أكمل سيره.

رفع «مكين»، في مَشْيه المقيَّد بريبةِ أعماقه، يدَه يشمّ أصابعها من جديد، هامساً لنفسه: «شممت هذه الرائحة في مكان مّا»، وعاد بذاكرته إلى الضياء القديم، الذي أضاء المياهَ له، وللخَلْق المُنْشَأ على صورته، فاشتغلَ اشتغالهُ الحثيث على أعمدةٍ من كلٍّ جوهر: شفيفةٍ وكثيفةٍ، ذات لون ومن غير لون؛ طويلة كأنما تخرقُ الفَلَكَ الأبعد من الفلَكَ الأبعد، وقصيرة كأنما أسافلها تمضي عميقاً في فَلَك أدنى من الفَلَك الأدنى.

اشتغالٌ حثيثٌ: هذا ما يتذكره «مكين». أمّا الحياةُ، كما عهدها في مهمَّته تلك، فلم تكن بعدُ لأنَّ ما من صورٍ تُسْتَحْضَر ـ إذْ يفكّر في نشأته حين كان هناك ـ عن أَشكالٍ وأَبْعَادٍ. وهو ـ إذْ يمعن في استحضار الفراغ الذي كان مليئاً بفراغ آخر ـ يجد نفسه مُنْحلاً من شفافية إلى شفافية أخرى، متقطّعاً ومتّصلاً، حرّاً إلى درجة الثِّقَل. ولمّا لا يقدر على استجلاء شكلٍ مرئيٍّ، في ذاكرته المنغلقة على نقائها المنسكب نوراً إلى نور، يعمدُ ـ بإصرارٍ ـ إلى التحايل على نشأته، مدفوعاً بفضوله ـ ككائن ذي شكلٍ في تلك الليلة ـ إلى رسم صورٍ للفراغ المليء بالفراغ، حيث كان من قبلُ، فيتبادر إليه ـ أوَّل ما يتبادر ـ صوتُ مركبة آلية.

«مركبة آليـة؟!» يهمس «مكين» إلى نفسه مبتسمـاً في سخريـة من خياله. لكن فجاءةَ الفكرةِ تزداد إلحاحاً على خاطره، فتتحدّد صورةُ المركبة الآلية، لحظة بعد أخرى، في جوفٍ مّا من أعماقه الدائرية: «مركبة ذات عجلات، وهيكل من حديد، ومواسير، وأسلاك، وطنين مرتجٍّ، ورائحة»، هكذا يتفكر «مكين» في الطفرةِ الغامضة لخيـاله، ثم يـرفع يـده، تِلْقاءً، يشمّها، فيمتقع لونُهُ في ظلام تلك الليلةِ المرتكنِ إلى حرية الظلام: «إنها رائحة زيت المركبة الآلية!!».

كان على «مكين» أن يصرخَ من الفجاءة التي قادتـه إلى اكتشافـه الصغير، أو يُصْعَقَ فيتجمَّدَ. لكنه تمالك نَفْسه في هدوءٍ ممنوحٍ من جلال المكان، فسارع خطواتِهِ إلى المرأتين حتى جاورهما، هامساً في حشرجةٍ: «كنتُ هنا.أنا كنتُ هنا».وإذْ لمس برودأ من أختيه وهو يخاطبهما، انفجرت حنجرتُهُ بتأكيداتها الصوتية: «كنت أقود مدحلةً على الهضبة.. هناك..»، وأشـار بيده إلى الجهـة المحفورة في ليـل الهضبة، حيث يـرتفع المبنى المستطيل، ذو النوافذ الكثيرة، في الخلاء المُعَبَّد بالإسفلت. ثم توقف عن المشي مشدوهاً بلا مبالاتهما. ولما كاد حمّال الأمتعـة يجاوزُهُ، استـوقفه «مكين» كـأنما يتـوسَّلُه: «أنهما لا تصغيـان إليّ:»، فلم يتـوقف الشخص اللاهث تحت أحماله.

عميقاً تنفّس «مكين» الهواءَ البارد كأنما يتنفّس أول مرة، ناظراً إلى أعلى الليل المتدلّي من ثغرات الغيم، مستسلماً لأعماقه المستيقظة على فجاءاتها تفتح الصورةَ له تُلو الصورة، مذ استيقظ فجر ذلك اليوم في خيمة من الخيام المنصوبة للعمال، على الهضبة، فنزل عن سريره الحديدي، ذي الرفّاصّات التي تئن أنيناً يوقظ النهارَ النائمَ في الجهة الأخرى من الليل، لكنه لا يوقظ العمال الغارقين في الجهة الثقيلة من تعبهم الثقيل. ثم لبس حذاءه المطاطي ذا العنق الطويل، وتوجه -بغريزةٍ كحلمٍ جرى اختيارُهُ- إلى السفـح الشمالي للهضبـة، ونزلـه على مهل، من المنحدرات الملجومـة بمجاري السيول، حتى بلغ العراءَ الكلسيَّ الأبيض، المستيقَظَ من حلم الليل، فألفى المرأتين، وحمَّال الأمتعة الذي يسمونه «كلباً»، في انتظاره. ولمّا صار إلى خطواتٍ منهم سمع «نفير» قائلة في حنوٍّ: «لم تتأخّر، أخي مكين»، بينما همست «كليمة»: «غيِّرْ ثيابَك، هاكَ..»، ومدَّتْ إليه صُرَّةً منتفخة حَوَتْ بنطاله الفضفاض، الأسود، الذي يرتديه، ومعطفه القصيـر، وقبعته المضلَّعة الحواف.

لا يذكر «مكين»، في أعماق ذاكرته التي تفتحت عن يومٍ من ماضيه،

أنه أحسَّ غرابةً في لقائه المرأتين والحمّال: كانت المسألة جزءاً من الأشغال المُسْتقِرةِ على سطح الهضبة، لا أكثر. لكنه، في انسلاله الليليِّ مع أختيه صوب المنزل المطوَّق بأشجار التوت، كان على قلقٍ أكيدٍ من فجاءات خياله المليء بصور العاملين على الهضبة، وآلاتهم، وكذلك بالفراغ الذي يشتغل فيه خَلْقٌ حاذقون على تثبيث أعمدةٍ من ألوان شتَّى فوق مياه يخرقُونَها دون بللٍ. وإذْ حيَّره خيالُه، عمد «مكين» إلى استيقاف أختيه، معترضاً وجهتهما:

ـ أأنتما أختايَ، حقاً؟

«عاد إلى شكوكه» همست «نفير»، بينما دفعته «كليمة» بيدها دفعاً رقيقاً لتواصل تقدُّمها: «ألستَ أخانا؟».

جَمَدَ «مكين» عن سؤالها البارد، ثم خلَّى سبيلهما، فماشاهُما، سائلاً هَمْساً: «لماذا اخترتماني؟»، فتطلعت إليه «كليمة» وقد التمع قصبُ سترتِها الفضيُّ دون انعكاس ضياءٍ عليه: «أنت تعرف كيف تخاطبه، يا مكين»، وأردفت مبتسمة: «ذلك المخلوق الناريّ يفهمك أنتَ».

ترجرجتْ ذبالةُ الفتيل في السراج، المُعلَّق إلى الحائط في بيت «كرمو موازن»، إذْ تسلَّل نَفْخٌ مفاجىءُ من الهواءِ، فارتعدت ظلالُ الجالسين، وتداخلت قليلاً، ثم انفصلتْ عندما استقرَّت الشُّعلةُ ـ من جديد ـ مستقيمةً، فتمتم «نعمان حاج مجدلو» متوجهاً بكلامه إلى «كاني»: «ألديكم شقوق في الجدران؟»، فرمقته المرأة دون أن تجيب، ومدت يدها إلى علبة تبغه تتدبَّر منها لِفافةً رقيقةً أشعلتها بجمره لِفافةٍ «نعمان» نَفْسه، الذي أمال جذعه صوبها، في جلسته، وهو يختلس النظر إلى البنات الأربع كأنما يقيس المسافة بين صوته وبينهنّ، مقبلاً على قول شيء لـ «كاني» لا يريد أن يسمعه غيرها. وقد أحسَّت المرأة قلقاً في عينيه المظلَّلتين

بحـاجبيهما، فمـالت بدورهـا تستحثّـه بعينيهـا المتسلِّطتين: «انـطقْ. لن يسمعْنك».

«تعرفين أنك بالنسبة إليَّ مثل خالة»، وفكَّ حطّته المعقودةَ على رأسه كعمامةٍ يمسح بها وجهه دون أن يدري لماذا، ثم طوَّق بهـا عنقه: «بـل ـ أقسِمُ بهذه النعمة» وأشار إلى السراج، مضيفاً «أنك أعزُّ عندي من خالة»، فالتمع فضـولٌ نهمٌ في عيني «كاني» من غيـر أن تتكلم، بينما استـرسل «نعمان» وهو يبحث عن كلماتٍ رطبة تحت لسانه الجافّ: «يصعب عليّ أن أرى بنات العم موسى ،وحدهن، يعشن في المنزل النائي، على الهضبة»، فقاطعته «كاني» بنبرةٍ هادئة: «وماذا عليهن أن يفعلن؟ أينتقلن إلى البلدة؟».

«لم أعْنِ ذلك، يا خالتي»، ومسح فمه بطَرَف حطَّته: «عنيت أنهنّ في حاجة إلى رجل».

تراجعت «كاني» بجذعها الذي كانت أمالته، وتمتمت وسط ابتسامة فيها خبث خفيف: «تدبَّر لهنَّ أربعة شُبَّان، أجَّرَكَ الله». فطأطأ «نعمان»، يهزّ رأسَه هزّاً خفيفاً كأنما لم تفهمـه «كاني»، فـأدركت المرأة حـركته، قائلة: «ألَديك إخوة للزواج؟».

حدَّق «نعمان» فيها أولاً، ثم التفت إلى البنات فـرآهنّ في لَعِبٍ، فتجاسَرَ: «لو تَقْبَلُ هدلة بي...» وصمت مُحْتبساً أنفاسَه وهو يكاد يغمض عينيـه لينجو من عينيّ «كـاني» اللتين حاصـرتـاه، وهي تمتم منـدهشـة: «هدلة؟!!»، فبقي السائق على صمته. لكن إحدى بنات «كرمو» استفسرتْ ـ فجاءةً ـ من وراء ظهره: «ما لها هدلة، يا نعمان؟».

«هدلة على ما يرام» ردّ السائق دون أن يلتفت، وهو مـا يزال على تحديقه في عينيّ الأم «كاني»، التي ابتسمت في استخفافٍ مكتوم: «ألم تتأخَّر على بيتك؟»، وغمزته كأنما تصرفه: «سينشغِل بال امرأتك يا نعمان».

بـأعضاء متهـدِّلة قليـلاً، وعينين تائهتين في الفـراغ الليلي، خـرج

«نعمان حاج مجلدو» من منزل «كرمو»، متجهاً صوب الكتلة الباردة التي لم تكن إلاّ هيكل سيارته، تتدلى حطته في يـده اليسرى حتى تكـاد تلامس الأرض، ثم نفخ من فمه دخاناً تشتّت في الهواء المضطرب، البارد. ولمّا بلغ مركبته الآلية دلف إلى داخلها، جالساً وراء المقود، من غير أن يديرها، ثم مال إلى الخلف، على مقعده المهترىء، مكوِّماً حطته كمخدّة يـريح رأسه عليها، وحدَّق من النافذة الزجاجية في الظلام الزّجاجي.

«أطنني أشمُّ أشجار توت» قالت «نفير» لأختها، في الظلام اليقظان من الحركة ذات الصخب لوافديْنَ على غير عادةٍ، فهمس «مكين» مداعباً، أو مستخفّاً: «ليس للتوت رائحة، يـا أختي».

«لكل شيء رائحة، يا مكين» ردّت «نفير».

«لكلِّ شيء؟» قاطعها «مكين» متسائلاً، فأجابته ثانيةً: «نعم. لكل شيء رائحة».

فكرر «مكين» سؤاله في الحاح: «لكلِّ شيء رائحة؟ أتعتقدين أن لكل شيء رائحة؟».

«ما بك؟» سألته «نفير» متوجّسةً، فتمتم أخوها: «لم أكن أشمُّ شيئاً حين كنتُ هناك»، وتطلّع إلى أخته كأنما يهدّدها: «في الضياء، ذاك المليء بالفراغ، لم أكن أشمُّ شيئاً».

«عُدّتَ إلى شكوكك» قالت «كليمة» مُنْتَهِرَةً.

«إصْغيا» همست «نفير» تقاطعهما، فجمَدا، كما جَمَد حمّال الأمتعة في مكانه، وقد تناهى إليهم طنينٌ مختنقٌ، بعيد، لكنه يَسْرِي كدغدغة في قشرة الأرض التي تلمسها أحذيتهم، فيصعد في عظامهم مستقرّاً في قماش الثياب.

«إنها الناعورة» تمتمت «كليمة»، فساءلتها أختها مرتابةً: «كيف تدور، ولم يُسْتَكْمَلْ مجرى المياه إليها؟».

«هذا اضطرامه الناريُّ» قال «مكين»، وأردفَ: «أليس كذلك؟» ملتفتاً إلى حمّال الأمتعة اللاهث، وهو يبتسم، ثم كرّر كلماته: «هذا اضطرام المخلوق الناريّ، وقد يحرق شجرات التوت بعد قليل». وتقدّم فتبعته أختاه، والحمّالُ.

كانت ضخمةً شجرات التوت؛ عتيقةً، لفّاء، تهصُر الظلامَ هَصْراً فيتناثر ضياءٌ معتمٌ حول جذوعها، كأنما هي ليست شجرات، بل أعمدة منبثقة من كثافة الفراغ، شبيهةً - كما تهيأ لـ «مكين» - بتلك الأعمدة التي كان يشتغل على تثبيتها فوق المياه (هو وخَلْقٌ آخر على صورته التي لم يكن لها ثِقَلٌ) في فراغٍ مُقْلِقٍ من ذاكرته، قبل أن يهديه يقينٌ ماكرٌ إلى أنه كان عاملاً على الآلةِ - المدحلةِ فوق الهضبة، يسوِّي الأرضَ، ويتخاصم في الظهرة مع أقرانه المتعبين مثله، ثم يصالحهم ويصالحونه مساء، في الخيام المتجاورة كأثداء كلبة على تُخم الصعيد المُعَبَّد الأسود، فيعمدون إلى المقامرة بقروش قليلة، أو بحصصهم من نبات الشاي، في «لعب الورق» (الكوتشينة) حتى ساعات متأخرة من الليل، بالرغم من الساعات القليلة التي تفصلهم عن الفجر المتلصص عليهم، أبداً، ليقتنصهم بمواعيده المبكرة، المنبثِق واحدُها من أحشاء الآخر، حتى أن عمّال الهضبة يتخذون الفجرَ وحدَه، قياساً، لأن ما يتبقّى من وقتٍ يومهم هو غُلامُ الفجر ورهينتُهُ الصامتة.

ولبرهةٍ تمتلىء ذاكرة «مكين» بالصخب إذْ تعبرها صورُ «أوراق اللعب»، ذات النّظائر الشكلية إلى لا نهايةٍ: رسوم كقلوب متعاكسة، وأخرى كأوراق شجرٍ ثلاثيَّة الفصوص، سوداء وحمراءُ، أما الشخوص المزدوجة من منتصف جسومها، ملوكاً وأمراء وأميراتٍ، بألوان ثيابهم

الزاهية، فهم رتابةُ الخلْق اللامُكْتَمِلة، بانعكاس الأَنْصَاف تلك واحدُها على مرآةِ الآخر. وفظاظةُ الرسوم هاتيك، أنقوشاً كانت أم شخوصاً، لم تكن تُلْحَظ أثناء اللعب تحت الفوانيس الشحيحة المعلقة إلى عَمَد الخيام، بل بعد الفراغ من اللعب، فتَمْثُلْ للعين ـ وهي مطبقة الأجفان ـ كأنها حَفْرُ قاسٍ بأزاميل اليقظة على رقائق الحلم: كُرَاتٌ تسحق الكرات؛ حَبَّاتٌ على شكل قلوب، أو فاكهة، أو ورق أشجار؛ شخوص متيقّظون بعيونهم المستطيلة، وشعورهم المتدلية في خُصَلٍ جَعْداء تحت التيجان الرقيقة والسميكة؛ ثياب مرقشة في تناظُرٍ مُحْكَمٍ، جَهَد رسّاموها ـ طويلاً ـ في استلهام المُزْدَوِجات المتقابلة، بدءاً بالسماء والأرض وانتهاءً بالرَّقم كمُطْلَقٍ في محدوديته.

كانت رسوم «أوراق اللعب» قاسيةً حين ينتهي اللعب، تحديداً، بالرغم من ملامح تلك الرسوم التي تشبه المهندسين الفرنسيين، وزوارهم من العساكر المشرفين على سيرورة العمال هناك. فهم لم يكونوا قساةً ببشراتهم البيضاء، وشعورهم الضاربة إلى الشُّقْرة أو الإحمرار، لكنهم كانوا غرباء يُهَابُون، بما ملكَت آلاتهم، وثيابهم، من سُلْطةٍ في المكان. ثم أنهم ـ بعد كل ذلك ـ أقرب إلى الجنِّ بسبب الغَمْرِ الهائج من المياه في عيون معظمهم، بدليل تلك الزُّرْقَةِ المفتوحة على لغتهم التي لا تتأنى عن التنكيل بالحروف.

«لا ألفاظ لديهم. إنهم يغمغمون فحسب»، هذا ما كانوا يتداولونه ـ «مكين» وأقرانُه من العمّال المتهدِّلِين ـ على الهضبة، وهم يسترقون النظرَ، في حياءٍ إنسانيٍّ، إلى الوجوه المُظَلَّلَة بقبّعاتٍ لها استطالات كبيرة من أمامٍ، تخفي الأنوف الحمراء، الطويلةَ، التي تكاد ترتخي فوق الشفاه الرقيقة، المستقيمة، لمعظمهم. غير أن على «مكين»، وأقرانه، الاعتراف بأن «أوراق اللعب»، القابضة بأشكالها على مصائرها المتناظِرةِ، كانت

عدوى فرنسية محضة، جلبها أناسٌ ضَجرون من بَطَر المصائر المُجتهدةِ في مقامراتها.

عمّال أوائل، ممن بدأوا الأشغال على الهضبة، تعلموا لعب الورق من الفرنسيين بإشارات مضحكة، ثم سرى ذلك العِلْم الرّحيم من فوج إلى فوج، بتجاوزات في القوانين أَمْلَتها الأمزجة، وفروق اللغة: «كَفِّرْها» يحتدم لاعبٌ مّا قائلاً لشريكه، فيرمي شريكُهُ بورقة «الآس»، التي هي فظاعةُ الجبروت مِثْلُهَا مثْل الكُفْر.

ثم تتوالى الإشارات الأخرى، بعد «الآس» الذي يُعادل الكُفْرَ، فيغدو «المَلِك»شارباً محضاً: «اضربه بالشّارب»: وتغدو «الملكة» فَرْجاً: «طِيِّبْها له»، أيْ اجْعلْها مُسْتَطابةً فيُهْزَم الخَصْمُ بغوايتها.. وهكذا ـ ورقةً بعد ورقة ـ لكل رقمٍ جراءَةٌ في التشخيص، من ذات الحَبَّات العشر (أُمّ الخلاخيل ـ هذا اسمها) إلى الحبَّتين اللَّتين مَثّلُهما مَثَلُ «مُنْكَرٍ ونَكِيْرٍ»، مَلاَكَيِّ التحقيق الأوَّليِّ، اللذين يدخلان القبرَ على الميت سائلين: «من أنتَ؟»، فإن ردّ: «أنا فلان» ضرباه بُدرَّةٍ من النحاس تغورُ بِهِ في جوف الأرض ألف عام. أمّا إنْ ردْ الميتُ: «أنا عبد الله» أشفقا عليه بانتسابه إلى الذي لا انتساب لمخلوقٍ إلاّ إليه، ومن ثم يخففان من أسئلة مَحْضَرِهما الشفهيِّ حتى يَحْكما له، أو عليه، دون إفراطٍ في الوعيد.

والورقة ذات الحبّات الثلاث هي «تيس الفَلَك». هكذا، هي «تيس الفَلَك»، الذي لا يعرف اللاعبون لماذا هو تيسٌ، تحديداً: أيقودُ فروقاً من الأرقام في بياض الورقة الأملس؟ أَمْ ذكورةٌ مّا في الرقم المُفرد هي التي تُملي اغتصابَها على الرقم المزدوج؟. والورقة ذات الحبات الأربع اسمها: «الجنُّ»، لأن حبّاتها تحيط بالفراغ من جهتين اثنتين؛ من شمال وجنوب ليس للشمس فيهما مطلع أو مغيب، والبياضُ المحَاصَر بين الجهتين بياضٌ مذعورٌ وقلِقٌ، لا حظَّ له في ترجيح كفَّةِ لاعبٍ على آخر.

بَيْدَ أن الورقة ذات الحبَّات الخمس هي فألٌ في التوسُّط، قد يميل إلى سوءٍ أو خير، لذلك تُلَقَّب بـ «السّراط» الرقيق كالشفرة، الذي سيعبره المرضيُّ عنه، يوم الحساب، هرولةً كأنه طريق إسفلتيّ، بينما يتذبذب الشقيُّ على حَـدِّه، كبهلوان غِـرٍّ يمشي على خيطٍ، فيسقط وقـد انشقَّ نصفين. وورقةُ الحبَّات الستِّ فظاظةٌ بحقٍّ، تـرجِّحُ نصفَ العَشْـرَةَ على نصفها الآخر دون أن يعني ذلك رِبْحاً لِلّاعب، لذلك يسمّونها «الغادرة»: «افْتَتِحْ بالغادرة» يقولها أحدُهم لشريكه إذا وثق من امتلاكه لها، فتكون ورقةُ الحبّاتِ الستِّ هي الهبوبُ الأول للحظوظ على فجاءاتها المحسوبة.

والسبعةُ؟ أربع حبّات من فوق، وثلاث من تحت، أو عكس ذلك؛ لكنها سبع حبّاتٍ مرمية، كتخمينٍ يرصدُ الغيبَ، على بياضٍ ذي شكوكٍ ثقيلة، متطيِّرٍ كأنما يسجد لله مرَّةً، وللشيطان مرَّةً أخرى: «النشادر»، هذا هو اسمها ـ اسمُ الورقةِ الحامضةِ بحبَّاتها السبعِ، التي تثير الحروقَ إذا لم يتوقَّ اللاعبُ الحَذَرَ في لمسها. وهي ورقةٌ مُتكلِّفة، وصَلِفةٌ، أيضاً، تختتم الأيامَ الستةَ لتعب الخلائق لتكون مُفْتَتَح الأيام الستةِ من التعب اللاّحق. مزيَّنةٌ بكل شيء يخص الشعوب والآلهة طُرّاً؛ «نشادر». حجرٌ يستخدمه لحّامو القصدير، ويرشّ البعضُ بدقيقه المطحون مؤخراتِ الحمير الكسولة فتغدو رعناء لا تهدأ.

لكن ورقة الحبّات الثماني، بالرحمة التي في تناظُراتها البسيطة، هي «الخاتون» ـ السيدة العفيفة والمقتـدرة؛ الممتلئة بمـا وُهِبَتْ من رَغْدٍ في العيش؛ الجليلةُ في مقام اقترابها من العشرة.

«خاتون». يلفظونَها رقيقةً في لعبهم، فتُرمى الورقةُ على مهلٍ.

والتسعة؛ ذات الحباتِ التسع هي «ابنة الجنِّ». قريبةٌ من منتهى الرَّقم الذي هو عشرة، وأقلُّ من صورةٍ. إنها تسعة كالعبث. تسعةٌ دون كمالٍ، مرمية على شفير الأرقام. مَرْصُودةٌ لأنها مُلْغِزَة. ومُهَابَةٌ، أيضاً، لأنها فَوْزٌ

مُحْتَمَل إذا لم تلتقطِ العشرةُ ـ بأنيابها القَذَريةِ ـ مذاهبَ اللُّعبةِ المفتوحةَ على الدنيا.

«دُنيا» يتمتم «نعمان حاج مجدلو» من وراء مقود سياته الذي يلمسه بيدين باردتين، في ارتداده على المقعد إلى الخلف كأنما سينام، في الثِّقَل السارح لتلك الليلة التي يغادر فيها منزل «كرمو موزان» من غير أن يـدير المُحَرِّك، متناوباً ـ هو والظلام ـ على التفكير في صباح أكثر ثرثرةً، كاعترافٍ لن ينتهي.

وماذا سيحمل الصباح من ثرثرةٍ إلى «نعمان»، الذي يسلب الصباحَ ثرثراته؟: سُعاله هوَ، وضجيج محرِّك السيارة. الذهـاب إلى سوق البلدة بصوته ـ صوت الدَّلَّال: «راكبٌ. . راكب واحـد إلى الحسكة»، هـذا ما سيتشدَّق به في الضياء الخافت لسماء الغيم، طالباً راكباً واحداً، كأنما لا متّسع بَعْدُ إلاّ لواحد، ولمّا تزلْ مركبته فارغة، بـاردة من أثر الليـل الذي تمدّد، بارداً ، على مقاعدها. ومن حوله ستتقاطع أصوات دلّالين آخرين يبيعون الخراف، والدجاج، والجِبْن، واللبن، إلاّ رجلاً في جُبَّة قديمةَ، يعرض ـ صامتاً ـ سُبَّحاتٍ من نُوى الزيتون متدلية من راحتيه المبسوطتين، وهو يبتسم للغادي والرائح دون حاجة إلى تمجيد بضاعته بكلامٍ: السُّبَّحة هي منزل التقوى، بها يُذْكَر الله لمسةً لمسةً بالأنامل.

لوعةٌ مّا تصعد من حلق نعمان، مع دخان لفافته التي يضيءُ جَمرُها، خَطْفاً، سَكِينَتَهُ الممتلئةَ بـ«هدلة»، في ظلمة السيارة. لكنـه يكاد يؤمن، لبرهةٍ، أنَّ زوجَهُ «نورا» تقرع بأناملها زجاج النافذة الخشن، مبتسمةً، ثم تعود أدراجها، كأنما أيقظته لا أكثـر. ويديـر «نعمان» وجهـه إلى النافـذة الأخرى وقد همَّت نفسُه أن تريه « كرمو موزان» عائداً إلى البيت، ليلحق به فيكون له عُذره للبقاء حتى منتصف الليل إذا أمكن، لأنه، بعد بَوْحه إلى

«كاني» بميله إلى «هدلة»، حَدَتْهُ رغبة في حراسة سِرِّه ذاك حول منزل «موسى»، تلك الليلة.

عرا «نعمان» ندمٌ خفيف، على أية حال، من أن يُلقي بنفسه ـ هكذا ـ خفيفاً أمام «كاني»، لذا سحقَ جمرَ لِفافته على زجاج نافذة السيارة، غير آبه بالشّرر الذي هبط وديعاً، وأنيساً أيضاً، على المقعد، وعلى كُمّ سترته، ثم أغمض عينيه يتفكّر في الطنين الذي يسمعه إلى الجانب الغربي، من الطريق، في عبوره إلى الهضبة. وهو لن يعرف لماذا تبادر إليه أن يتفكر، تلك اللحظة، في أمر الطنين الصادر من بين شجرات التوت، لكن وتيرةَ الصوت الغامض، المحفوظ في أعماقه، جرَّتْهُ إلى سبات ثقيل.

«أنقرع الباب؟» سأل «مكين» أختيه، فأمسكتا عن الجواب، ثم استدارت إحداهما إلى الأخرى كأنما لم تفكّرا، من قبل، في طريقة للدخول على الكائن الناريِّ. وقد أدرك «مكين» حيرتَهما فالتفت إليهما متأملاً نقوشَ الظلام الرقيقة على وجيهما:

ـ ربما علينا أن نناديه.

«بِمَ نناديه؟» أجابته «كليمة»، وخاطبت أختها: «أنناديه باسمٍ ما، أم نقرع عليه بابه؟»، فقاطعها «مكين» محتدماً:

ـ ما الذي جئتما تفعلانه، هنا، بحق الله؟

فأمسكت «نفير» به من كتفه، محتدمة بدورها:

ـ أنت تنسى، شكوكُك تُنْسيْك.

«لا شكوك لديَّ» ردّ «مكين» مخففاً من نبرة صوته، وأضاف هامساً: «أنتما لا تعرفان كيف ندخل عليه».

«ولماذا لا تعرف أنت، يا مكين؟»، سألته «نفير»، فصعدت الحيرةُ إلى رئتيه لبرهةٍ، كطَعْمٍ مالح، ثم استدرك كأنما أسعفتْهُ قريحته: «فلننظرْ في هذه الأمتعة»، وأشار إلى الأحمال التي ينوء تحتها الشخص الذي

يدعونه «كلباً»، مضيفاً: «الإشارات المرسومة على رقائق الجلد قد تدلُّنا». فهزّت «نفير» رأسها علامةَ نفي:

ـ الأمتعة هي للكائن الناريِّ هذا. إنها وديعةٌ من الودائع التي علينا أن نسلِّمها إليه.

فتأملها مكين» لحظة: «ألم نفتحها قبل مجيئنا إلى هنا؟ مدَدْنا الجلودَ تحت السراج، في البيت هناك. فَرَدْنا الأمتعة كلَّها: الأغلال، والأقفال، واللفائف . . » فقاطعته «كليمة»:

ـ لنتأكّد أنها له، يا مكين.

«ألم نكن متأكدين أنها له، يا أختي؟»، سألها «مكين» هادئاً، فردت:

ـ بلى.

ـ «ولماذا فتحنا الأمتعة، إذاً؟»، همسَ سؤالَهُ همساً، فأجابته وهي تتقدم صوب باب المنزل:

ـ عدتَ إلى شكوكك.

فانتابتْ «مكين» نوبةُ غضب دفعته إلى استباق أخته إلى الباب، ثم قَرَعه عنيفاً «أنتَ. . أنتَ الذي هناك. . »، فشدَّتْه «كليمة» من ردفه شداً قوياً، صارخةً به: «ما الذي تفعله أيها الأحمق؟»، وهرولت إليه، في اللحظة تلك، «نفير» أيضاً، بصوتٍ تهدَّج من انفعاله: «إهدأْ. نسيتَ المواثيق».

هدوء، فظٌّ كثرثرةٍ، شملَ الواقفيْنَ الأربعةَ في الساحة الصغيرة، الدائرية، أمام الباب المنخفض عن مستوى الأرض مقدارَ درجتين طينيتين تفضيان إليه نُزُولاً. بل كان ثلاثة منهم واجمين، فيما حامل الأمتعة ينتظر التدبير الذي سيتخذونه. لكنهم تناهشتهم فكرة أنهم لا يعرفون، بغفلة بسيطة، كيف يستدرجون الكائنَ الناريَّ للخروج من مكمنه تحت ناعورة الماء، في الرطوبة المظلمة لركنٍ سُفليٍّ في البيت المهجور.

كيف لم يسّاءلوا، من قبل، في الأمر؟ كيف عَمِهوا في برهتهم تلك، على خطوات من الباب؟ بيد أن «مكين» وحده، في وجومه ذاك ، كـان يستعيد النهبَ الذي استبدَّ بأعماقِه، إذْ جَرَّهُ الطنِّينُ المختنق في أساسات البيت ـ حيث يقفـون ـ إلى استـذكـار صـوت مـدْحَلته الصفـراء، ذات العجلات الثلاث، الحديدية العريضة، المجوَّفة من دواخلها كي تُملأ بالمياه لتزداد ثِقلاً في عبورها على الحجر، والحصى، والإسفلت، فتستوي الأرضُ أمامهـا كأقـدارٍ ملساء.

كان مقعد المِـدْحلة عاليـاً، وسط هيكلها الضخم المـرتفع، حيث يُشرف «مكين»، من سَمْتِهِ على غدِ المكان حين يصعدها، ويدير محرّكها بوطأةٍ قوية من قدمه، ساحباً مُوْقِدَ الشَّرَرِ بيديه من اللَّوح المُفَكَّكِ أمامه، ويهدرُ ـ هو ـ في مَرَحٍ كهدير المدحلة: «ابتعِدوا» يقول للعمـال المنحنين بمـطارقهم على الحجارة يهشمـونها أوّلاً، فيمـا يكمل «مكين» مـا نسيته الحياةُ: أن تكون الأشياء متساوية في سطحها، متجاورة ومتّحدة على نحوٍ يبعث على الضِّيْق. غير أن المرحلة الثانية من عمل «مكين» على مدحلته كانت أن يخنق الحجرَ بالحصى الإسفليّ الذي يسدّ مسامّ الحـجر وشقوقه بغطاء أسود يصعد البخار منه، بعدما يدلق العـاملون عليه قـاراً مغلياً في براميل على نار، بينما يمضي آخرون إلى دَلقِ الماء، من سطول معدنية، على العجلة الضخمة الأمامية للمدحلة، تباعاً، حتى لا يلتصق بحديدها الزفتُ الذائب.

«كيف كنتُ هناك، وكنتُ هنا، أيضاً؟» سأل «مكين» نَفْسَه الموزَّعةَ على وجومٍ شقيقتيه. كان يسوّي الأرضَ بمدحلته هنا، ويقيم أعمدةً من ضياء وظلام على المياه هناكَ. كان يشرف على الفراغ المفتوح على الفراغ هناك، ويشرف على الحدود المرسومة بأوتاد خشبية، كعلاماتٍ هنا.

كان المكان هناك كميناً من التخاطر بين خلائق حَسْبُها أن تتفانى في ابتكار شِفَافتها، وهي تذوب حياةً من النور ويذوب النورُ حياةً منها: فَنَاءٌ

مُعْضِلٌ كحقيقةٍ في سجودها. أما المكان، هنا، فحسابٌ من الهواء يَعُدُّه «مكين» على أصابع يديه الممسكتين بمقود المدحلة الآلية، وهو يرى نُظَرَاءه من مقعده العالي، ينتصبون مرَّةً وينحنون أخرى، دقيقةً دقيقةً، مُصغين إلى التعب الذي يستلقي تحت مطارقهم ضاحكاً، كأنما يدغدغونه. وكانت الأرض التي تتمهَّد، مستويةً ملساءَ تحت زحف الإسفلت، تبدو لـ «مكين» مجوَّفة، ترتسم على حوافها السوداء نقوشٌ بارزة لأسوارٍ عالية، وطيور، وهياكل سُفُن لم يَرَها قط، فيما تغور أعمدةٌ مقلوبة، تتَّجه إلى أسفل، في الإسفلت الملتمع كمرآةٍ من ظلامٍ مُتَمسِّدٍ بالزيت. ويرى، أيضاً، هيكل آلته الحيوانيَّ منعكساً على التجويف الواسع الذي يتهيأ له، كأنّما تلتهم الصّورُ الرّقراقةُ في السواد كثافةَ الأشكال، ويتماوج كلُّ مستوٍ.

لا يعرف «نعمان حاج مجدلو» لماذا تطلب منه «هدلة» أن يمنع «هبة» من نزول الهضبة. هو سائق سيارة العائلة، لا أكثر. لكنه، في تلقائية المتدرِّب على أمور بيت «موسى موزان» يهرع إلى الفتاة الصغيرة، الشعثاء الشعر، متوعِّداً: «لا تصعدي السيارة»، ويستدرك أن عليه أن ينهاها عن نزول الهضبة، وليس صعود مركبته، فيكرِّر وعيده: «لا تناديني أبي، أنت لست ابنتي»، فتومىء «هبة» إليه بيدها فيقرِّب «نعمان» رأسه منها: «أمي تريد سُتْرَتَك هذه»، تقول له، فيضع «نعمان» راحته على صدر سُتْرَته مستغرباً: «سُتْرَتي هذه؟ إنها مغبَّرة»، ويشدّ راحته عليها كأنما يعتصرها، ثم يفتح عينيه مجفلاً عندما يسمع قرعاً على نافذة السيارة، ويستوي جالساً على المقعد بعدما كان نصف مُسْتَلقٍ وراء المقود، في إغفاءته، فيستجلي وجه «كاني» المُعتم وراء الزجاج، فيفتح الباب ويترجل مستغرباً، لكنها تبادره باستغرابها هيَ: «ما الذي تفعله هنا؟ أتنام في السيارة؟».

«أنا؟» قالها «نعمان» في نعاسه، ثم تطلّع إلى السيارة باحثاً عن برهان على ما تقوله «كاني»، فأدرك أنه كان نائماً فيها فعلاً، وهو لمّا يزل ممسكاً، بجماع يده اليمنى، صدرَ سترته، فأرخاها هامساً: «أعاد العم كرمو»؟.

«أخذوه إلى بلدة دير الـزور، حيث اقتادوا حسين مصـطفى آغا»، وألوت عنقها صوب البيت «أحمد لالُوْ أخبرنا توّاً، وقد رأى السيارة واقفة هنا في مجيئه»، وتنهّدَتْ: «جئتُ استطلع». وحدقت فيه: «لماذا لم تغادر إلى البيت»؟.

«كنت انتظر عودة العم كرمو» قالها مُبَرِّراً.

«لن يعود» قالت «كاني» بصوت خفيض، حازم، ثم استدارت عائدة إلى المنزل.

ظل «نعمان» سارحاً لبرهةٍ، في وقوفه، غير قادر على قرارٍ صغيـر: أيرجع فينام في المركبة، أم يمضي إلى البيت؟ غير أنـه خشي من ظنون عائلة «كرمو» إذا لم يغادر، فغادر العراء المظلم بعدما لفَّ رأسه بحـطّته كعمامة، سائقاً على مشارف البيوت المتناثرة في سرعة يختضُّ لها أحشاء المكان. وإذا دخل الأزقة الطينية، المفضية إلى بيته، فتح العنـان لبوقـه المزمجر، وهو يصرخ من نافذة السيارة المفتوحة: «أيها النيام. . أيتها البيوت النائمة»، لكن ما من أحدٍ استطلع ضجيجه وضجيج آلته. ولمّا أوقفها قرب بيته الذي لا سور من حوله، تطلع إلى النوافذ الساكنة من الجهات كلها، ثم صفق باب العربة صفقاً قوياً من خلفه كأنما أغاظه أن لا يرى فضولاً في السكينة الباردة. وعمد إلى مفتاحه الحديد الكبير يعالج به قفل باب البيت، ودلف إلى حيث العتمة المكسورة كسوراً خفيفةً في الضياء النائم للمصباح الذي خفَّفت «نورا» ذُبالته حتى لا يزعجها إذا نامت.

تقلّبت المرأة تحت اللحاف السميك، فاتحةً عيناً واحدةً متذمـرةً: «أَعُدتَ؟» قالتها في كسل، فلم يتكلم «نعمان»، بل عمد إلى خلع حذائه وثيابه، ثم ارتدى ـ حين صار في سروالٍ يصل إلى ركبتيه ـ جلباباً، منسلاً من فوره إلى الفراش.

«أتعشَّيت؟»، ساءلته «نورا» همساً.

«لا»، ردَّ.

«ألن تتعشى؟».

ـ لا.

كان الليل، في الخارج، خافتاً كهمس «نعمان» و«نورا»؛ نصف يقظان ونصف نائم؛ غير عابىء بمن يتسللون عبر أسواره الرقيقة إلى غنائمهم، ألصوصاً كانوا أم حالمين: هكذا، على أية حالٍ، كانت الأشكال المعتمة ـ بنعمة اقتدارها على الإفلات من مكائد الضياء ـ تتشابه وتتقاطع في أرجاء الأرض، برغم بعد بعضها عن بعضٍ. فأولئك الواجمون بين أشجار التوت، غرب الطريق المُفضي إلى الهضبة، يشبهون في قلقهم أولئك الصاعدين ببغالهم إلى جبال الأكراد، شمال غرب كردستان سورية، الذي يشكّل امتداداً جنوبياً لكردستان تركيا. وأغلب الظن أن «سعيد آغا الدقوري»، صاحب ثورة «عامودا»، كان في تلك الجبال، وقد نزح إليها بعد غارة الطائرتين التي شهدها «موسى موزان» قبل سنين عَدَداً، مخترقاً الحدود التركية صوبها، بلحيته الزرقاء كغابات السفح الغربي من جبل «أمانوس» المفتوح على رياح الاسكندرونة.

وما الذي كان «سعيد آغا الدَّقوري» يلتقط من رياح الاسكندرونة، على أية حال؟ لقد كان هناك. بل أغلب الظنّ أنه كان هناك حتى لو لم يكن هناك. فالجبال التي سُمّيت باسم عرقه الكردي، حَرِيَّةٌ بوجود صارمٍ مثله أكثر من أي مكان آخر، برغم أن «الدقوري» رجل سهولٍ، لكنها كانت سهولاً لم تعرف الطائرات من قبل، فما قدرت على إلجائه بأمومتها كقدرة الجبال التي يلتفُّ بعضها على بعض فتموِّهُ الهواء على الهواء.

كان الليل خافتاً، في الخارج، عبر اللهاث الخفيض للأرض من جبال الأكراد حتى بلدة «القامشلي» النائمة إلّا من بعض اليقظانين من أرقٍ أو سمرٍ، وفيهم «نعمان» المحدِّق في أعمدة السقف وهو مستلقٍ على

فراشه: «نورا» تمتم من تحت شاربيه، فجاءته غمغمة خفيضةٌ لا تسمع:

ـ ها. .

«أحبُّ هدلة»، قالها بعينين مطبقتين لم يفتحهما إلّا بعد سماعه صوت «نورا»:

ـ ما بها هدلة؟

«أحبّها، يا امرأتي»، ووضع يده على جبينه، فيما انقلبت «نورا» على جنبها الأيسر، وأرسلت في الظلام شخيراً خافتاً.

كان في مستطاع ذلك الليل الخافت، المتهيِّء للقهقهة، أن يَهَبَ منام «نعمان» أطفالاً كثيرين، لكنه لم يفعل. ولربّما أدرك «نعمان» ما يعتمل في سريرة الليل فاسترسل في يقظته لا ينام، حاشداً من حوله أطفالاً لاهين وباكين، يشدون حطته حتى تقع، ويعبثون بشاربيه، فيطفىء لفافته في باطن يده حتى لا تحترق أيديهم، من غير أن ينحني، خوف سقوط أحد المتعلقين بثيابه، فيما ينهر بعضهم بصوتٍ غير حازم وهم يتبوّلون على الوسائد وعلى نار الموقد، داخل المنزل. أما في مركبته الآلية فالوضع مختلف: أطفال يعضون المقود، أو يلصقون أفواههم بزجاج النوافذ يبللونه بلعابهم، وآخرون يهبطون كالكبار من أبواب السيارة، ثم يستلقون تحت هيكلها معاينين الأحشاء المعدنية الغبراء، المبقعة بالشحوم والزيوت.

أطفال من كل صنفٍ يعبرون يقظة «نعمان»، حتى أولئك الذين يأكلون مقابض أبواب السيارة، ويقطعون أسلاكها الكهربائية بأسنانهم. و «نعمان» يبتسم للمَشْهَد: «هنيئاً» يقول، مضيفاً: «كلوا السيارة. كلوا ثيابي. كلوني. .»، قل أن يغفو، مبادلاً زوجه «نورا» شخيراً بآخر.

«أصغيا» قال «مكين» لأختيه، دون حاجة إلى تذكيرهما بإصغاءٍ، فهما كانتا صامتتين، على أية حال، في عتمة الطيِّف ـ حمّال الأمتعة الواقف وراءهما. غير أن ما نبّههما «مكين» إليه لم يكن إلّا صوت آليات تعبر

الطريق العالي إلى الهضبة صفًّاً قصيراً، وبطيئاً في الآن ذاته، بأضواء شاحبةٍ كخيط من الحباحب، وبهدير مختنق مثل الهدير الصاعد من أعماق المنزل الغارق في اطمئنانه وسط أشجار التوت. وقد بادرت «نفير» أختها وأخاها متسائلة، للمرّة الأولى، في أمر سهوا عنه: «لم يستطع موسى موزان وصهره إكمال مجرى المياه إلى الناعورة لتدور، فمن أين، إذاً، هذا الطنين العميق داخل المنزل؟».

كان سؤالاً مالحاً. هكذا أحسَّه «مكين»، فردَّ من عفوهِ: «هو يديرها»، مضيفاً بعد برهةٍ صامتةٍ: «هو الذي يدير الناعورة»، في إشارة منه إلى الكائن الناريِّ.

«ما النفع في ذلك إذا لم تكن هناك مياهٌ؟» سألتْ «كليمة» أخاها، الذي ردَّ:

ـ لست أدري يا كليمة؛ أمورٌ كثيرة تغيب عنّا.

«عدت إلى شكوكك» تمتمت «كليمة»، فَأُغضب «مكين»:

ـ نعم. ثمَّت ما يقلقني. لقد استدرجتماني..

«ما الذي تقوله، أخي؟» سألته «نفير» عاتبةً.

«لستما متأكدتين من شيء» دمدم «مكين»، وأشار إلى باب المنزل: «أخرجاه. أخرجا هذا الكائن».

«لماذا نسيت، أنتَ، كيف نستميلُهُ ليخرج؟»، سألته «كليمة».

«لم أنسَ» صرخ «مكين»، مضيفاً: «كيف أنسى ما لا أعرفه؟».

«كنت هنا، على الهضبة..» قالت «نفير» بصوت هادىء.

«نعم. كنتُ هنا» ردّ «مكين».

«كنت هنا طوال الوقت» قالت «كليمة» كأنما تشرح كلمات أختها التي

لا تحتاج إلى شرحٍ، فردّ «مكين»: «ما غايةُ شرحكما؟ كنتُ هنا»، وأغمض عينيه متمتماً: «كنتُ هناك أيضاً».

«أين؟» ساءلته «نفير»، فأبدى «مكين» ذهوله من سُؤْلها:

ـ أتمتحنانني؟

«لا نمتحنك يا مكين» قالت «كليمة»، مضيفةً: «نذكِّرك».

«بمَ تُذكّرانني؟» سألها أخوها، فردّت:

ـ بالنّسيان الذي عليك أن تمتحن نفسك به.

أيُّ نسيان يلقي بـ مكين» إلى بلبلةٍ كفراغٍ مقلقٍ، في وجوده أمام باب ذلك الغارق بين أشجار التوت؟ فهو، حيث انحدر من الهضبة، مع أختيه، والحمَّال ـ الكلب الصامت، كان واثقاً من مهمّته على نحو لا يوصف، كأنَّ إنجازها لن يستغرق إلاّ طَرَقاتٍ خفيفة على الباب، ليفتح الكائن الناريُّ ملجأهُ الموحش، خارجاً يتثاءب: «جئتم، إذاً؟». لا. لم يطرق «مكين» الباب. لم تطرق أختاه الباب. وقفوا، فجاءةً، في حيرة: «أنناديه؟»، هذا ما تهامسوا به. لكنْ، بأيِّ اسمٍ، أو إشارة، عليهم أن ينادوه؟ ذلك هو ما أجفلهم.

غيـر أنهم شردوا بعض الـوقت عن أمرهم، حين تصـاعد ضجيـج مبـاغت، بعيد، من جهـة السفح الشمـالي للهضبة، المُـطلِّ على العراء الكلسي الشاسع، فرأوا رتلاً من المداحل المضيئة ككتلٍ من النور تصعد في خط قوسي إلى أعلى. ولكي يتسنى لهم معاينة المشهد أكثر تقدموا إلى خارج السياج الكبير الذي تشكله شجرات التوت، من غير أن يلحق بهم حمَّال الأمتعة الخالي من الفضول.

لقد استطاعوا تمييزها من مطرحهم البعيـد: إنها مـداحل، وليست آليّاتٍ أخرى. عجلاتُها الضخمة الأمامية تبدو منفصلة عن هياكلها؛ هذا ما

دلَّ عليها. لكن «من أين تصعد؟ لا طريق هناك؟» تمتم «مكين» مأخوذاً، فلم يردّ عليه أحد.

أختاه، أيضاً، كانتا مأخوذتين: لقدر رأتا المشهد من قبل، حين كانتا تشتغلان مع خلائق كثيرة أخرى على تثبيت أعمدةٍ من نورٍ صلبٍ على المياه، ليستقيم الفضاءُ الحقُّ على عرشه الحقِّ باذخاً حتى الفتنة.

كانتا هناك، مثل «مكين»، في الجهة الأخرى من مشهد الوقت الظاهر، قبل مجيئهما. وكانتا تريان، في مجاهل النور وانقلاباته، أسراباً من كل شيء ترقى ـ كصعود تلك المداحل المضيئة سفح الهضبة ـ الأفلاكَ المتصلة حلقات، في اتجاه يقينها المحكم بغواية الفراغ المتوالدِ عذوبةً عذوبةً خلف فاصل الضرورة ونعمتها الملطقة.

رأتا المشهد، من قبل. وبرغم ذلك بدتا مأخوذتين، تماماً كحالهما حين أبصرتا «مكين»، من مكانهما خارج الوقت الظاهر والمكان الظاهر، وهو يقود مدحلته وسط صراخ يعلو بين الحين والآخر، متوعداً بعض العمال الكسولين كي ينجزوا رصف الأرض المُمَهَّدة. «كيف؟» قالت إحداهن للأخرى، مضيفة: «ألم يكن معنا، هناك؟ ألم يكن بين الخلائق العاملين على تثبيت الأعمدة فوق المياه؟».

كانتا ستلتقيانه، بحسب ما ظنّتا مرسوماً لمهمَّتهما، في مكان ما من الأرض الكلسية الشاسعة، كأنّما الجميعُ قادم من الفضاء الآخر إلى موعدٍ مُعلن سلفاً. لكنهما فوجئتا أن شقيقهما يشتغل عاملاً على الهضبة. وقد أحسَّ، هو نفسه، بوجودهما في الأرض الكلسية، فوافاهما بغريزة الغيب التي فيه، كاتماً عتباً غير مفهومٍ لم يحتبسه طويلاً، حين بادرهما:

ـ لقد استدرجتماني..

لماذا تستدرجانه هو، شقيقَهما في اليقظةِ الأزليةِ؛ اليقظةِ التي كلَّمت ذاتَها بكلماتِ الحلم فاستولدتِ الأكيدَ غيرَ المُدْرَكِ؟ «لا. لم نستدرجك

يا مكين» كان في مقدورهما أن يردّا عليه، لكنهما وبّختاه: «ما الذي تقوله؟». وها هما، «نفير» و «كليمة»، تجدان نفسيهما ـ على نحوٍ مُبهم ـ مُسْتَدْرَجَتين إلى منزلٍ غارق بين أشجار التوت، دون أن تعرفا خطوتهما التالية لإخراج الكائن الناريّ منه.

«فَلْنرجع» قال «مكين» وهو ما يزال مُستغرِقاً ببصره في مشهد المداخل المضيئة صاعدةً الهضبةَ، بينما وجمتْ أختاه مترددتين، ومن ثم وافقتاه على فكرته بحركاتٍ صامتة من أيديهما وهما تلتفتان إلى حمّال الأمتعة، المنحني في الظلام كأنّما يحاكي بشبحه جذعَ إحدى الشجرات.

كان الليل مسترسلاً في تدبير شؤونه الصامتة حين غادر الأربعةُ منطقةَ أشجار التوت، عائدين إلى بيت «موسى موزان» الذي استأجروه، عبر الطريق المُمَهّد الذي يقطعه الجسر الصغير، متمهّلين في مشيهم المُواكِبِ بنفحاتِ الهواءِ المقذوفِ من جهة النهر، حاملاً رائحةَ طينه، ورائحةَ عشبه الطريِّ، واغتلامَ مائه المفتوح للغيوم المتوعِّدة.

صامتاً، لا مبالياً كان المكانُ في حضور الليل الغوّاصِ، لكن «جاجان بوزو» أَقْلَقَ الكثافةَ المُتْرَفَةَ للجهات بظهوره الفجائيّ، من المُنْحَدَر الشرقيّ للطريق، متوكئاً على عصاه الغليظةالطويلة،ومن ثم توقّف يتأمّلهم في فضول كبير. غير أن «مكين» وأختيه تجاهلوه فعبروا هيكله الشبحيَّ الذي يسندهُ معطفٌ تصطفق حواشيه.

لم يَرُق الأمرُ للرجل الأعجف، فتتبعهم ينقر بعصاه الأرض عصبيّاً، كأنّما يبلّغهم استياءه من تجاهله. وقد أدركت «كليمةُ» مرادَهُ فالتفتت إليه متوقفةً:

ـ أتريد شيئاً أيها الرجل؟

«نعم» ردّ «جاجان» من فوره.

«ما الذي تريده؟» سألته «كليمة»، فتردَّدَ «جاجان» لا يُجيبُ للحظةٍ، ثم باغتهم سائلاً: «ما الذي تفعلونه هنا، في هذا الليل؟».

«ما الذي تفعله أنتَ، هنا، في هذا الليـل؟» بأدلـه «مكين» سؤالاً بسؤالٍ، وهو يتقدم إليه.

«أحرسُ النهرَ» قال «جاجان بوزو» في ثقة كادت تتهشم تحت وطأة سؤال «نفير»:

ـ من خوَّلك حِراسةَ النهر؟

اتسعت حدَقَتا «جاجان» من ذهولهما في الظلام الواشي. لقد كان مخوَّلاً بحراسة الحقول على ضفتي النهر، أمَّا النهرُ نفسه فما من حاجة به إلى تخويل أحدٍ لحراسته. هكذا هو يحرس النهر أيضاً. هكذا هو والنهر يجريان معاً، من الغرب إلى الشرق، في تماوج مدروس ككشَّافين؛ بل في سباق رحيم يستطيع «جاجان» أن يبدأهُ من جديد حين يشاء: مِمَّا قبل الجسر وممَّا بعده، من الأرض الكلسية أو من أسفل الهضبـة الطينيـة شرقـاً؛ من المُنحنى الغربيِّ، قرب قرية الهلالية» ذات البيوت الأربعة، أو من المُنْحنى الخفيف الذي يُفضي بالنهر إلى دَسْكرةٍ من بيتين سيسمونها قرية «جِلْكو» فيما بعد، يقطنها سِريانٌ وأرمن.

أنا أحرس النهر. هذا ما نطق به «جاحان» دون تقديم براهين على ذلك لسائلته «نفير»، قبل أن تفاجئه «كليمة» بسؤال خفيف ـ ثقيل: «أتعرف مَنْ يقطن ذلك المنزل؟»، وأشارت إلى أشباح شجرات التوت التي لا تُرى.

«نعم» ردّ «جاجان»، مضيفاً:

ـ ما الذي تفعلونه هنا؟

«أتعرف ما الذي يفعله قاطن ذلك المنزل؟» سألته «كليمة» متجاهلةً سؤالَهُ هو، فردّ عفوياً: «يحرس المياه».

«أية مياه؟» سأله «مكين»، فبدا على «جاحان» الحذرُ، عـائداً إلى استنطاق الجماعةِ: «ما الذي تفعلونه هنا؟».

«نحرس المياه» قالت «نفير»، فبوغت «جاجان» من جوابها:

ـ تحرسون المياه؟!

«نعم» ردّت «كليمة» فانطلق لسان الرجل الأعجف في تحقيق ساذج:

ـ أتحرسون مياهاً كمياه هذا النهر؟

«مثلها، تماماً» قال «مكين».

فانحنى «جاجان»، بجذعه على الأرض يغرف بيده مياهاً لا تـرى، سائلاً من جديد:

ـ أتحرسون مياهاً حقيقية؟

لم تجبه المرأتان وأخاهما، وقد استرعتهم حركات الرجل الأعجف الذي كرّر سؤاله حين وجدهم ساهمين، فأكد له «مكين»: «نعم» بهمس خفيض، وإيماءة من رأسه: «نعم، نحرس مياهاً حقيقية».

إذ ذاك استند «جاجان بـزو» بيديه على تمرةِ عصاه الغليظة، مرسلاً سؤاله من حنجرة موحشة: «لا مياه هنا غير مياه هذا النهر»، وتأمّلهم قليلاً ليضيف: «أنتم لا تحرسون هذا النهر. أنتم لستم من هنا». واستدرك مُجْفلاً من تلقاء نفسه: «لا تقولوا إنكم تحرسون البحر؟»، ووجَم ينتظر جـواباً. لكن «مكين» وأختيه بقوا على صمتهم الذي أَلْهَم الرجل الأعجف أن يختلق أجوبةً لأسئلته الخرساء: «أنتم تحرسون البحر؟ ها؟. أنتم تحرسون البحر عرفتُ ذلك»، ودار نصف دورةٍ من حولهم يتأمّل أجسادهم المعتمة، كأنّما يطمئنُّ إلى أنه سَبَرَ أغوارهم: «هاها. تحرسون البحر»، وتوقّف متمتماً يُقنِعُ نفسه بأمرٍ غابَ عنه: «لو لم تتكلّموا بالكردية لظننتكم فرنسيين».

«أنشبه الفرنسيين؟» سألته «نفير» بصوتٍ فيه نبرةُ دعابة، فردّ «جاجان»:

ـ نعم. أنتم تحرسون البحر، والفرنسيون يجيئون من البحر.

«وما أدراك أننا نحرس البحر يا رجل؟» سأله «مكين»، أجابه «جاجان»:

ـ ما دمتم لا تحرسون هذا النهر، فأية مياه تحرسون، إذاً، إلاّ مياه البحر؟.

تطلعت «كليمة» إلى أختها وأخيها، في ضجر، ثم حاولت إنهاء ذلك اللقاء العارض مع الرجل الأعجف:

«سنحدثك فيما بعد أيها الرجل...»، وأردفتْ: «ما اسمك؟».

«أنا جاجان.. جاجان بوزو، حارس النهر»، ردّ الرجل الأعجف سريعاً، واستدركَ: «لم لا نتحدث الآن؟».

«لا وقت لدينا» قال «مكين»، واقترب من وجه «جاجان» متفحّصاً: «نتحدَّثُ غداً يا سيد جاجان».

«أنتم مستعجلون» ردّ الرجل الأعجف، فاستغلظتْ «نفير» إلحاحَهُ في محادثتهم، قائلةً:

ـ نعم، نحن مستعجلون.

«الفرنسيون، وحدهم، متسعجلون، عادةً» قال «جاجان بوزو».

«ما همَّ» ردّ «مكين» منفعلاً: «نحن مستعجلون. الفرنسيون مستعجلون».

فاحتدم «جاجان»: «عرفت ذلك. أنتم تحرسون البحر».

«نحرس البحر. نعم» قاطعته «كليمة» في برودٍ، فأجفل الرجل

الأعجف أول الأمر، كأنما ذُهل، ثم استدار على عقبيه متجهاً إلى المُنْحَدَرِ الشرقيِّ للطريقِ، وهو يدمدم: «يحرس البحرَ مَنْ لا يعرف المياهَ. أنتم لا تعرفون المياه»، وغاب من فورهِ كأنما لبسَ معطفاً أسود فوق معطفه ليجاورَ الظلامَ في خفائه.

هَرْج كبير، مباغت وصاعق في الآن ذاته، داهم الحيَّ الغربيَّ من بلدة القامشلي، فأفاق «نعمان حاج مجدلو» وزوجه «نورا» مثلهما مثل كلٍّ من استيقظ في تلك الساعة الواقفة على حدود الفجر: بضع طلقات نارية. خطواتٌ راكضة. أصوات متقاطعة. هكذا كان الظلام خارجَ جدران البيوت. وقد نهض «نعمان» من فراشه إلى كوّة تدلت فوقها قطعةُ قماشٍ سميكٍ معلقةٌ إلى مسمارين، فأزاحها وحدَّق من وراء الزجاج، فلم يبصر أيَّ شكلٍ في الخلاء الممتدّ وراء المنزل، وجاهد أكثر وهو يظلل الزجاج بيديه عسى يُعيْنُه ذلك على الرؤية دون جدوى، غير أنه أجفل إذ سمع خبطة قوية، واحدة فقط، على الباب، ثم أعقبها صمت امتدّ كسؤال كبير بين عينيه وعيني امرأته الجالسة على فراشها، التي بادرته هَمْساً: «هل ستفتح الباب؟»، فبقي «نعمان» على سكوته لحظات، قبل أن يتقدم من الباب في حذر شديد، ليضع أذنه على الخشب البارد منصتاً، فتناهى إلى سمعه لهاث قوي كأنما شخص مّا التصق بالباب من الجهة الأخرى. فالتفت إلى «نورا» يستنجد بها لبرهة، دون أن يعرف ماذا عليه أن يفعل. لكنه تمالك نفسه، مُطْلِقاً صوته الذي تحشرج قليلاً من الهيبة: «من هناك؟».

«افتح لي باسم الله عليك» قال شخص من وراء الباب بصوتٍ مُسْتَنْجِدٍ.

«من أنتَ؟» سأله «نعمان» مرتبكاً. فردّ الآخر:

- لن تعرفني. افتح لي فقط، سيرحم الله موتاك.

فتح «نعمان» الباب بطيئاً، يحفظ لنفسه إمكانَ أطباقِهِ سريعاً إذا

بوغت، وقد بوغت فعلاً حين دسَّ الشخصُ الآخرِ ـ وقد مدَّ ذراعه وحدها إلى الداخل ـ شيئاً طويلاً، بارداً، في يده، فأفلتها:

ـ ما هذا؟!

«احفظْها لي، بحق الله عليك، وسأستردها قريباً» قال الشخص الآخر، الذي لم تتسنَّ لنعمان رؤيته. فكرّر «نعمان» سؤاله:

ـ ما هذا؟

«بندقية» همس الآخر وهو ما يزال ممسكاً بذلك الشي من وسطه.

«لماذا أحفظها لك؟ احفظها أنتَ لنفسك» همس «نعمان» بدوره في صوت مختنق.

«ألا ترى؟» تمتم الشخص الآخر، فتمتم «نعمان» أيضاً:

«أرى؟ أرى ماذا؟».

«احفظها لساعات بحق الله عليك» قال الشخص الآخر متوسّلاً، فردّ «نعمان» وهو يضيِّق الفسحة بين دفّتيْ الباب:

ـ «أأنت تورِّطني؟».

غير أن الشخص الآخر كان مستعجلاً على نحوٍ لم يمكِّنْه من الاسترسال في استجداء العون، فرمى البندقية من يده لترتطم بالباب من الخارج، ثم اختفى.

أطبق «نعمان» الباب، أوّل الأمر، وهو يسمع صوت ارتطام السبطانة الحديدية بالخشب السميك، ثم فتحه على مهل يستجلي ما خلَّفه الشخصُ الهارب فرأى الشكل المعتم للبندقية مستلقياً على العتبة، يلتمع الحديد فيه التماعاً خافتاً من تحت الحزام الجلدي الذي استقرَّ ملتوياً كأفعى خامدة.

كانت حيرة «نعمان» جافَّةً كجفاف لسانه، حتى أنه لم يجد ما يفعله إلاّ أن يأمر امرأته: «أطفئي السراج»، مشيراً إلى الجدار، الذي كانت ذبالةُ

السراج الخافتة، المختنقة، غير كافية لإضاءة شبرٍ فيه، فردت «نورا»: «لماذا نطفئه؟». فتأملها زوجها بعينين جاحظتين كأنما يسائل نفسه في جدوى إطفاء السراج، فالبندقية في الخارج، أمام الباب، وينبغي إخفاؤها كيفما اتّفقَ، سريعاً، قبل أن يلتقط أنفاسَه.

«ماذا نفعل بهذه البندقية؟» سأل «نعمان» زوجَه الجالسة في فراشها.

«أخفِها في زريبة البقرة» أجابته في هدوء.

«يا لله يا نورا. الزريبة أوّل مكان يفكرون في تفتيشه».

«في السيارة، إذاً»، قالت المرأة.

«أنت لا تفكرين. أنتِ لا تفكرين في ورطتنا» قال «نعمان» محتدماً. وأضاف «فكّري في مكان أفضل لإخفائها». فردّت «نورا» هادئة:

ـ أعطها لأحدٍ ما.

«ساعدني يا رب. إنه ستورطني» قال «نعمان» بصوت نصف باكٍ من اليأس. فأظهرت «نورا» لأول مرة، في الظلام ذاك، ملامحَ وعيدٍ:

ـ فكر، أنتَ في مَخْبأ لا يفكّر غيرك فيه، يا نعمان.

«لا. لن ألمس هذه البندقية» قال «نعمان» كأنما عثر على حلٍّ، فهمت «نورا» وهي تتمدد تحت اللحاف: «تعالَ نَمْ، إذاً».

«والبندقية؟!» سألها «نعمان» فرفعت رأسها تتأمّله وقد أغمضت عيناً واحدة:

ـ فليأخذها من يريد.

«أظنّهم سيأخذوننا معها» قال «نعمان» بحروف قلقة، متلجلجة، وتقدَّم من الفراش متهدِّلاً كشخص مخذول، ليندسّ تحت اللحاف،

ملتصقاً بـ«نورا» التي انتظمت أنفاسُها بعد لحظة، ثم صَدَرَ شخيرُها غير عالٍ.

ضربات الغيم القوية، في ثغور الجهات وأسوارها، لم تمنع الفجر المُنْهَك من بلوغ النهر، فلاحتِ المياهُ المتلوِّيةُ في جريها منتهَكَةً، يتشاكلُ لونُها حالاً بعد حالٍ في عيون الأربعة ـ مكين وأختيه وحمال أمتعتهم؛ كما ارتفع النِّقاب الصارم لغموض الليل عن الامتداد الأبيض، الغامض، للأرض الكلسية غرباً، فلم يبق من المكان إلاّ الهضبةُ معتمةً بعدُ، بسفوحها المجوَّفة كأفواه تطحن البقايا الأخيرةَ للظلام. أما الريح الخفيفة، المبللة بمطرٍ ينتظر الإذن بهطوله، فلم يكن في مقدور الفجر المُنهك أن يعلن عن اتجاه هبوبها الصحيح، لأنها كانت تلتفُ التفافاً من حول الشخوص الأربعة تمسّ سترانِهم من حواشيِّها، وتصعد أعلى فتداعب خصلات شعورهم الطليقة من أمام، ثم تتكوَّر متدحرجة على منحدرات الطريق من جهتيه، وتعود فتنبجس كنوافير من الأرض المُنْبَسِطَة، رافعةً ـ في تَدْفاقِهَا اللّين ـ روائحَ شتّى قد تُحْسَب على أصابع اليد وتزيد.

ما الذي كان يفعله الفجرُ في الجهة الأخرى من الليل ليصل مُنْهَكاً هكذا؟ ذلك سؤال لم يكن شاغلَ أحدٍ في البرهة تلك التي قطعها «مكين» بضحكة خفيضة، لكنها مباغتة: «مياه» قال الكلمةَ وتفّحص المكان من حوله بحركةٍ مرحةٍ، ثم دار على نفسه متمتماً: «مياه». ونظر إلى أختيه المتمهلتين في مشيهما: «أرأيتما كيف غَرَفَ ذلك الرجلُ الأعجفُ المياه بيديه؟» ملمّحاً إلى «جاجان بوزو»، وأضاف: «لا بدّ أن في الهواء مياهاً»، وفتح يديه يوجههما أعلى وأسفل، شمالاً ويميناً: «إنني أكاد ألمسها»، ثم ضمَّ راحتيه فجاءةً بعدما أحنى جذعَه: «هذه هي. إنها تغمر يديَّ»، وعَمَد يرشُّ وجهه، وصدره بحفنات لا تُرى من المياه، وهو يشهق بعد كل رَشْقةٍ كأنما يَبْتَرِد.

ابتسمت أختاه أوّل الأمر من حركته، ثم ضحكتا فجارتاهُ تحفنانِ من

المياه التي لا تُرى وترشقان به إحداهما الأخرى كأنّما هما في نهرٍ حقاً. وقد انضم «مكين» إليهما يرشُّهما وترشّانه بالماء، في عبث ناعمٍ صَرَفهم عنه ـ بعد لحظاتٍ ـ ذلك السكونُ الصلبُ لحمّال الأمتعة، في وقفته المنحنية يعاينهم من تحت نقابة الذي لن يتغلغل الفجرُ في عتمته المُسْدلة، فأحسّوا حياءً، ثم تجاوروا ومشوا هادئين في صمت.

الفصل الرابع

أحلاف الغيم

الدم وحده كان ساخناً ذلك الصباحَ البارد. والعضلات القوية، في فورتها تحت الريش، كانت تمزق الريحَ الخفيفة فتسقط متشبثة بحوافِ بِرْكة ماء الدجاجات: تلك هي الصورة التي افتتح بها الديكان «رشْ» و«بَلَك» المشهدَ في الساحة الواسعة، مؤكّديْن لنفسيهما أن الضياء، الذي أخرجهما عن صمتهما الليليِّ، ذو طبيعةٍ يُلْهم الريشَ قسوتَه الأقصى، فيتماوج، وينكمش، وينتعظ، ويلتوي، ويتوازى، ويتقاطع، ويُبدِّل لونَه ـ بعد هذا ـ في كل خلجة من خلجات الجلد الخشن، كأنّما يُمرِّنُ الحقيقةَ على ارتداء أقنعتها.

كان الطين، الذي يتمزَّق تحت المخالب، مَرِحاً في تطايره ما دام يتسنّى لكُراته الصغيرة أن تتبادل الأمكنةَ الغامقة قليلاً بسبب روث الماعز، أو الحمراء البكر، أو الرمادية من أثر الرماد الذي يتخلَّف من موقد عائلة «موسى»، فترميه بناته في الساحة، كيفما اتّفق. وكذلك كانت الجهاتُ مرحةً وهي تتشابك وتتداخل من حول أجنحتهما المُهتاجة. غير أن عيونهما القاسية، الزجاجية، لم يكن بعضها يحدِّق في البعض الآخر، ولم يكن فيهما انعكاسٌ للخصومة، أو للضراوة التي يبديها العضلُ والريش.

عيون تتأمّل الفراغ، غاضبة على نحوٍ أعمق من أن تكشف غضبَها؛ حاذقةٌ في تحديقها، جوفاء كأنها تنظر إلى داخلٍ لا إلى خارج؛ نزقة؛ طائشة؛ صريحةٌ في التماعات الصباح على أغشيتها التي تتمدد وتتقلص في

حركة الجفون البطيئة للأبلهين اللّذين إن سألهما سائل سيعترفان له بالحماقة الساحرة التي تدفعهما إلى أن يكونا ديكين، هكذا، يهيّئان للريش بطشَهُ اللائقَ به، وللساحة المديدة ـ تلك ـ نعمةَ شِجَارِهما المُتْرَف.

حين انفصلا، لمرَّة واحدة، دارا حول البِركة، كلٌّ من جهة، ليغرفا بمنقاريهما ـ المفتوحين من التعب ـ بعضَ الماء يبرِّدان به حوصلتيهما الساخنتين. ولمّا أكملا الدورةَ والتقيا، ضربَ ذيلاهما الأرضَ ليندفع جسماهما أعلى، متواجهَيْنِ مخلباً إلى مخلب، وصدراً إلى صدر، ومنقاراً إلى منقار، وعينين إلى عينين، وأعماقاً إلى أعماقٍ بما فيها من شرودٍ كأن غيرهما يتخاصمان، لا هُمَا. وإذْ تصادَمَا بعظْمَيْ القَصِّ في صدريهما، صَدَر عنهما أنين خافت، عميق، احْتَبَسَتْه عظامُهما القاسية، ولحمهما الذي لا شحم في عَضَلهِ وأليافه. ثم تبادلا انقضاضاتهما العالية، في تناوُبٍ مُتَّفَقٍ عليه. حتى أنّ أحدهما، إذا لم يتمكن من تسديد ضربته، بسبب انزلاقه على الطين مثلاً، يتيح له الآخرُ أن يعيد الكرَّةَ ليتعادلا بشهامة طائرين لا يطيران، بل أنهما لم يسألا نفسيهما من قبل، قط، لِمَ لا يطيران.

ولماذا الطيرانُ على أية حال؟ أهو تمرينٌ للأجنحة؟ لقد اختبرا أجنحتهما من قبل، وهما واثقان أن لهما مقدرةً على النفاذ بريشهما، وعظامهما، فلطالما تعرَّضا لغضب غير مُبَرَّرٍ من الكلبين «توسي» و«هرشهْ»، يباغتانهما مُهاجميْنِ فيطير الديكان. نعم، يطيران من الذعر الذي يرفع الأجنحةَ بحكمته إلى مدارج الريح فيعلو جسماهما أمتاراً عن الأرض، ويندفعان بقأْقآتٍ مديدة كالصراخِ ممتزجٍ بجلال الهواء الذي يجعلهما خفيفين ككائناته الخفيفة. ولطالما هاجمتهما الإوزات الثلاث، أيضاً، فكُنَّ مَصْدَر اختبارٍ.

غير أن الديكين قد يسألان نفسيهما سؤالاً آخر، أبعدَ من تمرين الأجنحة على وظيفتهما: «هل الطيران خاصّيَّةٌ لاكتشاف الأرض من

الأعلى؟». وهمـا، قطعـاً، سيضحكـان من الحكمـة البلهـاء في ذلـك. فالأرض قريبة جداً من صدريهما، تحت مخالبهما التي تحفظ توازنَ الريح فلا تختلُّ الريحُ في عبورها.

الأرض قريبة من عيونهما. تحدِّق فيهما كما يحدِّقان فيها، عن كثب. وهي مستسلمةٌ، دون أسرار؛ واضحةٌ بديدانها، وذبابها، ونملها، وطَفْحِها النباتيِّ، وثرثراتها. فلماذا الطيـران؟ أليَنْجوا من الأخـطار؟ هما نـاجيان، ولهما الحظوةُ بين الدجاجات، كما أن الفجرَ لا يؤْذِن لدخوله إلاّ بصياحهما الأنيس من فوق سور الخرنوب، فلماذا الطيران؟

يا للهلع الذي سينقر قلبيهما بمنقاره إذا فكّرا بوجودهمـا، فجاءةً، عـالِيْينِ، في السماء غيـر المُلْجِئَة. أيمكن لكـائن أن يكـون في الهـواء المُخَلْخَل، الذي لا يمنح أحداً ما يتشبَّث به، دون صعود قلبه من الذعر إلى زلعومه؟ الهواء فسحةٌ غير أمينة. الهواءُ الذي لا يمسُّ الأرضَ حيلةٌ: هذا ما يفكر به الديكان وهما يهزّان عرْفيهما الدّاكنين قبل انقضاضٍ جديدٍ. لكن الإوزات الثلاث، ببياضهنّ المُتَّسخ، لا يفكّرن كما يفكر الديكان، وهنَّ يعبرنهما ـ ذلك الصباح ـ صوب السفح الشرقي، ناظراتٍ إليهما يردّدنَ: «يا للمُهرِّجَيْن».

ثلاث إوزّات. إنهنّ ثلاث إوزّات يختلف بيـاض ريشهن بين وقت وآخـر، بحسب نقصانِ الـطين المجروف في ميـاه النهـر أو ازديـاده. لم يشهـدهنَّ أحدُ قطّ يتخـاصمن، ثقيلات في مشيهن كثِقَـةٍ تمشي. لكنهنّ جَسُورات إلى درجة الحماقة، كأنْ يهاجمن «توسي» و«هرشـه» مثلاً، أوْ حتى سيارة «نعمان حاج مجدلو»، فيتفادى دَهْسَهُنَّ ببوقه الذي يكاد يمزّق الهضبة بإلحاحه وعويله. وهذا ما يستغربه الدّيكان، على أية حال: «كيف لـطيورٍ أنْ تهـاجم سيارةً؟ يـا للمُهَرِّجـات»، يقول «رش»، ويـردّدُ «بَلَكْ»: «يا للمهرِّجات» بدوره. أمـا في ذلك الصبـاح المبتلِّ كهِـرَّةٍ، فقد اكتفى الديكان بالنظر، جانبياً، إلى الإوزات الثلاث ينحدرن، بطيئاً، من السفح

الشرقي للهضبة في اتجاه النهر، غير غافلَيْنِ أحدُهما عن حركة الآخر حتى لا يؤخذَ غِيلةً.

رهينةً مستسلمة لوعيد الغيم كانت السماء من فوق، في قناعها الرماديّ البارد، وكانت تنعكس، بين لمحةٍ وأخرى، على عيون الديكين الشاخصة إلى فراغ دائريٍّ كحدقاتها، قبل أن تتشظى في تلك المرايا الصغيرة بسبب الوثبات الطاحنة التي يتبادلانها، في كل اتجاه، كأنهما لا يتخاصمان فحسب، بل يعارِكانِ المدى المحيط بجسميهما، وبأعماقهما. غير أنهما حادا قليلاً عن خطوات مستأجري بيت «موسى موزان» ليُمَكِّناهم من العبور، ثم عادا إلى الانتفاخ تحت ريشهما المنتصب، يُعِدَّان مخالبَهما لتمزيق الصباح إذا قَدِرا.

بعد ساعتين على الأرجح، أو أقلّ، من عودة «مكين» وأختيه، وحمّال الأمتعة، من نزهتهم الليلية، غادروا المنزلَ ثانيةً، ذلك الصباح، بثيابهم ذاتها، وأَحمالِ الشخصِ الذي لقبوه بـ«الكلب» أمام بنات «موسى موزان». ولم يكن عليهم أثرٌ لإرهاقٍ، أو سهر، بل بدوا أكثر انشراحاً بوجوههم الملتمعة بألقٍّ خفيٍّ في هواء المكان الشاحب، وهم يتجهون صوب الطريق المفضي إلى الجسر أسفل الهضبة، في الآن ذاته الذي كانت «هبة» تدخل المنزل الشرقيّ بعدما اقتنصت دجاجةً، بعد مطاردة قصيرة، عائدة بها إلى أمها وخالاتها اللواتي قضين ليلتهن الأولى معاً، في منزل واحد. وكانت الدجاجة، على أية حال، في ذعرٍ لجمَ صوتَها، وهي تحت إبط الفتاة الصغيرة، تودّع الساحةَ بعينين خاملتين من اليأس، تماماً كعيون الكلبين «توسي» و«هرشه»، اللذين واكبا مغادرةَ المستأجرين للساحة، لاهثَيْنِ دون سببٍ، كأنما عَرَاهما مَرَحٌ من الألق الذي يحيط بـ«مكين» وأختيه، إلّا حمّالَ الأمتعة، المنحني في ثِقَلٍ فادح، وقد غطى وجهَهُ خمارُه السميكُ فلم يَبِنْ منه شيء.

تمتمات قلية ارتفعت في الساحة، حين انحدر مستأجرو منزل

«موسى» الحافةَ الترابيةَ العاليةَ، المُفضيةَ إلى الطريق الأسفلي: «فَلْنتبعْهُمْ» كانت «خاتون نانو» تسأل زوجها «موسى موزان»، في وقفتهم الطويلة هناك، مع صهرهم «أحمد كالو»، دون أن يلحظ الصباحُ أشباحَهم الرقيقة.

«ولماذا نتبعهم؟» سألها صهرها بصوت خفيض، مضيفاً: «لن يرجعوا». وقد وافقه «موسى» نفسه، ملتفتاً إلى امرأته من تحت عباءته المرخية من رأسه على جسده: «لن يرجعوا يا أمَّ البنات».

طأطأت «خاتون» مستسلمةً، كأنما هي أيضاً توافقهما في لا جدوى أن يتبعوا أناساً لن يعودوا، لكنها تمتمت: «لماذا نعرف الكثيرَ يا أبا البنات؟»، واقتربت منه حتى لامست بكتفها كتفَ زوجها، مستندة إليه وهي تنظر إلى المنزل الشرقي حيث حفيدتها وبناتها: «لماذا نعرف أنهم لن يعودوا يا أبا البنات؟»، همست إلى زوجها همساً خالياً من نبرة السؤال، كأنما تحادث نفسها.

«لا أعرف يا خاتون»، ذَكَرَ «موسى» اسم زوجه في ثِقَلٍ، ناظراً إلى الديكين يتدحرجان عن حَدَبَةِ الطريق إلى الإسفلت، ومن ثم عَلَتْ خشْخشات مخالبهما التي تنزلق على القار، والحصى المتجانس، يتبعها ارتطام أجنحتهما بالأرض القاسية كلما فقدا توازنَ هيكليهما المحبوكين على قَدْرٍ هائلٍ من الكمال الطاحن.

على مهلٍ، كأنما يسرقون من الصباح خطواته: هكذا تقدّم مستأجرو منزل «موسى» ـ حمّالُ الأمتعة، والأختان، وشقيقهما، شمالاً، عبر الطريق الإسفلت، قاصديْنَ، ثانيةً، المنزلَ الغارق بين شجرات التوت، وهم يحسون دغدغات ناعمة تحت أقدامهم ليست إلا صدّىً مخالب الديكين، وهو يسري في الإسفلت من أعلى الهضبة إلى أسفلها حيث يقع الجسر. وقد قطع الدغدغات تلك جموحُ مركباتٍ آلية عبرت الطريق أيضاً، في اتجاه الهضبة، كأنما تقسِّمُ الحقيقةَ، على جهَتَيْ عبورها الاستِعراضيّ،

لأنها عسكريّةٌ أوّلاً، وفرنسيةٌ بخاصّةٍ: سيارة متطاولة، صفيحيةٌ لها لون رمادٍ مخضَرٍّ، وسيارة «جيب» نصف هيكلها من قماش سميك، وشاحنة صغيرة، لم يأبه لها الأربعة أكثر من إفساح الطريق خطواتٍ لتعبرَ كَقَسمٍ معدنيٍّ وسط العراء الصامت.

«كيف سنستدرجه ليخرجَ؟» سألت «كليمة» اختَها «نفير» دون قلق، فلم تجبها الأخيرةُ، بل نظرت إلى «مكين» السارح تحت قبّعته المُضَلَّعةِ الحوافّ، فالتفت «مكين» إليها جانبياً، مبتسماً، ثم أشـاح بوجهـه صوب الأرض الكلسية البيضاء غرباً، حيث الصباح أكثر جسارة في امتحان نفسه على الصخر، لا على التراب. وإذ قاربوا الموطىء الذي ينزلونه في اتجاه شجرات التوت، كـان «جاجـان بوزو» متكئـاً على عصاه، في المُنْحَـدَر الشرقي من جهة الطريق، كأنما ينتظرهم، بوجهه الناظر إلى أعلى في وقفته الباردة.

لو لم ينظروا يميناً، في قدومهم، لما رأوه، في المستوى المُنْخَفِض للأرض. لكنهم رأوه، على أية حال، فاستوقفَهم بروزُهُ هنـاك، شاخصـاً إليهم هكذا كأنّما تأخروا عليه فأضجَرهُ الانتظار. وقد صعد الرجلُ الأعجفُ الحافةَ الهينةَ لجانب الطريق، بعد تبادل قليلٍ للنظرات بينه وبين القادمين، دافعاً عصاه لتغور عميقاً في الطين كلما ارتقى خطوةً إلى أعلى. وإذ صار إلى الشارع انتصب أكثر مما ينتصب عادةً، متواجهاً مع الأربعة، وهو يدمدم من حنجرته كلمة كرّرها خفيضةً، ففطن إلى أنهم لا يسمعونه، فرفع صوته الذي انبجس من عينيه الغائمتين، لا مِنْ فمهِ: «اقتلوني».

مَرِحةً بَدَتِ الكلمةُ، لكن وجه الرجل كان على الكثير من الصرامة، فتحيَّر الذين يواجهونه أيبتسمون لظرافته أم يَجِمُوْنَ.

«اقتلوني»، تكلّم «جاجان بوزو» ثانيةً، فبدَّدَ شكوكَهم في جدِّيته.

«ولماذا نقتلك؟» قالت «نفير» وهي تتقدَّم منه متعامدةَ الذراعين على

بطنها، تخبّىء كلَّ يدٍ في كمِّ اليد الأخرى اتقاءَ البرد الخفيف.

«ألا تريدون أن تقتلوا أحداً؟» سألها «جاجان» في لوعةٍ، فردَّت المرأة مستغربةً:

ـ لا. لا نريد أن نقتل أحداً.

«ألا تريدون أن تفعلوا ذلك لمرَّةٍ أُولى؟» قالها الأعجفُ في نبرةٍ اقشعرت لها جسوم الاختين وأخيهما، الذي تدخّل، متقدّماً من «جاجان» وهو يتأمّله كأنّما يقيِّده:

«لا شأن لنا معك يا سيد جاجان، فما الذي تبتغيه حقّاً؟».

نظر «جاجان» إلى عيني «مكين» تحديداً، مُطيلاً في تحديقه، ثم التفت بوجهه شرقاً، حيث النهر المتماوج كرمادٍ ذائب:

ـ لا مياهَ هنا.

والتفت «مكين»، بدوره صوب النهر، متأمِّلاً: «نعم. لا مياه هنا».

انفردت أسارير «جاجان بوزو» فجاءةً، كأنما يشكر «مكين» على كلماته، ثم ألقى ببصره إلى النهر من دون أن يحيد بوجهه عن مُحدِّثـهِ، سائلاً: «ما هذا؟».

«لا أعرف» قال «مكين» في خُبْثٍ خفيف، ناظراً ـ بدوره ـ إلى النهر مبتسماً، وأضاف: «أتعرفُ، أنتَ ما هذا؟».

تماوج معطف «جاجان بوزو» من خلفه، بعد كلمات «مكين» تلك، راكضاً في اتجاه النهر شرقاً، دون أن يتكىء على عصاه وهو ينزل المُنْحَدَر، وإذْ بلغَ المياه خاضها دون تردّد، ثم مشى في المجرى مع تدفاق النهر الذي غمره حتى صدره، ضارباً بعصاه في كل اتجاهٍ ضرباً عنيفاً: «ابتعدوا» كان يصرخ، قبل أن يلتفت إلى الأربعة الواقفين على الطريق، وهو يشير بيده اليسرى إلى حمّال الأمتعة تحديداً، يخاطبه بصوت متحشرجٍ وحركات

عنيفة من نصف جذعه الطافي على الماء. لكن كلماته كانت تتلاشى كلّما ابتعد مع الدَّفق القويِّ للنهر، فيما بدا حمَّال الأمتعة غير معنيٍّ قط بإشارات «جاجان بوزو»، لأنه كان يتطلع، من تحت نقابه السميك الذي يخفي ملامحه، صوبَ المنزل الغارق بين شجرات التوت.

انعطف الأربعة غرباً حين صاروا قبالَ المنزل ذي الطنين العميق في أساساته، ثم انحدروا على مهلٍ من علياء الطريق في اتجاه ممشى حجريٍّ، ضيقٍ متعرِّجٍ، تخلَّعَ بعضٌ حجاره من القِدَم. وهو ممشى لم يكونوا سلكوه في زيارتهم الليلية، لأنهم قدِموا من جهة العراء الكلسيّ، عبر شجرات التوت مباشرة، لذا وجدوا أنفسهم، في زيارتهم الصباحية تلك، مأخوذيْنَ بضخامة الجذوع الرطبة على الجانبين، وبالأغصان الرمادية المتشابكة في شكل قوس يضفي على الممشى الحجريِّ عتمةً خفيفةً كقناع.

«إنها كَعَمَدِ العرش، جذوعُ هذه الشجرات»، قال «مكين»، فحدَّجته «كليمة» بنظرةٍ مستخفَّةٍ «كأنك تنسى»، قالتْ.

«أنسى ماذا؟» سألها «مكين».

«تنسى الأعمدةَ التي نصبْتَها على المياه»، ردّت أخته.

«كيف أنسى» دمدم «مكين»، باسطاً راحتي يديه أمام ناظره: «بهاتين اليدين نصبت أعمدةً على المياه». ثم قَلَّبهما يتأمل ظاهريهما، وقد هدأتْ نبرتُه: «هذا الشحم الأسود الذي تحت أظافري. هذا الشحم الأسود»، وأضاف على نحوٍ فجائي، ملتفتاً إلى حمّال الأمتعة:

- أنت تعرف أنني كنت أشتغل على رَصْفِ أعلى الهضبة. أنت تعرف.

«لماذا تتوجَّه إليه بأسئلتك يا مكين؟» قالت اخته «نفير»، ممتعضة

على غير عادتها، فأبدى أخوها استغرابه:

ـ ما الذي يزعجك في ذلك؟

«ألا تراه؟» سألته مستهجنةً، فردّ «مكين»:

ـ ما بهِ؟ إنه صامتٌ، لا أكثر.

ففاجأته «نفير» بسؤال غامض: «أأنت تراه؟».

«ما الذي تعنينه يا أختي؟ أراهُ، بالطبع، كما أراكِ»، فقاطعتهما «كليمة» بإشارة من يدها، واضعة يدها الأخرى خلف أُذنها، وهي تميل برأسها صوب كتفها الأسير: «أتسمعان؟»، وأطالت إصغاءَها إلى شيء لا تدركه، وسط صمت أخويها. غير أن «مكين» قطع ذلك الإصغاء، بعد برهة: «الطنينُ يتصاعد، أليس..»، فردّت أخته من فورها:

ـ ليس الطنين ما أسمعه. ثمت من يتبعنا يا مكين.

أشباحٌ ثلاثةٌ كانت تقترب أيضاً من المنزل العتيق ذاك، محتمية بكثافة جذوع شجرات التوت، في الجزء الذي تُشَكِّله كسياجٍ جنوبيّ. ولم يكن في حركتها ما يدلّ أنها تتبع أحداً، بل ساقتها خطواتها إلى المكان، كأنما مرورها من هناك جزء من نزهة الصباح الأبدية. وقد لاحظوا إصغاء «مكين» وأختيه، فابتسمت «خاتون» من تحت نقابها:

ـ إنهم يصغون إلى خطواتنا، يا أبا البنات.

مَسَّدَ شبح «موسى موزان» على لحيته بيده اليسرى، وغمغم يخفي ضحكةً خافتة:

ـ سيُتعبهم الإصغاءُ إلى كل شيء يمرُّ من هنا. لِمَ لا يهدأون؟

«ليسوا مستعجلين، يا أبا البنات. أراهم هادئين» قالت زوجُهُ، فردّ «موسى»:

- انظري إلى وجوههم.

«ما بها؟» قالت «خاتون»، مضيفةً: «إنها تزداد أَلَقاً».

«نعم» قال «موسى» متنهّداً. والتفت إلى صهره الصامت: «كلّما تألَّقت وجوه هؤلاء، أكثر فأكثرُ، بهذا الضياء الخفيف، فذلك يعني - يا أحمد - أنهم مستعجلون. والمستعجلُ لا يهدأ».

«تغاضت «كليمة»، في الجهة الأخرى من الشجرات عن طلب الإصغاء من أخويها: «ما همَّ إذا تتبَّعنا أحدٌ. ما همَّ إذا لم يتتبعنا أحد. فَلْنَمْضِ»، وأشارت بيدها إشارةً تستحث من معها للتقدُّم في اتجاه المنزل الطينيّ، الصارم بواجهته المقوّسة من أعلى ممّا يدلّ على وجود قُبَّة واطئة في سطحه.

آل «موسى موزان» لم يعبروا سياج الشجرات في اتجاه الساحة، إذْ باغتتهم حركة عارمة لجيادٍ ورجالٍ يستحثون الجياد، راكبين وراجلين، بأصوات مختنقة، مذعورة، وغاضبة أيضاً؛ وقد اختلط لهاث الحيوان بلهاث الإنسان، في فحيح متَّصل، امتدَّ من تخوم الأرض الكلسية حتى مشارف الجسر الصغير.

تراجع «موسى»، ومعه صهره وزوجه، عن شجرات التوت، يستجلي تلك القافلة التي لم يعهد غيرَها تعبرُ الأرض الكلسية القلقة بحجارتها القلقة. وكانت «خاتون» أول من أبدت دَهَشَها: «مَنْ هؤلاء يا أبا البنات؟»، فرفع «موسى» يده اليسرى حتى مستوى صدره، وهي مطوية، كأنما يتلقى شيئاً من الأعلى، مفتوح الفم تحت نقابه المنحسر عن جبينه الشاحب، وهو يرى أولئك العابرين يقطعون المجرى الفارغ الذي حفره مع صهره ليجلب المياه إلى ناعورة المنزل الغارق بين شجرات التوت. وحين دمدم «أحمد كالوا» في ذهول: «أهذا..» استبقه «موسى»: «إنه، بحق الله، الشيخ سعيد آغا».

لم يكن مشهد «سعيد آغا الدَّقوري»، برجاله، كَمَنْ يعبر المكان فحسب، بل كان التوزُّع المُشَتَّتُ لجموعِهِ كما لو أنَّ عَصْفاً قوياً باغتهم، أو سقطوا في كمين، ولَشَدَّ ما غمر الذهولُ «موسى موزان»، حين أشار إليه الدَّقوريُّ صائحاً، «لا تقف هكذا يا موسى. انجُ بنفسك».

تلفَّت شبح «موسى» إلى الجهات كلّها، مثله مثل صهره وزوجه، دون أن يرى أحداً يتبع الدَّقوريَّ، لكنه أوشك، تلقائياً، أن يتجه إلى حيث يتجه الجمع الكبير، فأمسكت «خاتون» بتلابيبه: «مِمَّ أنت خائف يا أبا البنات؟»، فردَّ «موسى» من فوره، شاردَ العينين:

- إنه يرانا.

بوغتت «خاتون»، كما بوغت صهرها «أحمد»، من إشارة «موسى» تلك، كأنهما استيقظا على صرخةٍ، وهما يتمتمان: «يرانا؟ إنه يرانا» وتهدَّلت أكتافُهما، مُمْعِنَيْنِ النظرَ - في وقفةٍ باردةٍ - إلى الحشدِ الذي يقوده «سعيد آغا»؛ الحشدِ المُمَزَّق بين جرحى، ومذعورين يهيمون على وجوههم، أو يجرُّون قتلى جَرّاً من أذرعهم وسيقانهم، بثياب معفَّرة بغبار أحمر.

«يا لله» هتف «موسى» وهو يضرب بإحدى قدميه الأرض الرطبة، ويرخي خماره كأنما يخفي عينيه. «يا لله» كرَّر الكلمة فاتحاً ذراعيه للمشهد: «أترَيان هذا الغبار الذي واكبهم؟ أتريانه؟»، والتفت إلى «أحمد كالوا» صارخاً: «أتذكَّرت غباراً أحمر كهذا؟»، وإذ وجد صهره مذهولاً ضرب على جبينه براحته: «أنا أذكر غباراً كهذا يا أحمد. إنها الطائرات، وحدها، التي تنفث غباراً أحمر إذا مرَّت فوق الأرض».

تقدَّمت «كليمة» من سياجِ شجرات التوت، جنوباً، بعدما أكدت لأخيها وأختها أن أحداً مَّا يتتبَّعهم. ولما عبرت بضعةَ جذوع ضخمة أحنت جذعها تتمعن في الذي تراه، ثم أومأت بيدها إلى الواقفين في ساحة المنزل أن يقتربوا، فاقترب «مكين» و«نفير» وحدهما، بينما حمّال الأمتعة

على هدوئه الثقيل كأحْمَالِهِ لا يتقدَّم، بل يطأطىء في وقفته هناك كأنما يتأمل ظلَّه غير المرئيّ.

«موسى، وزوجه، وصهره» تمتم «مكين» في لا مبالاة، وهمَّ أن يرجع، فاستوقفته «نفير»: «ألا ترى ذُعرَهم؟» سألته، فردَّ ـ وهو يلتفت ثانيةً إلى الأشباح المُتهيِّئةِ عن بُعْدٍ تتدانىٰ رؤوسُها وتتباعدُ، ثم تتهدَّل جذوعُها مستسلمةً لقضاءٍ مّا ـ : «لا أرى ما يُذْعِرُهم»، لكنه أضاف وقد راعَتْهُ حركة هيئاتهم القلقة: «إنهم ينظرون إلى شيء مقلقٍ». وأمعن النظر، مثل أختيه، في الجهة التي يتطلع «موسى» ومن معه إليها، فلم يقع على ما يلفتُ إلاّ الجسرَ الصغير، المستوحش في وحدته تحت السماء التي تلجمُ غيومَها بأيدٍ كثيرة من هواءٍ يتهيَّأ لطيشه. ثم تمتم: «فلنعُدْ. إنهم يلعبون».

لا ينسى «موسى موزان» طعمَ الغبار الأحمر الذي فجّرته طائرتان فرنسيتان، قبل سنين، وهو في قافلةٍ من رجال الشيخ «سعيد آغا الدّقوريّ». وقد كاد يصمُّ أذنيه عن أنين الجرحى، والزَّفير المذعور للجياد المتهاوية، في وقفته كشبحٍ بعد كل تلك السنين وهو يعاين الهاربين في اتجاه الجسر الصغير، الذين يختفون في الجهة الأخرى من حافة الطريق المُتَحَدِّرة صوب النهر، وسط صراخٍ وجَلَبةٍ تتعاظمان. ولمّا اختفى الحشدُ برمَّته عن أبصار الأشباح الثلاثة، صعد هؤلاء، بدورهم، حَذَبةَ الطريق إلى حيث الجسر، ليتابعوا المجهول الذي انحدرتْ إليه قافلة «سعيد آغا» الجريحة. لكنهم، حين استووا واقفين على الشارع لم يجدوا خيلاً ولا رجالاً ـ موتى أو جرحى ـ في الجهة الأخرىٰ، المستسلمة لهدوء النهر الرّصاصي في تعرُّجاته النّحيلة.

«أين هم؟» همست «خاتون نانو»، فلم ينبسْ صهرها أو زوجها.

تحلَّق الجمع الصغير ـ الأختان، و«مكين»، وحمّال الأمتعة، من جديد أمام باب المنزل الموصد، دون الإقدام على أيِّ فعلٍ، منصتين إلى

الطنين المختنق في باطن الساحة، فيما كانت تتنامى إليهم أصوات آليات تصعد الهضبة أو تنزلها، غير عجولة، وسط الهدواء البارد غير العجول للسماء المقذوفة من منجنيقات الغيم فوق تلك الأنحاء.

كان مُبْهماً ما يمكن أن يُقْدِموا عليه من محاولة لإخراج الكائن الناريّ من أعماقِ المنزل المغلق، وهم الذين لم يهتدوا، في الليلة السابقة، إلى ما ينبغي فعله؛ وكانوا يتحسَّسون أعماقهم، وَمَدَارِكهم، فيزداد الفراغُ كثافةً، ويتبلبلُ اليقينُ مِنَ الذي هُمْ فيه.

«فلننتظر» قالت «كليمة» في ثِقَلٍ لم يبدّدْ وجومَهم الثقيلَ. وأضافت تخفِّف عن نفسها: «لا بدّ أن يحدث شيء مّا. فلننتظرْ».

«نعم» قال «مكين» بصوت مشوَّش بين السخرية واليأس. «نعم. ما كُنَّا لنقصد هذا المكان إنْ لن يحدث شيء»، وانفصلَ عن أختيه وحمّال الأمتعة متجهاً صوب شجرات التوت الجنوبية، من جديد، وهو يدمدم: «سأتأمل الأعمدة التي تنتصب الآن على الأرض الكلسية».

إذا تطلَّع ناظرٌ صوبَ الأرض الكلسية لن يرى ـ يقيناً ـ أية أعمدة تنتصب هناك. ولم يكن «مكين» يرى أعمدةً بدوره، لكنه آثر اختبار آخر فكاهة في أعماقه المُضَلَّعةِ كقبَّعته، حتى أنه بات يسترسل في رَفْع صوته: «ألا ترون المداخِلَ؟» دون أن يقصد أحداً بسؤاله، مضيفاً: «إنها تنزل الهضبةَ من السَّفح المُنْحَدِر، ويضحك: «ستنقلب. الانحدار شديد»، ويهمس همساً عالياً: «هناك مَنْ يسندُها»، قبل أن تقع عيناه على «جاجان بوزو» واقفاً فوق الجسر، بثيابه المبتلة فوق جسده الذي لا يُخْفَى ارتعاشُهُ الشديد، من بُعْدٍ، وخيزرانتُه تنتقل من يد إلى أخرى، في قلق واضح، فيما عيناه مثبّتتان على الأرض الكلسية وفمه مفتوح.

«أترى شيئاً يا سيد جاجان؟» صرخ «مكين» من موقعه، فألوى الرجل الأعجف عنقه صوب «مكين» في أسى، مشيراً بخيزرانته إلى الأرض

الكلسية المديدة، الهادئة كَزَبدٍ أبيض. وفي أسىً ـ أيضاً ـ ألوى «مكين» عنقَهُ مستعرضاً الأرض الكلسية من جهاتها جميعاً، وهو يتمتم: «هنالك من ينصبون أعمدةً في هذا المكان يا جاجان بوزو. هنالك من يخدعوننا». وصرخ بالواقف الأعجف فوق الجسر: «تعالَ يا رجل. تعالى شاركْنا في حراسة هذه المياه»، مشيراً بيده إلى المنزل الغارق بين شجرات التوت. لكن «جاجان بوزو» بقي على حال من التوثُّبِ الصامت في وقفته المُحَيِّرَةِ الصامتة.

شرخٌ خفيف قسَّم الغيم، فوق تلك الأنحاء، متلوِّياً مثل نهر أبيض من الشرق إلى الغرب، وسط الطبقة الرصاصية الداكنة، وقد عبره غرابان في كسلٍ، بنعيق أقرب إلى المدح منه إلى الرطانة المعهودة لاستخفاف الغربان بالسهول. وكانا يلوْحَان مضاءيْنِ بما انسكب عليهما من ضياءٍ مَكَّنَهُ الشرخُ ذاك من استراق النظر إلى العراءِ الأرضيِّ، المستسلم لوحدته الباردة، ووحشةِ الهواءِ الذي يتردّد في أن يصيرَ ريحاً، أو يخمدَ ويلين. لكن القصب اليابس من حول ضفتي النهر كان يتمايل على نحوٍ لا يدلّ على الهبوب الحقيقي لريحٍ، أو لهواءٍ عجول، بل بسبب حياته الكبير الذي يدفعه إلى فتحِ ممرَّات للكلبين «توسي» و«هرشة» من ضفَّةٍ، وفتح ممرّات للإوزات الثلاث من ضفةٍ أخرى، بعدما تكون عبرت تلك الضّفة لاقتناص الديدان الحمراء التي تكثر في الحُفَر الاقرب إلى سهل القمح المتّصل بالنهر شمالاً. وكان يمكن للشرخ، الذي قسَّمَ الغَيمَ في حنانٍ سماويٍّ، أن يدلّ شعاعات خجولةً من الضياء على بنات «موسى موزان» وهنَّ في دَأْبٍ يجمعن حشائش طريَّةً، وحُمَّيضاً، ونباتات أخرى تنبثق ـ عادةً ـ من لمساتِ ماءِ النهر في تزاوجه مع زخّات المطر الأُولى للخريف.

جَمْعٌ خليط قرب مقاطعات القصب المُخَلْخَلَةِ: بنات «موسى»، وكلبان، وإوزات ثلاث، وصبيَّة استرعاها صوت مركبات آلية فانفصلت عن الجَمْع متجهة إلى الطريق الإسفلتي غرباً، في محاذاة النهر، راكضة حيناً

ومهرولةً حيناً آخر. ثمّ تراجعت عن اللحاق بتلك المركبات حين جاورتها، وأَسْقَطتْ من يدها الحجَر الذي همَّت أن تقذف به الجنديين الفرنسيين بعدما حذّراها بإشارات من يديهما.

كان الوقت ظُهراً، أو ما يقرُبُ من الظُّهْر الرماديّ الذي لا يُسْتشفُ حِيْنُه بالنظر وحده، بل بالساعات، لأنه يشبه الصباح، وله خطوات العصر القصير. وفي لحظة من لحظات ذلك المكان، اتجهت «هبة» صوب شجرات التوت، من الجهة الشرقية، مأخوذةً بالطنين الغامضِ، العميق، الصاعد من مَكْمَنٍ جريحٍ في المنزل الذي ما كادت تراه، بعدما عبرت ممرَّه الحجري العتيق، حتى وجدت نفسها في مواجهة مستأجريْ منزل جدْها، فتقدمت منهم دون فضول كبير، في ثوبها الطويل الذي له تخاريمُ وعروقٌ مطرّزة على حوافه، وهو يتدلى فوق سروالها الطويل، فيما انسدلت سُترة من مخملٍ أسود فوق الثوب نفسه؛ مُخملٍ مليء بتطاريز دائرية فقدت بريق ألوانها، وتدلت منها خيوط متقطعة. وقد أزاحت خصَلًا من شعرها المنفلت على جانبي وجهها، لتتمكّن عيناها الشهلاوان من حَصْرِ المشهد الصغير للأربعة الواقفين أمام باب المنزل الموصد.

لكن لا مبالاة «هبة» بوجود الأربعة هناك، في الوهلة الأُولى لقدومها، انقلب وجوماً خفيفاً حين تأمّلت وجهي الأختين وأخيهما، إذْ تكاد ملامح تلك الوجوه تمّحي في أقنعة شفيفة من وهجٍ ينبعث منها. وقد قطع وجومَ «هبة» صوتُ «كليمة» وهي تحرِّض حمّال الأمتعة الذي قَدّموه لبنات «موسى» تحت اسم «كلب»: «ليست هذه هي المرة الأولى. إفتح الباب، إنه ينتظرك»، فخرَّ حمّال الأمتعة على ركبتيه تحت أثقاله من الجلود والسلاسل والأقفال، مطرقاً في يأسٍ.

تقدَّم «مكين» من «هبة»، بالضياء الذي يتصبّب من وجهه كعَرَقٍ: «ألا

تستطيعين أن تفتحي الباب يا هبة؟» فشُدِهت الفتاة الصغيرة متسائلةً: «أأقدر على فتحه؟».

ضحك «مكين»، وهو يستوقفها عن المضيّ صوب الباب: «لا عليك يا هبة»، ثم التفت إلى أختيه: «تعالا نستكشفْ هذه الشجرات. إنها صامتة»، فتتبّعته أختاه في معطفيهما الملتمعين مما انسكب عليهما من شفافية أنارتهما كبلّور، فيما اقتربت «هبة» من حمّال الأمتعة الجاثي على ركبتيه هامسةً لتُلْفتَ ناظريه إليها: «هِيْه.. هِيْه..»، فلم يتحرك الشخص المطرق تحت نقابه السميك المُسْدل على وجهه. إذ ذاك يمّمت الصَّبيَّةُ وجهها صوب الطريق صاعدةً جَنْبَهُ المُنْحَدِرِ، ثم راحت في نوبةٍ من مَرَح ترشُّ نفسها بماء غير مرئيّ، وترشُّ الجهات من حولها كأنما تمازح أشباحاً يواكبونها.

كان «مكين» وأختاه قد جاوزوا سور الشجرات الجنوبي متراً أو مترين، يتأمّلون الظهيرة الرطبة وخوافيْها المعلومة في ذلك العراء، حين رأوا «جاجان بوزو» يركض عارياً في اتجاه الأرض الكلسية غرباً، كأنما انبثق من تحت الجسر الصغير المنخفض، بقامته العجفاء الطويلة على نحوٍ زادها العُري طولاً. لكنْ خَطَفَهم من المشهدِ سماعُهم جَلَبَةً خفيفة قادمة من صوب باب المنزل غير البعيد عنهم، فارتدَّت «كليمة» على عقبيها خطوات قليلة تستجلي الصوت من خلل جذوع شجرات التوت، ثم تجمَّدت برهة قبل أن ينطلق صوتُها مشدوهاً: «أتريان ما أراه؟»، فلحق بها أخواها يستطلعان.

في تؤدة، ولِينٍ، كان حمّال الأمتعة يطرق باب المنزل بإحدى يديه، مستقيمَ الجذع بعدما أنزل أحمالَه عن كاهله، هامساً: «أنتَ ضجران. هلاّ خرجتَ؟»، ثم كرّر كلماته تحت سمع «مكين» وأختيه الواقفيْن على بُعد ذراعين منه، بأبصار شاخصة إلى الباب. ولبرهةٍ توقّف حمّال الأمتعة عن

القَرْعِ ، بعدها تراجع خطوات إلى الوراء، رافعاً صوته قليلاً: «إنني هنا»، فصرَّ الباب الخشبيُّ صريراً موحشاً طغى على الطنين المختنق في أساسات المنزل، ومن الظلام الرّطب لأعماق الباب تقدَّم شخص بخطى وئيدة صوب الخارج وهو يتنفس بصوت عميق.

لم يكن ثمّت فارق قط بين ثياب الشخص الخارج من أعماق المنزل وثياب حمّال الأمتعة: معطفان داكنان حال لونهما، ممزَّقان في بعض النواحي، يعتمران خمارين بنّيين داكنين ينسدلان من قمتي رأسيهما حتى وسطيهما، اللذين يطوِّقهما حزامان عريضان من الجلد تتدلى منهما سلاسل رقيقة من الحديد، وأقفال متفاوتة في أشكالها.

«لماذا لا يعفونني من هذه المهمَّة؟» قال المخلوق الخارج من المنزل، دون ما يدلّ على هيئةٍ ناريةٍ فيه، ثم رفع وجهه عالياً كأنما يحدق في جبين حمّال الأمتعة، ومدَّ يده في كسل إلى خماره فأزاحه عن رأسه إلى الوراء. وتمتم: «أزحْ خمارك»، فعمَدَ حمّال الأمتعة، مثله مثل المخلوق الذي يواجهه، إلى كَشْفِ الخمار عن رأسه بالحركة الكسولة ذاتها ليده. وبقيا هكذا متواجهين للحظاتٍ صامتةٍ تحت أعين الشقيقتين وأخيهما المذهولة برغم تماسك ملامحهم، وهدوء وقفاتهم.

كانت للإثنين الملامح ذاتها في وجهين رخيّين حليقين، مفعمين عافيةً وهدوءاً، متألقين بشحوب خفيف تحت شَعْر أقرب بسواده إلى زرقة داكنةٍ، يتدلّى في خصْلٍ متماوجةٍ حتى رقبتيهما. وكانا خَفِريْنِ في نظراتهما أحدُهما إلى الآخر، مطيلَيْنِ التأمُّلَ الذي قطعه سؤال المخلوق ثانيةً: «لماذا لا يعفونني من هذه المهمة؟»، والتفت إلى «مكين» وأختيه: «سلَّمتموه إليَّ من جديد» قالها مبتسماً في ضجر، واقترب من حمّال الأمتعة خطوةً حتى لم يبق بينهما غير شبرٍ ليتلامسا: «ألا تسألهم لماذا يأتون بكَ إليَّ؟».

«لا» ردّ حمّال الأمتعة.

«ألن تسألهم قط؟» سأله المخلوقُ الناريُّ، الذي ليس فيه مـا يدلُّ على خصائص ناريَّةٍ، فردّ حمال الأمتعة بصوت مجروح: «لا».

«كم مرَّةً سلَّموك إليَّ؟» تمتم المخلوق، فتمتم حمّال الأمتعة بدوره: «كيف أستطيع أن أُحصي ذلك؟».

«ألست ضجِراً من هذه الحكاية؟» سأله المخلوف، فردّ حمّال الأمتعة بنبرةٍ خافتة: «لا».

«فلنمضِ إذاً» قـال المخلوق كأنما استنفدَ المحـاورةَ، نـاظـراً إلى الأختين «كليمة» و «نفير»، وأخيهما «مكين»، مبتسماً دون امتنانٍ في ملامحه: «أيّ طريق ستسلكون؟»، فـأشار «مكين» إلى الأرض الشـاسعة الكلسيـة بيده: «سنعبر من هناك. ليس لدينا خيار آخر».

في هـدوءٍ جشِعٍ اتجـه «مكين» وأختـاه صـوب الأرض الكلسيـة، صامتَيْنَ، تخفق حواشيٌّ أثوابهم خَفْقاً ناعماً في الرخاء الرقيق لهواء ما بعد الظهيرة، فيما الْتفت المخلوق الناريُّ إلى حمال الأمتعة معتذراً: «أجعلْتُكَ تنتظر؟ يالِيَ»، وأشار بيده إلى باب المنزل دون أن تفارقه ابتسامته الساخرة: «سأُحْضِرُ أمتعتي»، ثم حدَّق في عينيّ الواقف أمامه: «لقد احتملتَ كثيراً، فاحتمِلْ هذه اللحظةَ أيضاً».

خفيفاً اتجه المخلوق إلى أعماق المنزل، ليعود بعدئذٍ بأمتعته التي لم تكن إلّا لفائف من جلودٍ، وسلاسل، وشرائطَ مُعَلَّمةً بالإشـاراتِ لقياسِ الأطْوَال، مثلها مثل التي ينقلها حمّال الأمتعة على كاهله تماماً. وقد زانَها بيديه ساخراً: «إنها ثقيلة»، ونظر إلى أحْمالِ الواقفِ أمـامه: «أأحمـالك ثقيلة أيضاً كهذه؟»، فيما كان الأخيـرُ يتطلع، من خلل جـذوع شجرات التوت، إلى «مكين» وأخيته يزدادون شفافيةً كلّما ابتعدوا، حتى غابوا عن ناظريه في الكثافة البيضاء للأرض الكلسية، كأنما اجتازوا النهرَ أطيـافاً، وامتصَّهم المكانُ المتَّصل بأسفل الهضبة من جهة الجنوب.

أعانَ المخلوقُ الناريُّ حمّالَ الأمتعة على رَفْعِ أحماله إلى منكبيه، ثم عَمَد وحده، دون عَوْنٍ، إلى رَفْعِ أحماله هُوَ فوق ظهره، واستوى ناظراً إلى الجنوب لبرهةٍ، قبل أن يلتفت إلى صاحبه: «ما الجهة التي تريد أن نسلكها معاً؟». فتطلع حمّال الأمتعة من حوله، يقيس رغبَتَهُ المجهولةَ بعينين رطبتين، سائلاً: «أيُّها الأفضلُ، باعتقادك؟»، فردّ المخلوقُ الناريّ من فوره: «أتعتقد أن جهةً مّا، بعينها، ستخفِّفُ عنك رحلتك هذه؟».

«لماذا تسألني، وأنت تعرف أكثر؟»، قال حمّال الأمتعة، مُضيفاً: «اخْتَرْ جهةً تناسبك أنت. اخْتَرْ أيَّ شيء».

«الشمال»، قال المخلوق الناريّ، فردّ حمّال الأمتعة:

ـ إلى الشمال إذاً.

«ألن تسألني لماذا اخترتُ الشمالَ؟ سأله المخلوقُ الناريّ، فأبدى حمّال الأمتعة زفرةً خفيفةً دليلَ ضجره قائلاً: «تختارُ جهةَ المياه».

تبلبلت الطبقةُ الكتيمةُ للغيم من فوق، وتمزَّقَ رماديُّها المتجانسُ، لتغدوَ كُتَلاً متجاورةً، أو متوازية في طبقات تتزاحم كأرصفةٍ من صوفٍ محلوجٍ، وهي تفسح لنَثِيْثٍ من المطر أن يبلِّل عَصْرَ ذلك اليوم بَلَلاً يُصيبُ الهواءَ وحده، فلا يكاد يبلغُ الأرضَ إلاّ قليلاً. ومن أسفل تلك الصّدوع السماوية كان غرابان يرسمان خطاً مستقيماً لطيرانهما الكسول صوب الشرق، وهما ينعقان نعيقاً متقطِّعاً من حوصلتين ملآنتين.

الفصل الخامس

القيامة

لو كان ممكناً أن يُغمض الطريق الإسفلتي، في أعلى الهضبة، عينيه لأغمضهما. لكن تلك العينين، اللتين من قِيْرٍ وحصى أسود، كانتا مفتوحتين على المشهد الضاري لجنون الريش.

«بَلَكْ» كان أكثر غضباً من غريمه «رَشْ»، ينقر الإسفلتَ نَقْراً أعمى في تحفُّزِهِ الدائريّ، بعدما سال خيطٌ رفيع من الدم من عـرْفِهِ حتى بلغ الزغب المحيط بعينه اليسرى. وقد تتالت صدماتهما، وانزلاقات مخالبهما على الإسفلت المغسول بمطر الصباح، وهما ينتقـلان من حافـة الطريق الشرقية إلى الحافة الغربية، في صولاتٍ متبادلـة من الطيـران الخفيض، كأنما يرفعهما الغضب عن الأرض بيديه الخفيفتين، ناثراً بعض ريشهمـا على الجروح التي يفتحانها في كثافة الهواء الخامل للخريف الخامل.

كان الوعيد الذي في دورانهما، أحدهما حول الآخر، أكبر من أن يُقْدِما على تنفيذه: كان وعيـداً كفيلاً بـاقتلاع الهضبـة من مكانهـا، بكل مـا عليها، لتـظهر الفجـوة الحقيقية تحتهـا، مفتوحـة حتى أعمق أعمـاق الأرض، كبئر رمادية يستطيع الناظر إلى أسفل أن يـرى من حافتهـا دِيَكَةً ذهبية، في صفوف لا تنتهي استطالاتها، وهي تصيح صياحاً بارداً لتـوقظ الفردوس الذي يحجبه أفق الجحيم وأنين قاطنيها الذّهبيين.

غيم كثيف، ضارب إلى السواد، اجتاح معاقل السماء الرمادية من فوق، منعكساً على حدقات عيون الديكين، بعدما أطفأ البريقَ المتقلِّب لريشهما

المختال في عراكهما الذي ينقصه شهودٌ مهذارون. وقد أربك ذلك الغيم حركاتهما، فصارا أقلّ تصادماً، يتلفّتان بعنقين زائغين من حولهما، مداهمَين ـ أو هكذا بَدَوا ـ بالإعْتام المفاجىء للصباح الذي كان فضّياً، لكن دون ألقٍ، فوق صحن الهضبة. ومن ثمَّ ابتعدا أحدهما عن الآخر، كلٌّ إلى جهةٍ من الطريق، متواجهين في سكينة رَجراجة، كأنما يتشمّمان في الهواء الخامل رائحة أشباحٍ ثلاثة تفتتح نهارها بالوقوف على حافة الطريق، وهي تراقب المنزلين بكثافاتٍ ساخنةٍ من جسومها الخفيَّة.

اهتز عُرْف «رش» حين أمال رأسه يميناً لتتمكّن عينه اليسرى من تأمّل «موسى موزان». ولربّما لم يعمد إلى تأمّل «موسى» تحديداً، لكن الأخير كان في واجهة المشهد، على الحافة الشرقية العالية للطريق، حاجباً بطوله امرأته وصهره. وقد انعكست على عينيّ «رش»، لبرهةٍ، الخصائص الكلّية لكثافة الشبح، التي لا أبعاد لها، لكنها تُستعاد مرئيةً بالخفّة الأكثر كمالاً لذاكرة طيرٍ ينتمي إليه «رش» الذي لا يطير.

كان «رش»، يحدّق في كثافة شبح «موسى» كأنما يحدّق في غريمه «بَلَك»؛ بل كان يستقصي نسيج الشبح العدميّ الذي من سائل شفيفٍ، رقراق، كزجاج ذائب ممتزج بفقاعاتٍ فراغية تلوح فيها مسافاتٌ ذهبية أبعد من أن تُحَدَّ، كأنما يشرف جسم «موسى» على فناءٍ عظيمٍ من معدنٍ حيٍّ يسيل وسط صفوف من أعمدةٍ نورانية قائمة في فراغٍ نورانيٍّ.

أمّا «بَلَكْ»، الجاثم في الجانب الشرقي من الطريق، متواجهاً مع غريمه «رش» في الجهة الغربية، فكان أكثر وجوماً بعد ذلك العراك الصاخب، يحدّق في الحجارة والتراب المركومين في الجهة الأخرى، بفعل الآلات القوية التي شقّت الطريق، دون أن ينظر إلى غريمه. لكنه بعد برهاتٍ قليلة بدأ يتململ كَمَنْ يحسُّ ذعراً يتنامى، وكذلك تململ «رش» بعرْفِهِ الكبير المائل على عينه اليسرى.

ما مِنْ حركةٍ هناك أثارت ذعرهما. ما من عابرين أثاروا قلقَهما. وهما كانا ـ بعد كل عراك ـ ينفصلان بفعل ذلك الذعر المفاجىء الذي ينتابهما كنوبة صَرْعٍ، فيخمدان قليلاً، ثم يولّيان هاربين إلى سور الخرنوب اليابس في أقصى الساحة. والأرجح أنهما ـ كديكين لا ينطقان ـ لن يفسّرا ذعرهما قطُّ لأحدٍ. إلا أن عيني شبح «خاتون نانو» كان في مستطاعهما رصد القلق العارم للطيرين، الذي هو مؤشّر، كلّ مرةٍ، إلى حدوث ما يحدث بين فترة وأخرى، منذ الأزل، أسفل الهضبة، حيث تنبجس المياه من كل مكان، متصاعدة كطوفانٍ حتى تبلغ حوافَها، من الأنحاء جميعاً، ثم لا تلبث أن تغور ثانيةً فيرجع المكان جافّاً لم تمَسَسْه مياهٌ.

كان يُقْلِق الديكين أن يجدا نفسيهما محاصرين بالمياه هكذا، وهي مياه لم يتعرّف إليها أحد من بنات «موسى»، ومن عابري الهضبة، ومن الكلاب الشاردة، ومن العاملين على رصف الأرض أمام المبنى الحجري المستطيل ذي النوافذ الكثيرة جنوباً: لقد كانت مياهاً لا يؤبه لها إلّا في عيني ديكين، وعيني شبح امرأةٍ ترصد قلقَهما في إهمالٍ.

على أية حال، كلُّ مُرْتَفَعٍ عن الأرض يُحاصرُ بالمياه، كثيراً أو قليلاً، لأن الأزل يستعرض نفسه، المنبسطة، على شكل حصار مائيّ، لتتذكّر الأرضُ النسيانَ الذي عليها أن تختلقَهُ في الشُّكْرِ للأزل. فالطبيعة الأكمل، في صورتها، هي السطح المنبسِط: تلك هي الحقيقة التي يستطيع الديكان تأكيدها، لكنهما يترفّعان. وتلك حقيقة تستطيع المياه، أيضاً، أن تؤكّدها دون براهين، لأنّ للمياه خاصّيّةُ الحقِّ مُذ رُفعتْ عليها دعائم عرش الله. لذلك، تحديداً، كلُّ طوفانٍ تذكيرٌ للأرض بالكمال المَنْسيِّ.

والهضبة، التي يقع على سهل قمّتها بيت «موسى موزان» تنسى، بين وقت وآخر، كمالَ الحقيقة المنبسطة كسطح صقيلٍ، فيذكّرها الديكان بنسيانها، بعد كل عراكٍ، وهما يفرّان إلى سور الخرنوب اليابس ملتجئين

ممّا لا يقدران على توضيحه للجهات. كما يؤكدان للهضبة، من جهة أخرى، أنها لعبةٌ نارية، ما دامت المياه لا تغمرها.

وما الذي كانت الهضبة تفكّر فيه، على أي حال، أبعد من خصومة ديكين لا يُرَاهَنُ على حقد أحدهما على الآخر قطُّ، كأن الذي يجري بينهما فسحة صغيرة في مزاح كبير؟ لن يعرف أحد، بالطبع، ما الذي تفكّر فيه هضبةٌ كتلك، وهي تشرف على عراءٍ كلسيٍّ باذخ البياض، ونهر ناعس كدسيسة من دسائس الخريف، وسهل تحرسه إوزات ثلاث، وكلبان أصمّان. بيد أن الغيوم التي تتكاثف في تلك الأنحاء، وتتداخل، وتنفصل، وتتوازى، وتتدحرج ببياضٍ على سوادٍ، وسوادٍ على بياض، هي أقرب إلى أن تكون بعضاً من أفكار الهضبة؛ وإذْ يهطل المطر تستعيد الفكرة نفْسها، من جديد، عميقةً كالغور الذي يُطبق على السماء في بِرْكة ماء الدجاجات.

كلُّ شيءٍ، في تلك الأنحاء، بعضٌ من فكرةٍ تهمسها الهضبةُ إلى نفسها: غِربانُ الزَّرع بنعيقها الكسول، والجسر الصغير شمالاً، وشجرات التوت، و «جاجان بوزو»، وخيام الغجر، والمبنى الفاجر بعيونه الكثيرة على التُّخْم الذي هتكَتْهُ الجرّافاتُ والمداحل. ولربّما كان ذلك الهدهد القلِقُ، بطيرانه القلق في ساحة منزل «موسى موزان» ـ حين توقف الديكان عن عراكهما ـ جزءاً من تفكير الهضبة في شؤونها. وقد دار الهدهد حول سقفَيْ المنزلين أوّلاً، ثم شقَّ الساحة بطيرانٍ خفيضٍ من الجنوب إلى الشمال، واستدار شرقاً فعرَّج على طول سور الخرنوب اليابس حتى قنِّ الدجاج؛ ومال ـ بعد ذلك ـ غرباً فعبر ثلثَ الساحة قبل أن يحط شمالاً، على خطوات من بركة الماء الطينية، في حَذَر كبير، يراقب المنزلين والدجاجات الخارجة توّاً من دفء الركْنِ المعتم، ذي السقف القشّ، جائعاتٍ يهرولن بأعناقٍ مديدة.

كانت تلك برهة تأجيلٍ في عراكهما حين صعدا ـ «رش» و «بلك» ـ الحَدَبَةَ الترابية المشرفة على الطريق، متّجهين إلى الساحة. وقد استرعى

ناظريهما، فجاءةً، مشهدُ الهدهد المتحفِّزِ بقنزعته الرَّقْشاء، فركضا إليه غاضبين، مُقَأْقِئَيْنِ في ما يشبه العويل، كأنَّما غُدِر بهما، فانتاب الذُّعْر ذلك الطائر الذي التصق بالأرض الرطبة لثانية، ثم حلَّق هارباً بجناحين كالمراوح، من فوق رؤوس الإوزات اللواتي هرعْنَ، بدورهنّ، إلى الماء في غضب صباحيٍّ هو بعضٌ من طَبْعهنَّ.

إنها يقظةُ الساحة المديدة أمام المنزلين صباحاً، وقد صرَّ خشبُ الباب الشرقيِّ لتظهر من غمام عتمة الداخل «ستيرو» النحيلة الطويلة، ملقيةً على كتفيها وشاحاً عريضاً من الصوف انسدل عليه شعرها الذَّهبيُّ المُبَعثَر، ثمّ ضيَّقت ما بين أجفانها لتتَّقي ضياءَ الصباح على عينيها الزرقاوين المغرورقتين بنعاس رطبٍ، وتقدَّمت بسطلها المعدني صوب البئر، فيما ارتفعت خشخشة الحذاء المطاطي الثقيل في قدميّ «هبة» القادمة من جهة المرحاض، وقد أسدلتْ من قمة رأسها على جذعها سترة أمّها المخملية السميكة، كأنما تخشى هطول مطر. بيد أنها أزاحت، عن رأسها القسم المنسدل من السترة عليه، ناظرة في إمعان إلى «ستيرو» التي التفتت إليها دون أن تتوقف عن المشي صوب البئر، واتجهت ـ بدورها ـ إلى حيث اتجهت خالتها.

وضعت «ستيرو» السّطل على حجر مربَّع يقع تحت فوَّهة الماسورة المعقوفة فوق حافة البئر، وعمدت إلى الرافعة الحديدة، التي تضخّ المياه، فحرَّكتْها صعوداً هبوطاً عدة مرّات قبل أن يتدفَّق الماء مُزْبداً، ذا خريرٍ قويّ بسبب ضغط الهواء في الماسورة. ولما امتلأ السطل، وفاض ما فيه، التفتت «ستيرو» إلى الوراء كأنما تعرف أن «هبة» تقف على خطوتين منها حتى دون أن تراها، ومسحت إحدى يديها المبتلتين بجانب ثوبها قائلة:

«احملي السطل إلى الداخل. سأرى لِمَ لَمْ يستيقظ أحدٌ من هؤلاء المستأجرين»، فردَّت «هبة» التي كانت تنظر صوب المنزل الغربي:

ـ منذ متى تهتمين أإستيقظوا أمْ لا؟.

«ما بك؟» سألتها «ستيرو» مستاءةً، فحدَّقت «هبة» في خالتها:

ـ ما بـي؟.

«أأنت موكّلة بشؤون هؤلاء المستأجرين؟» سألتها «ستيرو»، فـردّت الفتاةُ وقد أنزلت سترة أمها المخملية عن رأسها لتبين جديلتاها المنفوشتان:

ـ أتحدَّثتِ إليهم من قبل؟.

«أتركت لنا فرصة؟ جاءوا أوّل من أمس، لا أكثر، يا ابنة هـدلة»، قالت «ستيرو» النحيلة.

«سأستطلع المنزل» قالت «هبة»، واستدارت متجهـة غربـاً، كأنمـا تحسم المحاورة، فيما صُعِقَتْ خالتها من ذلك الحسم الجائر، فصاحت: «عودي يا بنت الغيلان». ولـما ظلت «هبة» سائرة صوب المنزل الغربـي، رفست خـالتها السـطل الذي انـدلق منه بعض المـاء، لكنـه لم ينقلب، وعمدت إلى الرافعة الحديدية تحرِّكها صعوداً هبوطاً حتى فاض الماء على كل شيء من حولها.

هرع الكلبان «توسي» و«هرشه»، بلسانيهما المتدلّيين، إلى «هبة»، كأنما يسألانها، في مرح، أن تصحبهما إلى استطلاعها، لكن الفتاة ذات العظام الثخينة لم تلتفت إليهما، متقدِّمة بساقين متردّدتين إلى الكوة الصغيرة في واجهة البيت، شرقي الباب، فتمطّت واقفة على أطراف أصابع قدميها وهي تحدق عبر الزجاج المدوَّر، المتَّسخ، إلى عتمة الداخل، مظلّلة عينيها بيديها، ومن ثم أرخت ساعديها ناظرة، بوجه فيه بعض من الخيبة ـ جانبياً ـ إلى «ستيرو» التي لم تبارح البئـر بعد، وإذْ بقيت سـاكنةً هكـذا لدقيقـة، تجرّأت أكثر فتوجهت إلى الباب ذي الخشب القديم فقرعته قرعـاً خفيفاً مرَّتين، ولمّا لم تحظ بجواب أدارت مقبضه المستـطيل الضخم، ودفعت الدَّفة فانفتح الباب بأنينٍ باردٍ على سكون الداخل المهجور.

خمَّنت «ستيرو»، من موقعها، أن لا أحد في المنزل وهي ترى ابنة أختها تدلف من الباب إلى الداخل حذرة الخطو، فانبرت ـ بدورها ـ مهرولة غرباً. وقد بلغتِ الباب في أقلّ من دقيقة حتى لا يفوتها شيء، فرأت، من خلف منكبي «هبة» مشهداً ساكناً للغرفة الكبيرة، التي راكم المستأجرون على مساطب الجلوس الطينية أوراقاً وقوارير، ومدّوا على أرضها جلوداً مستطيلة عليها رسوم لا تنتهي. فيما زيَّنوا سقف الغرفة بسراج نحاسيّ ضخم، ذي زجاج كرويّ، وسمَّروا إلى الجدار الجنوبي سجادة فخمة، عليها رسوم تمثّل أشجاراً متقابلة تبرز من بين أوراقها عيون كثيرة، فيما سُجّيَ على عراء الراسم، في السجادة، جسدٌ طويل، وشخص واقف، وغراب أسحم.

جاوزت «ستيرو» ابنة أختها الواقفة وراء الباب، وتقدَّمت إلى تلك السجّادة متأملةً في إمعانٍ، ثم مدت يدها تتقرَّى نسيجها الوَبَريَّ البارزَ، لكنها أعادت أصابعها، من فورها، تتفحْص البلل الذي عليها، هامسة: «من أين يرشح هذا الماء؟». ورفعت عينيها، تلقاءً، صوب السقف علَّها تجد ما يشير إلى رَشْحٍ من المطر فلم تتأكّد، فالتفتت إلى «هبة» ساخرةً:

ـ أليس لهذا المنزل سقفٌ؟.

رفعت «هبة» وجهها الطفولي إلى السقف دون أن تجيب على سؤال خالتها الفارغ من الدّعابة. بينما استرسلت «ستيرو» وقد تغيرت لهجتها فغدت جادَّةً:

ـ كيف ابتلَّت هذه السجادة؟ المطر لا يهطل من سقف الغرفة»، والتفتت إلى «هبة» من جديد: «أترين مطراً في هذه الغرفة؟».

«نعم» قالت «هبة»، وأشارت إلى رأس خالتها: «الماء يسيل من شعرك»، فتلمَّست «ستيرو» شعرها براحتها، في حركة مفاجئة، ثم نظرت

في برود إلى ابنة أختها هامسة: «إنه يسيل من سروالك أيضاً». وابتسمت ابتسامة الغالب.

لم يكن في الغرفة ما يدلّ أن المستأجرين قضوا ليلتهم فيها. فالموقد بارد، والصحفة النحاسية الكبيرة، التي تُغْسَل فيها الأيدي، جافة تماماً، وإبريق الماء النحاسي طافح بدوره، وقد هزّته «هبة» تختبر امتلاءَهُ فاندلق السائل من فوهة عنقه.

«المستأجرون، هؤلاء، لم يرجعوا إلى المنزل منذ البارحة» قالت «هبة»، ثم ارتخى فكُّها متنفِّسةً من فمها المفتوح، فحدَّجتها «ستيرو» بنظرةٍ جانبية: «أغلقي هذه المغارة»، فأغلقت الفتاة الصغيرة فمها، لكنَّ فضولها ظلَّ على حاله:

- المستأجرون لم يرجعوا.

«أتظنينهم يتركون كل هذه الأشياء وراءهم ويرحلون، يا عظام البغل؟»، قالت «ستيرو»، فردّت «هبة» غاضبة: «لي عظام في الأقل، أما أنت فقد أكلتِ عظامَكِ»، وخرجت من المنزل الغربي متجهة إلى المنزل الشرقي، ملفوفة في سترة أمّها المخملية التي تأرجحت ذراعاها الفارغتان على جنبيها.

نثارٌ رقيق من المطر لامس أنف «هبة»، فنظرت، من مكانها البعيد إلى بِرْكة ماء الدجاجات لترى أثر القطرات على سطحها، ثم التفتت إلى السماء العالية بفم مفتوح ولسان ممدود تلتقط به الذُّرُوْرَ المائية الكريمة، متمنِّعةً في قِطَعِ الغيم المنفصلة أشبَهَ بسفن هائلة. وهي رأتْها هكذا، سفناً هائلة ذات جوانب مرصوصة بأحزمة من الحديد كما تُرَصُّ براميلُ الخشب المستديرةُ، ولها أشرعة ممزَّقة تتدلى من جنبات صواريها المكسورة، وسط الفروق اللونية للغيم الأبيض المتدرج إلى رماديٍّ يلتهمه الأسودُ النَّهِم.

لم تكن «هبة» رأت سفينةً في حياتها. غير أن الغيوم التي انتفخت

رئاتُها في قبَّة الهضبة لم تكن إلا سُفُناً دون تصاميم؛ سُفُناً مقذوفة من أعماق «هبة» إلى الأعالي، تتهادى في رويَّةٍ تثير الرَّهبة على المياه التي تطفو على طبقة الهواء.

روت «ستيرو» لابنة أختها الكثيرَ عن السفن. بل أشبعتها بأقاصيص عن سفن تجرُّ الأرض في اتجاه الجحيم الواقعة خلف تخوم المياه، حتى أن الطفلة كانت تنكمش كدودة، وتهذي في نومها. ومع أن أسئلة «هبة» كَبُرَتْ قليلاً مع انتفاخ عظامها القوية، فهي بقيت على حالٍ حَذِرَةٍ من الأشكال: «هذه سفينة.. يا الله، إنها القيامة»، تقولها كلَّما لاح لها شكل مستطيلٌ أفقياً، ذو زوايا في أطرافه.

كل الذي تعرفه «هبة» عن شكل السفن كان مصدره «ستيرو»، التي شاهدت، من سنين، رسماً لسفينة النبي «نوح»؛ رسماً مستطيلاً، بتسع صوار، تتواجه فيها حيوانات كثيرة ذات ملامح آدمية. فيما يظهر الشيطان بقرنيه، وجسده العاري، متشبثاً بحافة تلك السفينة، وهو يبتسم ابتسامة شهوانية.

غير أن الأفق الشمالي ـ في ما وراء بلدة «القامشلي» بمشهدها المُخَلْخَلِ إذا نظر الناظر إليها من الهضبة ـ كان يُذَكِّرُ الصبيَّة ذات الاثني عشر عاماً بسفينة نوح أبداً؛ تلك السفينة التي استقرَّت، بحسب رواية خالتها، على جانب من جبل الجُوديْ الذي هو امتداد شرقيٌّ من جبل طوروس شمالاً، حيث الزرقة الغامضة للحجر الأجرد، المنتصب قويّاً وموحشاً فوق سطح الطوفان الذي تتخيَّله «هبة»: «يا الله.. كيف يمكن للسفن أن تعوم على المياه؟»، ذلك ما يتردّد في أعماقها. «لا بأس أن يطفو الخشب. أما أن يكون هنالك أناس، وحيوانات لا تحصى، على ظهر الخشب، فالحكاية لا تُصدَّق». نعم. يمكن لـ «هبة» أن تتساءل على ذلك

النحو أيضاً. إذ لا يمكن ـ حقاً ـ لحشد من الخلائق إلاّ أن تغوص بـأكبر خشبة من خشب الله إلى أسفل اليمّ.

وما هي السفينة على أية حال؟ كانت «ستيرو» قد ردّتْ، من زمنٍ، على سؤال كذاك: «السفينة كلمة الهواء عند الله، يا عظام الحوت» تقول لـ «هبة»، وتضيف: «الله لا يخذل الهواء، لأنَّ الهواء من أوليائه». و «هبة» لم تفهم ذلـك كثيراً، أو قليـلاً، فالأوليـاء بشـرٌ بعـامَّـة، من لحمٍ ولِحى وسُبُّحات. أما الهواء فهو هـواء. ومع ذلـك ستنصت الفتاةُ الصغيـرة إلى حمقات الهواء الشبيه بخفقات حواشي سُتْرة أمِّها، علَّها تحـظى بهمْسِ كلمةٍ كالتسبيح الذي تختتم به خالتها «بسنة» صلواتها السريعـة، لأن الله ينتظرها، أبداً، بأشغالٍ صغيرة عند قنّ الدجاجات وسور الخرنوب اليابس.

ولماذا لا يكون البـرق ولياً من أوليـاء الله؟ لماذا لا يكـون الرعـد، والغيم؟: كلُّ ذلك يثير أعماق «هبة»، حتى أنها لا تغفل عن النهر فتضمُّه إلى الأولياء الممكنين. لكنها تُعجب قليـلاً من أنَّ نهرهم ذاك، الـرماديَّ السارح في تدفاقه عبر الأرض الكلسية، لم تعبره سفينةٌ قط: «ألن تمرَّ سفينة من هنا يا ستيرو؟» كانت قد سألت خالتها سؤالها ذاك، من سنين، فردَّت الأخيرة: «هذا نهر ضيق لا يتّسع لسفن».

«ولماذا لا يصنعون سُفناً صغيرة؟»، تسألها «هبة».

«من سيستقلُّها يا عظام الديك الروميّ؟»، تردّ «ستيرو».

«الجنُّ»، تقول «هبة»، مضيفة تحت ناظـري خالتهـا المُحَدِّجين: «الصِّنف الصغيـر من الجنّ»، فتسألهـا «ستيرو» مـوبِّخة: «كيف سيتـسع المركبُ للنَّبِـيِّ نوح؟»، فتفتح «هبة» عينيها على وسعهما، معتذرةً: «أفي كلِّ مركب يوجد النبـيُّ نوح؟».

محاورات بسيطة كهذه كانت تعصف في الصعيد المفتوح بين الخالة الشابة وابنة أختها. لكنهما لن تريا سفينةً تتفقان على وصفها، ولو قليلاً، إلاّ

تلك الغيوم التي أمعنت «هبة» النظر إلى أسافلها المضلّعة في هيبةٍ، فيما كانت «ستيرو» نفسها، الخارجة على عَجَل من المنزل الغربي، تتفرّس في السماء الثقيلة، ذات الأضلاع المتنافرة بألوانها المُهَشَّمة تحت مطارق الرّماديِّ والجُونِ. لكنها لم تكن ترى في تلك الغيوم سوى أشرعة يتحصّن الهواءُ في ثناياها، فزعانَ، بلهاثٍ مسموع.

«ما لون السفن؟» صرخت «هبة» ووجهها مرفوع إلى أعلى، فيما كانت تقترب من باب المنزل الشرقي، ثم التفتت إلى «ستيرو» تنتظر جواباً منها على سؤالها، فأبصرتها متطلّعة إلى أعلى أيضاً، حيث سربٌ من طيور الهدهد يحوّم في حلقةٍ كبيرة فوق سَمْتِ الساحة.

هرَّ الكلبان «هِرْشه» و «توسي»، قادمَيْنِ من التجويف الكبير في سور الخرنوب حيث يسكنان، وتوقفا، من ثمَّ، وسط الساحة، ناظرين إلى حلقة طيور الهدهد التي انخفضت في تحليقها حتى باتت على أذرعٍ قليلة من رأسيهما. أما الدجاجات اللواتي كن متناثراتٍ، كحلمٍ صباحيٍّ، في أرجاء المكان، فإنما قَأْقَأْنَ منزعجاتٍ انزعاجاً تشوبه الحيرةُ، وتراكضن متجمعات أمام قنّهنّ دون أن يدخلنه، وهنَّ يتمعَّنن، بأعناقهن الملويَّةِ، في حلقة طيور الهدهد التي ازداد اقترابها من الأرض، حتى أن الكلبين ارتدَّا، بدورهما، صوب سور الخرنوب، ليقفا هناك لاهثَيْنِ. لكن الإوزات الثلاث - المشرفات من حافة الهضبة، شرقاً، على الممرّ الملتوي الذي عبَّدتْهُ خطواتُ بنات «موسى» نزولاً إلى النهر وصعوداً منه - لم تختلج أعماقهنَّ من مشهد الطيور دائرةً كزوبعةٍ، بل تقدَّمن في خطوات صَلِفَةٍ إلى وسط الساحة، يرصدن الهداهيد بعيون متوعّدة.

استغرقت «هبة» في النظر إلى الحركة الجسورة لتلك الطيور، مثل «ستيرو»، بفم مبتسم مفتوح، وعينين مرحتين، فيما كانت أمها «هدلة» تخرج من باب المنزل الشرقي قادمة في اتجاههما، وهي ملتفتة - بدورها -

إلى الصباح المنثور فوق الساحة على شكل أجنحة وقنزعات، وألوان بُنية وبيضاء تختلط كما يختلط نداءُ صامتٌ بهرجٍ رحيمٍ.

«منذ متى هذه الهداهيد هنا؟» سألت دون أن تفارق عيناها السربَ المَرِحَ، ومن ثم التفتت إلى ابنتها الواقفة قرب بركة ماء الدجاجات، وقد أدركت أنها لم تسمع سؤالها، فرفعت صوتها وهي تعني «ستيرو» بكلامها، مشيرة بعينيها إلى المنزل الغربي:

- هل من أحد هناك؟.

هزَّت «ستيرو» رأسها نفياً: «لا أظنهم رجعوا إلى المنزل منذ البارحة».

«هِيْهْ..» همهمت «هدلة» دون أن يدلّ ردّها الخفيض على استغراب، وتوجهت إلى «هبة»: «أنسيتِ سطل الماء؟»، فردّت الفتاة الصغيرة مشيرة إلى «ستيرو»:

- هي التي جاءت بالسطل، يا أمي.

نظرت «هدلة» إلى أختها كأنما تفكر في أمر آخر غير سطل الماء، والتفتت بعد ذلك إلى المنزل الغربي: «إذا لم يحضر هؤلاء، حتى العصر، سترجع أخواتك إلى بيتهن»، وأومأت برأسها احتجاجاً على ما لا تعرفه: «سنعتذر. لن نؤجر البيت يوماً آخر يا ستيرو». ثم عادت فتطلعت إلى سرب الهداهيد منشرحة الأسارير: «منذ متى هي هنا؟».

باغتت «هبة» أمَّها وقد جاورتها حتى لامست كتفها الأيسر: «أنت تستعملين عَظْمَ الهدهد في مكحلتك، يا أمي»، فتطلعت إليها أمها من وراء كتفها: «نعم».

«لماذا تستعملين عَظْمَ الهدهد؟» سألت «هبة» أمَّها. فردّت «هدلة»، وهي تنظر إلى حلقة الطيور التي تتنفّس منها الساحة كرئةٍ من ريش: «نرى

أكثر يا هبة»، ومدّت يدها إلى كتف ابنتها تقرِّبها من دفء جسدها: «عَظْمُ الهدهد مع الكحْلِ يزيدان البصرَ حِدَّةً».

دافئاً كان الطيران ذو الحركة الثعبانية للطيور الصغيرة تلك، مثيراً كرشاقةٍ نسيها هواء الساحة منذ زمن، حتى أن الأرض الباردة ذلك الصباح الخريفي تجاسرتْ، مرَّة واحدة، على التقاط شعاعٍ مغامر من الشمس، فتلقَّفت ظلالَ الأجنحة لبرهةٍ على درعها الذي أعتم، من جديد، تحت السراج الرمادي للسماء المعتذرة إلى الغيم عن الثغرة التي مكَّنتِ الشعاع، ذاك، من اقتحام الحلم الباكر للخريف، لأن الذي حدث لا يليق بسماءٍ فوق هضبة، لا أقلَّ ولا أكثر.

طيرانٌ شهوانيٌّ. طيرانٌ نبيل يوزِّع الهواء طبقاتٍ طبقات تحت خفق الأجنحة؛ طبقات طبقاتٍ بحسب مراتبها التي ينبغي للهواء أن يتّخذها؛ طبقاتٍ طبقاتٍ كقناعٍ توزِّعه الرَّحمةُ على المرئيِّ حتى ينكشف مرئياً. طيرانٌ كبذخٍ. هداهيدُ.. من أين جاءت كثيرةً هكذا؟.

إصغاءُ «هدلة»، فجاءةً، إلى جهة الطريق الإسفلتي، واضعةً يدها اليمنى خلف أذنها، ألهتِ الفتاتين «هبة» و«ستيرو» عن الاسترسال في مديحهما الصامت لذلك الطيران المشتعل فوق الساحة الرطبة، فأصغتا، بدورهما، إلى الجهة الغربية تتلقَّفان الهدير البعيد الذي يزداد وضوحاً. وقد تتبَّعتا خطوات «هدلة» إلى الحافة الترابية المشرفة على ذلك الثعبان الاسفلتي، الممسك بحواف المضيق المحفور على جهتيه بأذرعٍ ألف، وبسلاسل سوداء من الحصى، ذات أطوالٍ كسلاسل أهل الجحيم.

شريط قصير من عربات آلية كان يتجه إلى الهضبة، عبر الجسر الصغير الذي يُسمع أنينهُ، أبداً، خافتاً كصمتٍ خجولٍ. وهي كانت عربات عسكرية لا يُخفى لونُها على العيون الحصيفة لأهل الهضبة، مُذْ أمَدَّتِ الهضبةُ تلك العيون بخصائص الإشراف على الجهات، من علٍ.

هكذا الهضبةُ هي الدَّفينُ المكشوفُ؛ هي الدَّفين المُتَّضِحُ عارياً من أسراره التي ألقت إلى الضياء بمفاتيحها، لتغـدو والضياءَ ـ معاً ـ جسارة النهوض بالأرض من تشابه سطحها المستوي. غير أن الأغوار، والسفوح، ومسالك الأحافير، والمطاوي الترابية ذات المتاهات الرحيمة، لم تكن أكثر حرصاً على أسرارها: إنها منهوبة بخطاطيف حديدٍ كفراغٍ حديـدٍ ترميهـا الهضبةُ، من عليائها، إلى السطوح المنخفضة، ومن ثم تجذبها وقد علقت بعقفاتِها المسنونة رياحٌ من غلاصمها كالأسماك.

لا سرَّ للهضبة، لكن لا سرَّ ـ أيضاً ـ لما يجاور الهضبـة: الهضبة مفتضَحةٌ بالضياء المُلْغِزِ، والأغوارُ والجروفُ الأخاديدُ مفتضَحةٌ بثرثـراتِ عتماتها.

لا سِرَّ للمكان المُقْتَسَم بجهاتٍ ألف، لذلك تستطيع العيون الفضولية لبنات «موسى مـوزان» أن تتلقَّف أصغر وميض لحجـر من الصوان يسقط سهواً على حجر آخر في جبال طوروس شمالاً: إنها ـ اختصاراً ـ عيون ترى فيها الوحشـةُ نَفْسَها، في أية هيئة تريدُها من هيئات الحقيقة المتردّدة؛ على هيئـة سهل، أو جسـر، أو طريق، أو نهـر، أو طيور، أو قـرى، أو جبال، أو ريـح. ولربّمـا، إذا أمعنت عيون بنـاتِ «مـوسى» النـظر إلى الشمـال الشرقي، من مكانهن العالي، لرأت فلولاً من بغال وآدميين يجرّون السهول خلفهم بـالحبال، من الغـرب إلى الشرق، كـأنما يفتحـون في المسافـة المستوية للأرض شهيقَ فتنتها السفلية؛ شهيقَ الظلام الذي يمسحُ بقطيفةٍ من الرحمة فجواتِها المخسوفة بالشُّهُب الآجُرِّيَّة، وأثلامَها التي هي قهقهةُ المياه المنثورة كذهب رطبٍ على مسالك المتاهات.

ولو أمعنت بنات «موسى» التحديق أكثر لرأين «سعيد آغا الدَّقوري» يقود تلك الفلول، لاهثاً تحت لحيته المهيبة الزرقاء، مُمَزَّقَ العباءة، لكنه يحاول ـ جاهداً ـ أن يصل جهةً بجهةٍ أخرى، بدمـوع خفيفة على خـديه امتصها شارباه.

«إنه الدَّقوري»، قالها شبح «موسى موزان»، الواقف قرب ابنتيه وحفيدته، ذلك الصباح، مضيفاً: «إنه يائس. سينقل السهولَ من هنا». وقد تمتمت «هدلة»، أيضاً، دون أن ترى أباها: «إنه الدَّقوري، يا أبي. ليتك بقيت معه».

«لِمَنْ كان عليَّ أن أترك بناتي؟» سأل «موسى» زوجَهُ «خاتون»، كأنما يردُّ على ابنته، فهمهمت امرأته:

ـ ألم تمُتْ يا موسى؟.

«ماذا تعنين؟»قال زوجها مستغرباً، فساءلته المرأة ثانيةً:

ـ ألم تَمُتْ؟.

بدا «موسى» مذهولاً لبرهة، قبل أن يلتفت إلى صهره «أحمد كالو»: «أتظن أنّ من الحريِّ بنا الالتحاق بسعيد آغا، الآن؟»، فطأطأ الشبح القصير متمتماً: «ولِمَنْ نترك البنات يا أبا هدلة؟».

كان في مستطاع ابنتي «موسى» وحفيدته، الواقفات على نَهْدٍ طيني في حافة الساحة أن يسمعن محاورة أبويهن والصِّهرَ، بل أن يرينْهم ـ إذا جاهدن قليلاً في التقليص ما بين أجفانهن المتباعدة ـ في ملاءاتهم المسدلة من الرؤوس على الأكتاف والظهور. لكنهنّ تتبَّعن بآذانهن القوية، ودمهنَّ القويّ، الضجيج القادم من جهة الشمال، وهو يصعد سفح الهضبة، رتيباً، على شكل سيارتين طويلتين، وناقلتي جند، و«جيب» واحدة، ودراجة نارية، وحصانين يركبهما مدنيان ملثّمان. وكان الموكب، ذو التفاصيل المرئية، يتقدم في بطء كأنما يستعرض الرّاكبون السهولَ الدافئة تحت مواقد الغيم. ولما بلغ أولئك المتحصنون بالحديد ذي العضلات الحيّة القاطعَ المتاخمَ لساحة بيت «موسى»، تراجعت البنتان والحفيدة أمتاراً، يلقين نظراتٍ مُظلَّلَةً بحواجبهن على الموكب، كأنما يخبئن أعينهن حتى لا تُفْتَضَحَ المرارةُ التي فيها. فيما تجاسر الكلبان «توسي» و«هرشه» فتقدما

إلى الحافة الترابية المطلّة على الطريق يتفحّصان هياكل الصفيح السائرة في فراغ الأرض بلا قوائم، لاهثين لهاثهما المحكوم بظمأٍ أبديٍّ.

غير أن الموكب، حين صار إلى منتصف المسافة بين بيت «موسى» والمبنى المستطيل، ذي النوافذ التي لا تُحصى، في العراء الجنوبي، توقّف على مضض، من جرّاء ذلك الاعتراض المغامر لحمير الغجر المتجهة شرقاً، في كسل أشبه بروح الإنسان، تتمايل على ظهورها المقعَّرة في تقوُّسها سلالٌ كثيرة، وأقفاصُ دجاجٍ، وأوتادٌ، وأعمدةٌ خشبية لرفع الخيام، وحبال، وصُرَرٌ، وأسرار أخرى خفيفة كسرقات الغجر أنفسهم.

جاءوا قبل أيام قليلة، وها هم يرحلون. جاءوا في غير الصيف الذي هو موسمهم، وهاهم يرحلون، كأنما يريحون بنات «موسى» من القلق الذي عراهن حين نصبوا خيامهم على تخوم الخلاء الوسيع الممهَّد بالقار. وقلق البنات مردُّه إلى أن الغجر سرَّاقون. لصوص لا ترعوي أيديهم عن اختطاف الأطفال على أنهم دجاج، وعن اختطاف الدجاج على أنها سيقان بصل طري.

إنهم كالحياة: سرقةٌ مكشوفة. لكن لهم حميرهم التي لا تملكها الحياةُ، يحملون عليها الفضائح الضائعة، والبراهين، والرؤى، والأحماض التي تترك مذاقاً على أرغفة الأفق، والشهوة المشتغلة كالحدَّاد على النَّفخ في الكير. وإن سأل السائل لِمَ يحمل الحمارُ هذا كُلَّه، فهو سيعثر، يقيناً، على جواب غير شاف، لأنَّ الحمار سِرٌّ إنساني، كثيف وشائك، مُعْضِلٌ لا تنفع في استقرائه إلّا الفكاهة التي هي خاصَّةٌ من خواص الكسل نفسه، حين لا يقدر الإنسان على تصنيف الغضب تصنيفَهُ المُرْتجى.

الإنسان غَضَبٌ. ولا فائدة من البحث عن تصنيف آخر، سواء أقدرَتْ بنات «موسى» على الطَّرْقِ بأناملهن على ذلك الحصن الذهبيّ في أعماقهن لينبعِثَ الرنينُ الهاذي، أم بقين ـ هكذا ـ فارغات الأعين في النظر

إلى موكب الفرنسيين، المتأني في الإفساح لسرب من الحمير كي يقتطف الحيِّز القدريَّ الذي يخصّ الحيوان من ذلك العراء.

بنات «موسى» اللواتي تقاطرن من البيت، منضمّاتٍ إلى «ستيرو» و«هدلة» و«هبة»، لم يفصحن عن المساكب العالية لأرواحهنّ في مجرى الغضب. لقد كُنَّ هادئات؛ كُنَّ علاماتٍ رطبة من علامات المكان الرَّطب، الذي يقيس محيطه بأذرع المطر؛ كُنَّ ناعساتٍ، أيضاً: «بسنة»، المتدثرة بعباءة قصيرة، سميكة، سَدَّتِ الأفق أولاً أمام أختيها بطولها، واتساع منكبيها، قبل أن تجاورها «زيري» ذات الشعر الخرنوبي المنفوش، ومن ثم «جملو» التي تتدحرج غمازةُ خدِّها الأيسر على درج الحقيقة بين ابتسامتها الدائمة وكمائن الهواء المرئية.

لماذا تبتسم «جملو» دائماً؟ تحتدم فتبدو مبتسمةً بغمازتها اليسرى؛ تصمت فتبدو مبتسمة؛ تتكلَّم فتبدو مبتسمة؛ تنام فتبدو مبتسمة. يا لـ«جملو» التي تناقضُ أن الإنسان هو غضبٌ محضٌ. وبالرغم من أن صورة بنات «موسى»، في وقفتهن على مشارف الطريق الإسفلتي، لم تدلَّ على غير ظاهرهنَّ المُسْتَطْلِعِ، إلاّ أنهنَّ كنَّ غاضبات:

«ألا تحسين بَرْداً؟» سألت «جملو» أختها «هدلة»، فردت الأخيرة:

- ألا تحسين أنتِ برداً؟.

تمتمت «جملو»، التي اشْتَمَّتْ غيظاً في ردّ أختها:

- سألتُك إذا كنت تحسين برداً من طوق قفطانك المفتوح، يا أختي.

لحظتئذٍ التفتت «هدلة» إلى أخواتها، تشملهن بنظرة عصبية: «أتتحسَّسْنَ برداً؟ ها؟».

فأبدت أخواتها استغراباً صامتاً من أعينهن، لكنهن لم يتكلّمن إلاّ «هبة» التي قلَّصت ما بين كتفيها تحت السترة المحيطة بجذعها، هامسةً:

«أنا أحسُّ برداً»، واستدارت على عقبيها عائدة إلى المنزل الشرقي.

الإنسان غضبٌ: ذلك هو الكمين الذي تتحفز فيه الحياة لانقضاضها الشهوانيّ. ومن دون غضب لا تتأكد المسيرة الصامتة للحقيقة في قناعها المُمَزَّق؛ دون غضب لا تكون للمكان خاصِّيَّتُهُ كمكانٍ.

الغضب يبتكرُ الفتنة، ويبتكر اللعبة المُلْهِمةَ التي يتخذها الوقتُ كشكلٍ مرئيٍّ: أنتَ غاضبٌ يعني أنك حيٌّ. والهضبة ـ التي هي حجارة، وطين، ورمالٌ، وحصى، ومصاريعُ مُقْفَلَة، وجيرٌ، وأرواحُ نباتٍ، وسكونٌ لا يمزِّقُه صدى أيِّ صوت، وفكرةٌ استعارتها الأرض المنبسطةُ كجمال المياه من نقائضها الشقيقة، وتعبٌ يشرف على جروح السهول، وعَدَّاءٌ لا يركض لأن الهواء الذي يمسُّهُ هو فوزه الأكيد في المسافات؛ ـ الهضبةُ، تلك، تعرف أن الإنسان غضبٌ، لذلك هي هضبةٌ.

والبراهين؟ ما مِنْ أحد يفكّر في تقديم برهان على غضبه أو يقينه الأنيس، لأن البراهين كمائن مهجورةٌ نسيتها حروبٌ مهجورة. وكذلك فعلت بنات «موسى»، اللواتي لم يقدِّمن برهاناً على غضبهنَّ السارح كأعينهنّ السارحة في المشهد، قبل أن تُهَمْهِم «جَمْلو»: «من أين جاء هؤلاء؟».

«من أين، في اعتقادك يا جملو؟»، ردَّت «بسنة» الضخمةُ، ولم تنتظر أختها لتتفوَّه، مُرْدِفَةً: «من البحر. جاءوا من البحر»، والتفتت إلى «هدلة» جانبياً: «في أية جهة يقع البحر؟».

نظرت «هدلة» شمالاً، ثم جنوباً، غير متأكدة مما ستقوله، قبل أن يستقر وجهها شرقاً وقد ألوت نصفها العلويّ في حركة قاسية من جسدها: «لا بحر في الشرق»، ثم عادت فأدارت نصفها العلوي غرباً: «البحر حيث تغيب الشمس».

«هل البحر مصيدة؟»، سألت «بسنة» أختها مبتسمة، فابتسمت

«هدلة» من طرافة السؤال، مجيبة: «لا. إنه خُرْجُ حمار»، وقهقهت فجاءةً: «إنه خُرْجٌ تنزل الشمسُ في أحد جيبيه، والأرضُ في جيبه الآخر».

ابتسمت أخواتُها، لكنهن لم يقهقهن مثلها. ثم بادرتها «جملو» سائلةً: «ما هو البحر؟»، وانبرتْ بنفسها لتوضيح جوابٍ ممكن حتى لا تبدو غبية: «البحر مياهٌ. أليس كذلك؟»، ورفعت كتفيها في إشارة إلى أنها لا تعبأ بوَقْعِ جوابها، وأدارت ذراعها تتجه بها من الشمال إلى الجنوب: «مياه، مياه مديدة في كل مكان. مياه يفصلها الظلام عن الأرض، وعن السماء». وقد نظرت إلى «هدلة» تتحسَّس صدى ما تقول، فرأتها تتأملها. إذ ذاك تشجعت أكثر: «البحر عالقٌ بين السماء والأرض».

«البحر غير موجود» ردَّت «هدلة» في برود، بملامح جادَّةٍ، واثقةً مما تقوله.

لا برهان لدى «هدلة» على ما تقوله، لكنها لا تحتاج إلى برهان: البحر غير موجود. بداهةُ الهضبة المشرفة على التخوم تقول ذلك، و «هدلة» تردّد ما تقوله الهضبةُ.

البحر؟ ما هو البحر؟ كيف يكون لمياهٍ عمياء أن تمتدَّ، وتتسع، وتنبسط، وتترامى، وتتوطَّد في فراغ لا حدود له؟ لا. الله نفسه يؤكِّد مُطْلَقَ حدوده في المكان، بنبيٍّ هنا ونبيٍّ هناك؛ بزرْعٍ هنا، وعَصْفٍ هناك؛ بجنٍّ يتهجّدون في الليل، ودِيَكَةٍ تُسَبِّحُ في الفجر؛ فكيف يتّسع للبحر أن يكون أوسعَ من المكان؟.

البحر غير موجود. إنه ابتكارٌ من أجل الحكاية التي ستصفُ الظلامَ شقياً في مغرب الأرض، لأنَّ ما مِنْ شقاءٍ أكبر من أن تكون مُنْسَرِحاً فوق ما لا حدودَ له.

ولربما زعمت «هدلة» أن الظلام، نفسه، غير موجود، إذا استرسلت متفكِّرةً: ألم تقل لابنتها إن الله ضياءٌ؟. كان والدها يردّد على مسامعها

جوهرَ الله، وهي لا تستطيع ـ الآن ـ مبايعةَ الظلام كاقتدارٍ على حجب النور: الظلام غير موجود، لكنه ـ في أسعد حالٍ ـ قد يكون برهانَ النُّورِ على امتنان الإنس للنور.

«من أين جاء هؤلاء؟». كان ذلك سؤالاً كالطنين، أطلقتهُ «جملو» في إشارتها إلى راكبي آلات الصفيح الصاخبة، بعد اصطدامه بجوابين شقيّين. إذْ ردَّت «بسنة» الضخمة أنهم جاءوا من البحر، فيما أنكرت «هدلة» وجود البحر.

هُمْ جاءوا ـ إذا ـ من لا مكان، على الأرجح، وذلك ما يفسِّر تردُّدهم الرتيب، الدؤوب، الغامض، على رقعة الأرض السوداء، المُمَهَّدة بالقار وبالأنين الأجوف لعجلات حديدية ضخمة تذرعها جيئة وذهاباً، كأنما تفرِّغ أعماقَ الهضبة من حَشْوِها ليلتصق قشرُها العلويُّ بقشرها السفليّ، بل كأنها تشرِّد المكان نفْسَهُ من حقيقة الشَّكلِ ليغدو سطحاً منبسِطاً، متماثلاً في كل جزء فيه؛ فراغاً مفتوحاً على اغتصاب السواد ونهبه؛ ليغدو لا مكاناً.

المكان هو حنين الله؛ المكان هو رسوله؛ المكان هو ما يُمْليه على كَتَبَةِ الحقيقة كنبوءةٍ طيفيةٍ يفسِّرُ بها الغيبُ خلاصَه على يديَّ الإنسان. فكيف استطاع هؤلاء الفرنسيون أن يجيئوا من البحر الذي ليس مكاناً؟ كيف استطاعوا اتخاذ أشكالٍ مرئية، ذات كثافاتٍ مشغولةٍ من أَرَقِ اللون، صاعديْنَ بها ـ في عرباتهم الصفيح ـ إلى قَحْفِ الهضبة؟.

ربّما كانت «هدلة» تفكّر على هذا النحو البسيط، لأن الهضبة بسيطة في قناعها الرَّضيِّ وسط السهول البسيطة. بل الأمور أبسط، يقيناً: «أهؤلاء موجودون؟» سألت «بسنة» أختها «هدلة» بعينيها الشهلاوين لا بفمها. فردَّت الأخيرة: «لا أعرف».

كانت عربات الفرنسيين الآليةُ موجودة قَطْعاً، أما هُم فلا برهان لدى «هدلة» على وجودهم. لكنْ، من يقود تلك العربات؟ من هم هؤلاء

المتجهون تحت قبعاتهم المستديرة كظلٍّ يحجب الروح؟. «يا للوجوه الشبيهة بالمياه!» تقول «جملو» ذات الغمّازة المرحة تحت خدها الأيسر، فتتطلع إليها «زيري» بعينين لا مباليتين في وجهها الأبيض: «أتريْنَهم من هنا يا جملو؟». فترد اختها: «أيلزمني أن أراهم لأعرف أن وجوههم تشبه المياه؟».

انطلق الموكب الحديدي متعرِّجاً قليلاً، رخواً كدويبة السُّرْفَةِ، حين أنهتْ حمير الغجر عبورَها السماويَّ إلى جهة الغرب، في فوضى رقيقةٍ كالغيوم، تاركةً ضرباتٍ كسولة من حوافرها على الطريق الإسفلت، عَرْضاً، من غير أن تؤكد للمسافة السوداء، التي لا يزيد عَرْضها على ثلاثة أمتار، أنها لا تأبه بالسطح المُمَهَّدِ المفرطِ في استوائه. وهي كانت القادرة على تأكيد ذلك قَطْعاً، كأنْ تَحْرَدَ فجاءةً، مذعورةً كما مِنِ انعكاسِ ألَقٍ في مرآة، خابطةً في ذعرٍ على الحصى الأملس والقار، ثم تلقي بأحمالها ـ من أقفاص الدجاج، والبرادع، والأطفال المتلاصقين صفوفاً، يحيط كلٌّ منهم وسط الآخر بذراعيه، وهم يتمايلون كسطورٍ غير مقروءةٍ ـ هاربةً إلى عبوديَّة الأفق.

كان الغَجَرُ، الذين حطت بهم الريح في غير موسمهم، ينسحبون، تتبعهم كلابهم الصامتة وقهقهاتُ المرح المُفْتَعَلِ لنسائهم في الأيام المعدودة التي علَّقوا فيها أرواحهم على مشاجب الهضبة وهوائها. ولم يكن انسحابهم، على غير العادة، صاخباً: فهم لا ينهرون الحمير بالعصيِّ مثلاً، أو بإشارات صوتية من تحت الألسنة تخرج كالطُّقطقة.

كانوا صامتين في انسحابهم. كانت حميرهم صامتةً. كانت كلابهم صامتة. كانت دجاجاتهم المتأمِّلةُ أُفقَ رحيلها صامتةً ومكتئبةً. كان أطفالهم، الذين جُزَّتْ شعورهم بأمواسٍ خَبْطَ عشواءَ، صامتين، يتطلعون إلى الشرق من فوق آذان الحمير المهتزَّة كأنما تطردُ ذبابات الحقيقة ذات الطنين؛ أو كأنها تتنصّت على الحقيقة كمكانٍ مُهَشَّمٍ.

عَرَّجَ الموكبُ الحديديُّ للآلات الهادرة، غرباً، في اتجاه المبنى الأبيض المستطيل، ذي النوافذ الكثيرة، المفتوحة على أعماق المكان وأسرار نباته، دون أن تفارقه عيون بنات «موسى»، اللواتي تقاربن حتى اختلطت أنفاسهن بعضها ببعض، في حين تمتمت «بسنة» الضخمة ذات العينين الوديعتين: «ألم يضجروا كلَّ هذه السنين؟ ما مِنْ شيءٍ يستحق أن يروه إلّا شاربي نعمان»، واتخذت، من ثمَّ، هيئة صَقْرٍ أحسَّ بالبرد: «ما الذي يتفرَّجون عليه داخل ذلك المبنى الذي له نوافذُ جهنم؟».

«أعتقد أنه مبنى جميل»، ردت «ستيرو»، فعنَّفتها «بسنة» دون مبررٍ واضح:

- إذهبي إليه، وعيشي هناك.

«أيسمحون لي؟» ردت «ستيرو» ساخرةً، فدمدمت أختها:

- سيسمحون لك يا فتيل السِّرَاج.

«لستُ فتيل سراجٍ يا بسنة»، قالت «ستيرو» محتدمةً، فطمأنَتْها أختها الضخمة وهي تضع راحة يدها على رأس الفتاة النحيلة: «أنت ضوء السراج، يا أختي. أنتِ السراج، والبيت الذي فيه السراج، والساحة التي أمام البيت الذي فيه السراج»، ثم ابتسمت في رقّةٍ نديَّةٍ: «أنت مطر هذه الساحة»، وأشارت بيدها صوب البئر، فيما بقيت «ستيرو» على غيظها المكتوم وهي تتمعَّن في تعابير وجه أختها بشيء من الريبة الواضحة.

على أية حال، ما الذي يفعله مبنى ذو نوافذ كثيرة في مكان كذاك؟ بضعُ كُوى ضيّقةٍ، مستديرٍ، كانت تزيّن جدران منـزلَيْ «موسى موزان». وهي كانت كافية، بغبَش زجاجها المُؤرَّقِ، لأنْ يستطلع أيُّ شخصٍ منها، مسافاتِ العراء المديدة من الجهات كلّها، سواء أتمكَّنَ من الرؤية عبرها، أم تمنّعتِ الرؤية عليه، لأنّ المكان فضاءٌ على حاله: هضبةٌ تتمـزَّقُ من

حولها السماءُ الملتصقة بأفقها الطينيّ جنوباً وغرباً، فيما تبدو مهدومةً من جهتي الشرق والشمال. أما العراء المحتدمُ بصمته، الذي يؤاخي بين الدجاج والمداحل الآلية، فهو الميثاقُ الأكبرُ لبطْشٍ رقيقٍ، حيث يتّسع المشهدُ إلى ما بعد فراغه، مفتوناً بالتكرار الذي لا يملُّ من قياس الرياح بأصابعه الخشنة؛ حيث المصيدةُ القدريةُ، المكشوفةُ، تغوي بِطُعْمِها الذي من غيومٍ.

كل شيء كان ممزّقاً إذا نظر الناظر من الكُوى التي لا ترى إلّا نَفْسَها، متعدِّدةً، في الشقاء الخجول للمشهد الواحد. كل شيء كان ممزَّقاً، لذلك تتشبث الهضبةُ بالهاوية المفتوحة على قاعها الفراغيِّ الباردِ؛ وتتشَّبث الريحُ بقنِّ الدجاجات؛ والطريقُ الاسفلتُ بالكون المنظوم على شكلِ أفقٍ قريب؛ والغيمُ بالنهر؛ والنهر بتلابيب «جاجان بوزو»؛ والأرض البيضاء الكلسيةُ بالحقيقة التي يشق أشباحٌ ثلاثة، وسط قصَبها العالي، طريقَهم في اتجاه الشمال، لاحقين بفلول «سعيد آغا الدُّقوري» التي تعبر فجواتٍ من الزَّمن إلى أقدارها.

«إنهم ينظرون من هذا المبنى إلى شيء آخر غير الهضبة»، قالت «هدلة»، وأضافت: «نافذة واحدة تكفي ليروا السماء والأرض، فلماذا كلّ هذه النوافذ؟».

أخواتها بقيْنَ على صمتهن، يتتبّعن المسيرة الباردة للمركبات بعدما عرَّجت غرباً، لتتّجه في خط مستقيم إلى باحة المبنى، المشرف على الغيب كبيدرٍ حجريّ.

لا بدَّ ـ إذا جرى تقديرٌ معقول ـ أنَّ ذلك المبنى كان الغيب نَفْسَهُ، مكشوفاً، تسترقُ أسرارُه ـ من نوافذه الكثيرة ـ المصائرَ البسيطة كذيلي «توسي» و«هرشه» المهتزَّيْنِ. وما الغيبُ ـ إذا جرى تقديرٌ أَخْرَقُ، ملتمعٌ

كشرارة تسبِّبها ضربةٌ قوية على صدغِ الإنسان ـ إلا حادثُ انقضى. ذلك هو سِرُّه، وذلك هو انبعاثُه.

الغيب هو اقتدارُ الحاصل ـ الحادث على التمويه، إلى ما لا نهـاية له، بتواطؤٍ من رغبة الإنسان في أن لا يبدو مكشوفاً كَعَتَلَةِ البئر الحديدية. والتواطؤ هو التأويلُ الـذي يلقِّنُ الأضدادَ شهـواتها، وجساراتِ فروقهـا، ومكـائـدَهـا.

التأويلُ. نعم. الرَّحابـة المفتونـة بأسى العقـل؛ الهَذْرُ المنـطقيُّ؛ الحيرة كنسيجٍ لمخاطباتٍ هادئةٍ، القَنْصُ الساهرُ على ثُغور اللّغة؛ الفكرةُ في تدرُّجٍ من نعاسٍ إلى آخـر؛ اليقين الباحثُ في دأبِ القـوارض عن ثغراته؛ المُشْكِلُ المعلومُ كعذابٍ، ـ ذلك هو التأويل، الذي يمنح الغيبَ سطوةً باذخةً في التأكيد على غيابنا.

لكن الغيب قريبٌ جداً؛ يُلْمَسُ بأطرافِ الأنامل، ويتحسَّسه اللسانُ. الغيبُ هو غَفْلَةُ الكائن عن برهته التي تمضي. هـو اليقينُ مذهـولاً؛ هو الصَّفقةُ التي يعقدها الإنسانُ مع حنينه. أمّا نوافذ المبنى المستطيل ذاك، كَمَعْلَمٍ من معالم الغيب، فلم تستطع بنات «موسى» العثور على ما يبرّرُ كثرتها.

«نافذة واحدة تكفي»، ذلك ما قالتـه «هدلـة»، التي تردِّد مـا تردِّده الهضبةُ، مضيفةً: «أهم خائفون؟»، لكن أخواتها بقين صامتاتٍ وهن يريْنَ المركباتِ الحديدية تتوزع على باحة المبنى، في الغبش البعيد، ثم يترجل منها خَلْقٌ صارمون، يختفون في صمت داخل بابه الكبير، فيما بقي سائق الدراجة النارية، وراكبا الحصانين، خارجاً، متقاربين كأنما يتجادلون في أمرٍ ساحرٍ.

لم يكن بنات «موسى» وحدهن يراقبن المشهد. فمن الجهة الشمالية الغربية للهـضبة، المشرفـة على العراء الكلسيِّ الأبيض، كـان «جاجـان

بوزو» يدفع آخر خطواته المتسلّقة ليصير منتصباً في مساحة الكمين الإلهيِّ، متجهاً بوجهه القاسي صوب المبنى، دون حركة. غير أن زحاماً غامضاً، هادئاً في صخبه، كان يطوِّق سفوحَ الهضبة من جهاتها الثلاث. فالمخلوقات النورانية، العازفة عن تقديم إشاراتها إلى الآدميين، أسندت سلالمها التي من مياهٍ إلى سفوح الهضبة، وعَمَدتْ إلى ارتقائها.

بَرْقٌ في غير موعده، وسط الغيوم المصكوكة من معدنٍ ناعسٍ، أضاءَ عوارضَ تلك السلالم المائية، فالتمعت وَمْضاً لم يَدُمْ إلاّ برهة أقصر من أن يراها الموتى العجولون في مرورهم بتلك الأنحاء. وموتى تلك الأنحاء عجولون، بعامَّةٍ. موتى لا ينتظرون إشارات الأحياء. موتى لهم صريفٌ كصريفِ الأسنان في حَنَقِها. موتى يتجادلون من جهات بعيدة، غير عابئين بتقديم حججٍ على ما يقولونه، أو بدحْضِ ما يقوله الآخرون. موتى يتحدثون حديثاً متقاطعاً؛ حديثاً جَشِعاً كسكون الهضبة.

والسكون إشارة من إشارات الله على كمال الحقيقة التي لا تفترُّ تُصغي إلى مديح نفسها الثرثارة. السكون هِبَةُ النِّعمةِ التي تكتمُ عذاباتِ النِّعمة. السكونُ خلاصُ الشَّكْلِ من نظامه، وهو البوابة الثانية - بعد بوّابة المياه المرفوعة تحت أعمدةٍ مرفوعةٍ تحت عَرْشٍ مرفوعٍ - المفتوحة كأملٍ أخيرٍ يلوِّح بقيوده الذَّهبية.

السكون ولاءُ الحقيقة للموتى الذين يعبرون الهضبة، مستعجلين، بعظام لها عزيفٌ تسمعه الإوزّات الثلاثُ. لكن استثناءً فريداً كان يشمل مسيرة الأشباح الثلاثة - موسى، وصهره، وزوجه - صوب الشمال، هادئينَ، يتجادلون في لطفٍ وهم يقتربون من الفلول التي تتبع «سعيد آغا الدقوري»، في التخوم التي تلي بلدة «القامشلي» المركومة ككومة من عظام صغيرة.

لم تكن أشباحُ الثلاثة عجولةً، ولم تكن معنيةً بقياسِ الجهات كما

يفعل الموتى العابرون صعيدَ الهضبة: إنهم واثقون في هدوئهم؛ واثقون من الجهالة التي تدَّخِرُها الحياةُ لحكمتها التي لا تعرف إلّا المرئيَّ. وقد اختصروا الوقت، الذي لا يقاسُ إلا بالسكون، فبلغوا الفلول الهادئة لرجالٍ معفَّرين بالتراب كأنما نهضوا، توّاً، من الظلمات المُحْتدمة في القشرة البُنِّيَّةِ من قشور الأرض ذات الطبقات الخمس. ولم تمضِ لحظةٌ من اللحظات التي تقاس بالمشيئة المُتْرَفَةِ للسكون حتى كان الثلاثة يجاورون «سعيد آغا الدقوري» نَفْسَه، غير مصدّقين، وهم يتأمّلونه بلحيته الزرقاء، ووجهه الشاحب. وقد أمسكت «خاتون نانو»، في حركةٍ مُباغتةٍ، بعباءة الرجل من خصره، كأنما تستلهم البَرَكَةَ منه، فجرَّها زوجُها «موسى» معاتباً، وتقدَّمها ليصير لصْقَ كتف «سعيد» الأيمن، هامساً: «المعذرة يا سيدي سعيد، لم تقصد زوجي أن توقفك»؛ بينما ظل الدّقوريُّ ماضياً إلى أمام دون التفات إلى «موسى». لكنه التفت، بعد لحظات، إلى شبح الرجل الطويل، حين ألحَّ عليه بالسؤال الهامس: «ألم تتعرَّف عليَّ؟ لست غريباً يا سيدي سعيد آغا.. أنا».

توقّف الدَّقوري الشاحب، المتقدِّم كسهم، دون أن يلتفت إلى «موسى»: «لا أحد يجهلُ الآخر في هذا البرزخ أيها السيّد. أنت شريكي»، وتابع من جديد سيرَهُ المحموم في الزوبعة المحمومة لِخَفْقِ العباءات من حوله. لكن «موسى» أدْرَكه ثانيةً: «إلى أين تمضي يا سيدي سعيد؟».

«أنا لا أمضي، أيها السيد موسى. الجهات تأتي إلينا»، قال المُلتحي الوقور. فتقدم منه «موسى» بوجهه الذي لا يُرى تحت نقابه: «ولماذا أنت مستعجل؟»، فردّ الدَّقوريُّ: «أوفِّر على الوقتِ عذابَه، يا سيد موسى»، والتفت، للمرة الأولى، إلى الرجل الطويل، متمتماً: «كُلُّنا نوفِّر على الوقت عذابه»، وعاد ـ من ثَمَّ ـ يُكْمل سيره العجول، وسط كلمات عجوله ألقى بها إلى الرجل الطويل: «أنتَ شريكي. كُنْ عَجولاً».

توقف «موسى» وصهره وزوجُه «خاتون» عن اللّحاق بـ «سعيد آغا»،

مغلولَيْنَ بلغز الكلمة التي تركها الرجلُ في عبوره كنشيجٍ :«أنتَ شريكي».

ما الذي يعنيه الدَّقوريُّ؟ أ «موسى» شريك؟ تتخبَّط أعماقُ الشبح: «فيمَ أنا شريكه؟». إنه شرفٌ كما شَرَفُ الكرامات أن تكون شريكاً لـ «سعيد آغا»، ذلك ما يكاد «أحمد كالو» يهمس به إلى جدّ ابنته. لكن كلمة الدَّقوري تبقى صاخبةً كبيرً.

«ما وجه شراكتي مع السيد سعيد آغا؟»، سأل «موسى» صهره، جانبياً، وقد عصفت به عذوبةٌ كفراغٍ، ثم التفت إلى «خاتون» أيضاً: «أسمعتِ ما قاله؟». وإذ ألفاهما صامتين عاد فتطلع إلى «سعيد آغا» المبتعد يستنجد به: «يا سيدي سعيد» صرخَ يستوقفُ الرجلَ، فتوقَّف الأخيرُ على بعد أمتار: «ما الذي يُقْلِقُك، يا موسى؟». فاغتنمها «موسى» فرصةً ليتقدَّم صوبه: «المعذرة أيها الجليل»، وأضاف إذ حاذاه: «لا يقلقني شيء، بل أريد معرفة ما الذي ستفعله في الحياة الأخرى»، فتأمَّله الرجل ذو اللحية الزرقاء المعتمة، متمتماً في تساؤلٍ:

ـ الحياة الأخرى؟.

«نعم. الحياة الأخرى يا سيد سعيد؛ حياتك هذه» قال «موسى» بصوت فيه نبرات فضولٍ عالية.

طأطأ الدَّقوريُّ كأنما يسبر الكمائن الأبعد من كرة الأرض الصغيرة تحت قدميه: «لم أفكّر في الأمر بعد، يا سيد موسى. لم أفكر بالأمر»، كرّر الجملة وهزَّ رأسه في أسى التمع تحت حاجبيه. فطأطأ «موسى» بدوره، هامساً: «هذا أمر جديد علينا يا سيد سعيد. منذ ست سنين ونحن لا نعرف ما الذي سنفعله»، ثم رفع وجهه الغارق في ظلام النقاب: «ست سنين والأمر ما يزال جديداً علينا»، وأضاف سائلاً: «أهكذا حالك، أيضاً؟».

حدَّق «سعيد» في شبح الرجل الطويل: «لدينا مُتَّسعٌ من الوقت».

«أي وقت تعني يا سيد سعيد؟» سأله «موسى» بنبرةٍ قلقة، فردَّ ذو

اللحية الزرقاء مبتسماً: «لماذا أنت قَلِقٌ؟ لديك مُتَّسع من المكان»، وأشار بيده من التخوم التي توقّف فيها ـ لصقَ الحدود التركية السورية المتداخلة ـ صوبَ الهضبة: «لديك المكان المُشْرف على المياه يا سيد موسى. أنتَ في الكمين».

في السكون البعيد، الذي هو ولاءُ الحقيقة للهضبة، كانت المخلوقات النورانية تصعد سلالمها من جهاتٍ ثلاث، دون إشاراتٍ؛ دون أحاديث؛ دون ألقٍ أيضاً، لو لَمْ ينفلتْ برقٌ ماجنٌ، في غير موعده، من الحظائر المُسَيَّجَةِ للغيوم، ويهتكَ ـ لبرهةٍ ـ ستْرَ السلالم الخفية وصاعديْها المُمْسِكين بمعاول نورانية.

كانوا غير مرئيين. لكن في مستطاع البرق أن يجعل كلَّ خفيٍّ مكشوفاً لبرهةٍ، حيث تضمحلُّ في ضيائه الصاعق كثافةُ المُشْكِل الذي يشطر ظلَّ الإنسان بين الغيب وبين الشَّكْل. ولطالما كانت الكائنات تجفل من إيحاءاته القاسية بأنَّ الكلَّ مكشوفٌ، ومتجانس: هكذا يضعُ حِيْلَة الشَّكْلِ والخفاءِ في فراغٍ واحدٍ.

الرعاةُ يرون السعالي في ضياء البرق حين يكونون مع قطعانهم في السهول. الأشباح تتراءى من النوافذ، ليلاً، على وميضه. وبه يَزِن الملاكُ الأكبرُ، الرابعُ، المياهَ وروحَها. وهو سوط القصاص أيضاً، يخسفُ الضّالّين في العراءات من شجر وبشرٍ إلى كمائن الحريق الذي هو عَتَبة فاضلة من عتبات الجحيم.

البرق رسول النار الأول؛ فتوح النار الأولى؛ شكوك النار ويقينُها؛ فتنتُها، وتسبيحُها الأزليُّ، منذ الصرخةِ الأكثر كمالاً للنَّشْأَةِ فوق المياه. البرقُ ريشةٌ من ريش البُرَاق المتململ في انتظار مهمَّته الخالدة. البرقُ معذرةُ الباطن اللَّهبيِّ عن نفسه؛ الباطن المُحْتجِبِ غيرِ المشمول بكرامة الأسرار ونُبْلها.

البـرق حديقـة الله يشمُّها الجَسُـورون. لكن ذلـك البـرقَ النبيـلَ، المنفلت لبرهةٍ من حـطام الغيم، أجْفَل النـورانيين الذين بلغـوا حـواف الهضبة، واستووا واقفين يستطلعون سـطحها المسـتوي المكشوف: لقـد أخفاهم البرقُ في وميضه، وأضاءَ الكثافات المعتمة للمكان، فبُهِتُوا.

«اللأشكالِ المعتمة هذه السطوة حين تُرى في ضياء البرق؟». ذلك ما ساءل النورانيون أنفسهم فيـه. الأشكالُ تمـويهٌ. لا وجـود للأشكـال. لا وجود للكثافـة إلا كعبورٍ طـاهرٍ للحقيقـة إلى خلاصهـا. والنور وحـده ـ وكذلك النورانيون ـ هو القِفْلُ المشمول بنعمةِ المشيئة ومفاتيحها.

«الكثافات مفاتيح»، ذلك مايكرّره النورانيـون لأنفسهم أمام جسـارة المشهد فوق الهضبة. «والمفاتيح ليست من الكرامات، لأنها استدراج سَهْلٌ للمصـائر، فيمـا الأقفال هي الكَشْفُ الأعـظم عن سِحْرِ الأقـدار»، ذلك ما يفكّر فيه النورانيون بأخيلتهم الأزلية.

كان في مستطاعهم رؤية منزلَيْ «موسى موزان». كـان في مستطاع النـورانيين رؤية الأرض الشـاسعة، المُمهَّـدة بالقـار، مستسلمةً في رخاءٍ لسطوة المبنى المستطيل ذي النوافـذ التي لا تنتهي؛ أن يروا السـرخس، والقُطر، والثومَ البرّيَّ، والخُبَّيز، متألقةً بأعناقها النباتية، وهي تشقُّ ظاهر الأرض إلى رحابة الفَنَاءِ الحيِّ؛ الفَنَاءِ الذي يتّخذ الهواء كلبَ صَيدٍ تلهثُ الجهات كلُّها على وَقْعِ لهاثه.

هكذا كانت أحوال النورانيين في الوميض المفاجىء لـذلك البـرق الماجن. هكذا كان ذهولهم وهم يـرون الكثافـات الأرضية التي لا تشبـه العدمَ المضيءَ الذي انبثقوا من صلْصالـه: «يا للفتنةِ»، غمغموا قليلاً وهم يستقـرئـون اختـلاجـات الهضبـة، ثـم صـارَحَ بعضهم البعض الآخـر: «يا للبهاء: المرئيُّ عذابُ النِّعمة». لكنَّ برْقاً آخرَ كان يُقَشِّر الغيومَ كالبصل من جهة الشمال البعيدة، حيث يرتفع جبل «طوروس» الخجولُ المُوزَّع بين

سورية وتركيا. وكان البرق ذاك، المُتلوِّي كحديثٍ من أحاديث الإغراء، يرفع الستار الرقيق ـ بأيديه الشاحبة التي لا تُحصى ـ عن فراغٍ خفيفٍ أشبه بجرحٍ سماويٍّ فوق قمةٍ من قمم جبل «طوروس» يسمّونها «الجودي». وفي الفراغ، هناك؛ في الفراغ المحبوك من مصائر الخَلْقِ، فوق تلك القمة، كان يستطيع الناظر المتأمِّل ـ بقلبه وبعينيه ـ أن يرى الهيكل المُحَطَّم لسفينة نوح، يتماوج في البُعْد المطوَّق بالأزل الحيِّ.

كانت الهضبة التي تستوطنها بنات «موسى» تواجه قمَّة «الجودي» في الشمال الشرقيِّ، المنحدر إلى إقليم الشمس كَلِسانٍ نديٍّ يُبشِّر بالقيامة كلَّ يوم، منذ الفضيحة الأولى للحياة. وكانت البنات، في لحظات فراغهنّ من الأشغال، يتجادلن طويلاً في تحديد صورة السفينة المنبثقة من خيالهن في البعد الأكثر جموحاً من خيالهنّ: «استوت على الجودي» يقول الله. إذاً هي هناك بأخشابها الصقيلة، ومساميرها التي من نار باردة لا تنطفىء، وحبالها المفتولة من نسيج العضلة الأولى لساق الإنسان.

هي هناك. السفينة هناك في المهبِّ الخالد الذي يمتحن البصر بانقلاباته الكثيفة بين الشَّكل ونقيضه، وبين المرئيِّ والمُحْتجِب. ولطالما ظلَّلت بنات «موسى» أعينهن بالأيدي ليحصرْنَ مشهدَ الهيكل السرابيِّ بدقائقه:

ـ السارية مائلة...

ـ تميل من ثقلها. إنها ذهبية...

ـ ولماذا الذَّهب؟.

ـ الجَشَعُ، يا أختي.

ـ لو جعلها الله من حديد...

ـ كانت ستصدأ السارية في المياه...

ـ جؤجؤها مائل قليلاً.

ـ الجبل يميل، يا أختي.. الأرض كلُّها واقفة على قمة الجودي، فكيف لا تميل؟.

ـ أليست أرضاً هذه التي نقف عليها، هنا؟ هل الأرض كلُّها هناك؟.

ـ خفّفي أسئلتك يا أختي. على النساء أن يستحين قليلاً...

ـ أنحن واقفات على المياه؟.

ـ لا تكثري من الأسئلة. أنت تقلقين النُّوْرَ...

ـ أيّ نور؟ ماذا لو سألتك في الظلام؟.

ـ سيقْلَقُ النُّور.

ـ ما شأن النُّور في الذي نراه من السفينة؟.

ـ اسكتي...

ـ اسكتي أنتِ.

كن يرين السفينة خشبةً خشبةً، كوثلاً كوثلاً، مسامير مساميرَ، وعوارضَ ملقاةً على جهاتها كسلالم مكسورة. لكن البرق، وحده، كان يكشف ظلال الكائنات التي ما تزال حائمةً حول هيكلها.

كلُّ الكائنات التي استقلت السفينةَ تلك تركت ظلالَها على جبل «الجودي». وحين يومض برقٌ في القبة الزئبقية لسماء الجبل، تنعكس ظلالُ الكائنات، المهجورة من جسومها، على سطح الهضبة الشماليّ، في استطالات لا يستطيع تخمين مَدَاها إلاّ الأبديةُ المتشبثة بفراغ المسافة الصُّلبِ.

كانت الإوزات الثلاث يهرعن، شرساتٍ، صوب الظلال إذا تسلقت الهضبةَ، وتَعْمَدُ إلى التقاطها من الأرض، كأنما تلتقط الجُعَلَ وديدانَ

الطين. أما الدجاجات فكنَّ ينكفِئْنَ حذراتٍ، يتأمَّلن تلك الظلال من بُعْدٍ في ريبة. لكنَّ الكلبين «توسي» و«هرشه» لم يكونا يظهران أيَّ تعبير قط، ماضيَيْن في لهاثهما الذي ورثاه من أصل سُلالتهما الموكَّلة بشؤون النار.

لم يكونا معنيين بظلال كائنات تسلَّقت الماءَ إلى خلاصها. لم تكن المياه تعنيهما، ولم تكن الغيوم ذات الوعيد البارد، في أنظارهما، إلاّ ثرثرةً عمياء من ثرثرات المكان الذي يستجير بالماء كي يؤكِّد بقاءه: لقد آثرا البقاء مُخْلِصين للألقِ الذي حتَّم لسلالتهما الحيوانية كمالَها ـ أَلَقِ النار.

في النار، وحدها، يشتغل الكمالُ ـ الحدَّادُ على تصريف شؤون الأزل من شِفَافَةٍ إلى شفافةٍ، ومن رقيقٍ إلى رقيقٍ، ومن فَناء إلى فناءٍ، ومن أكيدٍ إلى أكيدٍ أكثر طَحْناً في عذوبته، ومن الكلمة المشمولة بِوَعيدِ الله إلى عذاب النُّور.

النارُ عَطَشُ المياه في متاهتها. والكلبان «توسي» و«هرشه» يستطيعان ـ إذا تأمَّلا أعماقهما ـ أن يريا أثرَ خطواتهما متروكة كحرائق صغيرة، تتقافز مثل الجنادب، في الفراغ الذي يسند المياه بأعمدةٍ من روح.

إنهما قادمان من الكينونة الأولى؛ من الهباء الحكيم الذي يستأجر الوجود كدفْتَرْدَارٍ يدوِّن، بالأرقام الشَّفيفة، مراتبَ ذُرِّيَّةِ الهباءِ كَوْناً بعد كَوْنٍ. وهما لا يُشغِلان نَفْسَيْهما بالجهة الأخرى التي هما فيها ـ جهة الممكن والمرئيِّ التي تتنازع، في طيشٍ، على الخسارات، بل يلتفتان إلى مكامِنِ اللاَّشَكْلِ في ما يلي المكانَ، حيث الحقيقةُ تنفخ نَفْخاً رتيباً في صلصالها العابث.

كلُّ مرئيٍّ، من حولهما، مفطومٌ على الهَلَع: النبات، الحجر، الهواء، الإنسُ. والهَلَعُ مردُّه أن الحقيقة التي تتربَّصن بهم هي الانحلال من نسق إلى آخر: سيتمازجون، دون فروقٍ؛ دون حدودٍ معلومة لكياناتهم؛ يدفعهم قضاءُ الفراغ إلى الجوهر ذي الوحدة الأبدية.

أيُّ ذُعْرٍ أبْعدُ من أن تنحلَّ الفروقُ؟ كيف يكون الكُلُّ شمولاً واحداً في الوَصْفِ؟ إنه الدَّهاءُ، الذي لن يُسْتَنْسَخَ قطّ، قادرٌ وحْدَه على تبديد الأشباه في المرايا. والمرئيون هلعون من النظر إلى مرآة النار التي تبعثرُ الشّكْلَ فلا يتعدّدون ـ هُمُ الراكنون إلى الحيلة التي تجعلُ للواحد قَرِيناً، وللمتعدِّد كَثْرةً لا تُحصى.

هكذا تكون النـارُ حُرَّةً، دون إرثٍ. هكـذا تكون النـارُ قطيعـةً مع الشهوة التي هي شَكْلٌ. والكلبان «توسي» و«هرشه» غير معنيين بالمرئيِّ الذي هو فراغٌ، ما دام المرئيُّ ـ بخاصِّيَّته الكثيفة الرَّطْبةِ ـ ليس إلّا جحيمَ المياه.

كانا يظلّان هادئيْنِ في قناعهما الحيـوانيِّ إذا أَبْصَرا ظـلالَ السفينة الراقدة على قمة «الجودي» مندلقةً فوق الهضبة، عبر الفراغ المديد كمسيرةٍ في تسعة أيام مَشْياً. وكانا لا يعيران التفاتةً إلى ظلال الكائنات التي استقلَّت السفينة، وهي تتماوج كسراب نحاسيّ، لأنهما مستغرقان في اللّا فروق، حيث وعيدُ الله بالنار وعيدٌ بالعودة إلى فراغ النُّـور ذي السلام الكبيرة، التي يصعدها الألم إلى البوّابات.

كانا هادئين. كانا ـ أبداً ـ هادئين، في انشغـالهما الكثير بالـوحي الصامت لأنين الهضبة، حتى أنَّ البـرقَ الماجن ـ الـذي أُفلِتَ من سياج الغيم، فجاءةً، ذلك الصبـاح، فأضـاء سلالمَ النـورانيين، وأكتافَ بنـات «موسى» المتهدلة، وشعْرَ «هبة» المنفوشَ وهي خارجة من المنزل الشرقي ـ أصابهما بنعاسٍ فأقْعَيَا قرب بركة ماء الدجاجات، مُغمضَيْنِ عيونَهما.

صفوفاً طويلة وقف النورانيّون على حواف الهضبة بعدما ارتقوهـا؛ صفوفاً متماوجة بحسب تعـرُّجاتِ الأرضِ المُنْهَـدِمة، بـدءاً من المُرْتَفَـع الأحمر غرباً، حيث ستنبتُ قريةُ «الهلالية» من جراح الأحـراش والطين، وانتهاء بالمُنْحَدَرِ الرماديّ شرقاً، في المواطىء التي يتبعثر فيها النهرُ فتسرقُهُ

أهوارُ القَصَب، حيث ستنبتُ قريةُ «حِلْكُوْ» بالوافـديْنَ السُّريـانِ والأرمن، ولُغاتِهم العَجُولةِ التي هي طَبْعٌ من طِباع الحقيقة.

كانوا واقفين صفوفاً طويلة، متعرِّجة، من وراء «جاجان بوزو» المتَّجه بكُلِّه الصامتِ صوب المبنى البعيد ذي النوافذ الكثيرة العمياء. أما السلالم الطويلة، التي تركوها مركونةً إلى سفوح الهضبة، فقد بدأت تذوب، واحداً بعد الآخر، سائلةً جداول رقيقةً، في أخاديد الأرض التي رسمتها أقـلامُ الأمطار النَّزِقةِ، صوبَ النهر من ثلاث جهاتٍ.

لو قُدِّرَ لبنات «موسى» أن يريْنَ تلك الصفوفَ، من حـافة الـطريق الشرقية، لا نفرجت أساريرهن عن مَرَحٍ: فالمشهد أشبه برسْمٍ يحفظنه في دارهنَّ، قالت أمهنَّ إنه من أحابيل دهاةٍ من «سمرقند»، يجفِّفون في اللون أرواحَ المغول.

كلُّ لونٍ دُهْقَانٌ مغوليٌّ، أو ملك، أو سفيرٌ إلى الجهات برسائل عليها خَتْمُ الحقيقة، ذو الخطوط المتعرِّجة، دائرياً، في رقعة الشمع الأحمر على لفائف الجلود وأسرارها: ذلك ما كان ظاهراً في الـرسم الذي يعلو أحـد جدران المنزل الغربي، حيث يتوسط «تيمورلنك» مجلساً على طنافس فوق الأرض، وبين يديه ساعٍ جاثٍ على إحدى ركبتيه، مُطأطىء الرأس في خشوع، وهو يمدّ إحدى يديه برسالة ملفوفةٍ يُرى خَتْمٌ أحمر ظاهـراً على بياضها المُصْفَرِّ. وفي جهة أخرى من الرسم صفٌّ من الجند المدججين بالسيوف والحراب، يحرسون الألوان التي تقادمتْ على الخلفية الزرقاء. أما نمنماتُ الطنافس فقد حوّلها الغبارُ إلى فراغات متقطّعة لها هيئةُ اللّغْز. وهو غبار لم يمّسه أحد من سنين على الأرجح، فتماوجَ على ثنايا الورقة المقوّاة، أفقياً، حتى لكأنَّ مشهدَ «تيمورلنك»مطبوعٌعلى ورقة كانت تحمل رَسْمَاً شفيفاً لصحراء شفيفة، ذات كثبان متدرِّجة كجِلْدِ الدَّرَّاعَة.

كانت أمهنَّ «خاتون نانو» تتباهى أن «تيمورلنك» مرَّ بهذه الهضبة كلما

نظرت إلى الرَّسم الذي تهرَّأَتْ ورقتُهُ، وتراخَتْ، خلف إطارها الزجاجي المغلق من الحواف كلّها بلاصِقٍ أسْوَد من القماش. «تيمورلنك مدَّ سُرَادِق من الحافة الشمالية للهضبة حتى أعمق أعماق الجنوب، في اتجاه البادية»، تقول «خاتون» التي لم تعد تتذكر مَصْدراً لحكايتها، حتى أنها تعتقد ـ بيقين رقيقٍ كَـوَبَرِ سـاعِدهـا ـ أن المغوليَّ ذا الحـاجبين المعقودين، والشـاربين المرخيَّين على زاويتيْ فمه، مدَّ سُرادقَ لخلصائه، وقادة جُنْدِ، أمام عينيها نفسيهما. ولرّبما ابتسم لها، أيضاً، من مجلسه المهيب، كأنما يستـأذنُها البقاء يومَهُ ذاك على سطح الهضبة، فأذنتْ له بإشارة من رأسها، في ما يشبه حلمَ يقظةٍ. لكن «خاتون» متأكدة أن كلبةً من كلاب «تيمورلنك» مدفونة في مكان مّا غربـيّ الطريق الإسفلت، على عمق ثلاثين متراً. وهي الكلبة التي اختطفت من يديّ المغوليِّ قطعة لحمٍ مسمومة فَفَدَتْهُ بنفسها فماتت، فأمر بذَبْح طبّاخيه أجمعين، ودفْنِهِم فوق جثة الكلبة على عمق ثلاثين متراً، كما تؤكد «خاتـون»، وتضيف: «الكلبة تـظهر فجـراً، وتنبح مـرتين، قبل أن تختفي. إنها فألُ خيرٍ».

لم يكن الرَّسْم معلَّقاً إلى مكان عالٍ، بل كان في متناول اليد على الجـدار، لكن أحداً لم يمسَّ الغبـار الذي تجـاورت أعشاشُـهُ على ذلك الفضاء المغوليِّ ذي النمنمات التائهة. لقد حذَّر «موسى» بناته: «لا يُهانُ الغبارُ. لا تُهِنَّ الغبارَ يا بناتُ. إنه رسول الزمن». وكان يتوجه بكـلامه، عادةً، إلى «زيري»، التي دأبت ـ منذ أنجزت مكنستها الضخمة من الريش ـ أن تطرد الغبار من كل مكان، إلّا من الأرض التي هي من مهمة مكانس القش العادية.

كانت في الثالثة عشرة حين انبثق فيها ذلك النزوعُ إلى طرد الغبار، بأثرٍ من بنات عمها، فلم تستثن أيَّ ريش خشنٍ أو ناعم، من القَطَا حتى الإوزّ، عامدةً إلى ربْطِهِ إلى قصبة طويلة بخيوط من الصوف، حتى غدتْ مكنستُها أشبه بفُطرٍ ضخم ذي ساقٍ طويلة، بألوان لا تحصى هي بقايا أرواح

طيورٍ وحشيةٍ وأليفة تسلّقتْ مراتبَ الحقيقة ـ كسياج من القش ـ إلى قيامتها. ولطالما نهاها والدها عن الإمعان المحموم في مرور ذلك الريش على كلّ شيء: الكُوى الصغيرة، الزّرابيّات، القدور، اللُّحف المُنَضَّدة، الفُرُش، الثياب المعلّقة إلى عَمَد البيت، رؤوس أخواتها.

«لا تُهيني الغبار يا زيري» كان «موسى» يكرّر على مسامع ابنته، مضيفاً: «اتركي قليلاً منه على المسطبة يا فتاة. إنه بَرَكةُ الغيب». لكن «زيري» لم تأبه كثيراً ـ برغم تساهلها أحياناً ـ للبشارات غير المفهومة في حكمة أبيها. أمّا حين غدا «موسى» شبحاً، قبل ستّ سنين، فقد آثرت «زيري»، وأخواتها أيضاً، الإنصات إلى الصدى المهيب لصوت الماضي: «لا تُهِيْنَنَّ الغبارَ»، فلم يعمَدْنَ إلى إهانته إلّا قليلاً.

وفي مكان مّا من فراغ الحقيقة الممتلىء بمجاهل اليقين، كان صوت «موسى» يترقرق رَطْباً كخريفٍ على كتفِ شَبَحٍ: «ما الذي تنفضه عن خمارك يا أحمد؟»، يسأل الرجلُ الطويلُ صهره، فيردّ الأخير: «لا أعرف. إنني أنفضه فحسب». فيحدق فيه جدُ ابنته بعينين لا تُرَيان: «إن كنت تنفض عن خمارك الظنون فهذا شأنك. أما الغبار...»، فيبتسم «أحمد كالو»: «غَسَلَ المطرُ الغبار الذي علق بخماري، يا أبا البنات».

«ما من مطر يغسلُ الغبارَ، يا أحمد»، يردّ «موسى» على صهره، مضيفاً بصوت عميق: «الغبار ضَيْفٌ». ويصمت «أحمد» دون أن يتفكّر في كلام «موسى»: «ضيف. إنه ضيف». فليكن الغبار ضيفاً. أو سلطاناً. فليكن الغبار ما يشاء الغبار كشاهد على اليقين النازف من المصائر، لأن «أحمد كالو» لا ينفض الغبار الذي غسله مطر اليومين الماضيين عن خماره، بل يذكّر نفسه أنّ خِماره هو الحجاب الرقيق بين الغبار كيقينٍ وبين الروح كشكٍّ أزليٍّ.

ما هَمَّ. سيظلُّ الغبارُ العالقُ بالرسم على جدارٍ في المنزل الغربي

مُمْتَنّاً للحكمة التي تحمل هدايا من روح «موسى موزان» إلى روح «تيمورلنك»، الذي ترك ظلال خيامه على الهضبة كبذور السُّرخس، فلا تشرقُ الشمسُ إلّا وتُرى تلك الظلال، منذ مئات السنين، في الأمكنة ذاتها، لصقَ الخيام التي نصبها العمال المنكبّون على رَصْفِ الأرض بالقار، في المساحة العظيمة الممتدة كقلقٍ أمام المبنى ذي النوافذ.

«الغبار ضيفٌ». نعم. وبنات «موسى» لا يُقْلِقْنَ ضيفهنَّ الساهر على حقيقة اللون في الرّسم المغولي: اللون خلود المشهد؛ عماؤه وعصاه التي تقوده في النَّفق المرئيِّ إلى حريَّة الظلام. اللون خلاص الشَّكل. ومن أجل أن يظلّ ذلك الخلاص مصوناً بمشيئة النّعمة، يعمد الغبار إلى تدابيره القوية في صيانة اللون من الوضوح، ما دام الوضوح فتنةً.

«الغبار ضيف». إلهامٌ من أعماق «موسى» زيَّنَ له حكمَتُه في أن يكون الغبارُ ضيفاً. لكن، من أين جاء الغبار في قيامته الأولى؟ أهي السيرةُ، في ختامها، حين ابتدأ الانحلالُ في الخلِّيةِ الحيَّةِ، بعد ركود الكون؟ وعيدُ القَدَرِ، أبداً، أن يمضي الوجودُ إلى غايته في الغبار، حيث لا تَرَفَ بعد ذلك، بل شِبَاكٌ رقيقة تتخبط فيها أخيلةُ النبات، والإنسان، والحيوان، والجماد، معاً، دون أن تقدر على تشكيل مشهد واحد من حيواتها الماضية.

الغبارُ هو مَجْدُ الوحدة؛ مجدُ الكليِّ في سَهَرِهِ على اليقين.

كلّ شيء كان كمالاً في الموعد القديم للخيال مع أَزَلِهِ: مياهٌ. أساساتٌ من كمال المياه. افتتانُ الحقيقةِ بنفسها مرئيةً في المياه؛ الحقيقة الصقيلة كَعَظْم الهدهد.

كل شيء كان انعكاساً للجوهر الصقيل في الياقوتة الكُرويَّة، وما الاستطالاتُ، والمستويات ـ كأشكالٍ حديثة في السياق اللامعلوم لذاكرة المشهد ـ إلّا من خصائص النشأة العضوية. لذا كان الكُرَويُّ ـ في الشفافية

العظمى لكينونة اللاوجود - هو المؤهَّلُ وحده ليكون من تجليّات الكمال: مياه مدوَّرةٌ على نفسها؛ أعمدةُ مدوَّرة؛ عرشٌ مدوَّر؛ خَلْقٌ من ضياء ككراتٍ في أزلٍ مُدوَّرٍ يعلو بنفْخٍ من فم الجَلاَلة.

لم يكن من غبار هناك، في الصَّقيل الكرويِّ لسؤال الغيب، حتى جاء الإنسان، بنفسه وحيواناته وحَطَبه؛ بقلاقِلِهِ اللّونيَّةِ الكثيفة؛ بلوعتِهِ وأنينه المرثيَّيْن؛ بموته الذي كان مدخلاً أوَّل إلى سيرَته كغبارٍ.

الغبار هو الوجود مُنْصِتاً إلى ذاكرته الأبعد. الغبارُ صدى الإلهيِّ في الفراغ الفاني لسيرة الإنسان. لذا كان في اقتدار بنات «موسى» أن ينصتنَ إلى الرَّسم المغوليِّ ذي الصخب، وهو يشي إلى الغبار، الذي يعلو سطحَهُ، بأسرار اللَّون، ويَدُلُّه على الكمائن التي موَّهها المغولُ في ثغرات الزمن الذي هو غيبوبةُ المكان.

كنَّ يسمعنَ الرَّسمَ المُعلَّق إلى الجدار حتى لو لم ينظرن إليه. كُنَّ يستسلمن للَّون الشاحب كي يسرقهنَّ إلى سُرَادق الملك الغامض ذي العينين اللتين تريان الريح.

وحدها العيون الضيقة المستطيلة، ذات الزوايا المرتفعة إلى أعلى، ترى الريح. المغول يستعيرون الريحَ لعيونهم، ويعيرونها عيونَهم، لذلك صعدوا الهضبة كي يشرفوا على الممالك التي يتنفَّس الهواء رائحة الطين في أسوارها، بعدما ضمنوا ولاءَ السهول تتجسَّسُ لأمرهم على الأصقاع المكشوفة من نهايات الأرض.

جثث كثيرة بقيت على الهضبة بعد رحيل «تيمورلنك»: بغال لم تستطع مجاراة الروح الفتيَّة في عظام أولئك القادمين من «سمرقند». كلاب تعبت من ملاحقة العظام التي يرسم الجنود عليها رسائل أسنانهم القوية، ويقذفون بها من خلف أكتافهم. عبيدٌ ضامرون طلبوا الرحمة، بأنفسهم، حين غدوا مكفوفين من التعب فرأفتِ السيوف بهم. بضعةُ

مهرّجين لم يعودوا قادرين على إضحاك السلطان المغولي. طهاةٌ زادوا من مقادير الملح في الطعام، أو أنقصوا منها. راقصتان عانتا من عروق النِّسَا، وأميرٌ واحد شكّكوا في أمر علاقته بطُهاةٍ دسّوا السُّمَّ للخان العظيم «تيمورلنك»، فَسُمِّر على باب خيمته، وربطوا كلباً إلى ساقه حتى يأكله إذا جاع.

جثثٌ مِنْ هذه بقيت على الهضبة، ثم اندثرت لتغدو غباراً، ثم عَلِقَ الغبارُ الجاثمُ فوق طبقات السنين بالرَّسم المغوليّ المعلَّق إلى جدار في منزل «موسى موزان»، كأنما سيتذكَّر اللونُ ماضيَهُ فيصحِّحَ مقادير الظلال الضائعة بين النمنمات الضائعة في الرَّسم المهجور.

رَسْمٌ مهجور؟ ربما. أرواحٌ كثيرةٌ غادرت مُعتقلاتها خلف قضبان اللون حين تقشَّر اللونُ في اللوحة المغولية. والدليل أن حَرَّاساً في ذلك الصّفّ الموكّل بحماية «تيمورلنك» غدوا لا مرئيين، إلاّ بعضُ أطرافِ أحذيتهم الصفراء، ونتوءات الخُوَذِ المنبثقة كسهامٍ سترشقُ السماء بأقدار الأرض. لكن الخان الأعظمَ، ذا الوجنتين البارزتين، الصارمَ في مَجْلِسه الزمنيِّ، كان في كامل هيئته اللونية، داخل بلاط الرَّسم المعلّق إلى جدار في منزل «موسى».

إنه باقٍ هناك بالزَّرَدِ المتدلي من تحت خوذته على كتفيه؛ بقُفطانه الذي من فرو التيوس الشقراء. إنه باقٍ في الأكيد المسحور، القريب من عينيّ أُمِّ البنات «خاتون نانو». لكن البنات، بدورهنَّ، يستطعن أن يتنشَّقْنَ الهواءَ الباردَ من حول قفطان الفرو الذي يرتديه المغوليُّ، كأنّما كانت الأرض صقيعاً من ثلج حين اعتلى الرجلُ الهضبةَ بسُرادِقِ جيشه الذاهب جنوباً إلى بادية اللامكان.

ولماذا يغامر فاتحٌ إلى اقتناص الجهات في موعد الثلوج؟ كل الغزوات تتوقّف إلى الربيع أو الصيف. كل اجتياح كبير يتوقف حتى الربيع

أو الصيف، لأنَّ الخريف والشتاء معوِّقان أخْرَقان، بسلاسلهما الكبيرة التي من ريح ومن برد، من طين ومن ظلام، من عدمٍ ومن عبثٍ.

الربيع والصيف مُهرِّجان. روحاهما روحا نباتٍ وشمس مُهَـرِّجينِ. وهما جَمُوْحَانِ في تهوُّرِهما المفتوح على الشهوة، من اللون في اشتعاله إلى جفاف اللون. لا أسرار لهما. لا دهاءَ. مغلولان بالقياس المعلوم لحرية النبات ربيعاً، ومقامرات الظلال بجواهرها الشاحبة صيفاً.

الربيع قتيلٌ يحمله الصيفُ على منكبيه، في صعوده الدرجات الرخامية إلى مذبح الخريف الثديـيِّ الذي يُرْضِعُ الحقيقة. أما الصّيف فهو هاويةُ نَفْسِه، ينحلُّ غَيْظاً بعد غيظ في وهجه اللامحتمل، ناكثاً بوعوده التي يفرِّقها على الجهات في أنه سيعيد الأرض إلى طمأنينة الحريق الذي لن يخبو.

كان المغوليُّ، ذو العينين المشقوقتين بشفرة الريح المقوَّسة، قد آثر المرور بالهضبة في فَصْلَيْ الجهالات الرحيمة: الخريف والشتاء؛ حيث الأمل في أن يشهد الإنسان صورةَ أقداره غير مرسومة على الظِّلال التي تتبعه الشموسُ بها، كأنما تسترقُ السَّمْعَ على شهواته.

الخريف والشتاء هما خروج الكائن إلى نداء المغيب الذي يمتدُّ من الفجر إلى الفجر، خائفاً، لتكتمل له سطوتُه، حين يكون الخوفُ ـ وحده ـ رسالةَ الغيب التي تُقْرَأُ على وجوهها النبيلة، فيستسلم الكائنُ ليَهْزِمَ المكانَ. نعم، ذلك الخوف، أكيداً، هو ما كانت بنات «موسى» يتحسَّسْنَهُ في الصقيع البارد للرَّسْم المغوليّ، ما دام «تيمورلنك» يتلفَّع بالفرو في عراءِ اللون ورياحه.

المغول يتلمَّسون طريقهم إلى العالم من جهات الصقيع الكبيرة؛ من جهات الثلوج ونواعير الجليد التي تديرها الأعاصير. ولكثرة تعوُّدهم على التحديق في العواصف الباردة، بأجفان مضمومة، غَدَتْ عيونهم شقوقاً أفقية

تتقوَّس زواياها، عند النهايات، إلى أعلى.

«ضيِّقي بين أجفانك تصيرين مغوليَّةً» تقول «خاتون نانو» لإحدى بناتها، في مشهد قديم من أحوال الوقت على الهضبة. رنينُ صوتها موثوقٌ به. شبحُها موثوقٌ، به. حكمتُها خُنْفساء ذهبية تتسلق العَدم الحنون، ذا الوبر الكثيف حول ثديـيّ الزمن. وكانت «خاتون»، حين تقول كلماتها الظريفة تلك، تنظر من كوَّة صغيرة في جدار البيت إلى الثلج الذي بَسَط مكائده الكبيرة كأزلٍ أبيض على كل شيء، من قمة جبل الجودي التي لم تعد تُرى، حتى المغاليق الأكثر عتمة تحت قشرة الهضبة. أما سطحُها - سطح الهضبة، فاندثر عائداً إلى هيئته الأولى كفراغ في فراغ البياض.

في سنة غير موثوق بها، هطل ذلك الثلج الموثوق بشكيمته. ولأربعة أيام لم تستطع عائلة «موسى موزان» الخروج أبعد من أمتار، لتحضر «خاتون»، أو «موسى» نفسُهُ، أو إحدى بناتهما، دجاجةً متجمدة من القن الذي غدا كهفاً جليدياً، أو ليأتوا بروث الحيوانات المحفوظة في خندق من الطين والغصون، ليتدفّأوا بدخانه لا بنارِهِ، بعد إلقائه - رطباً - في الموقد المختنق. وحين كفَّ الثلج عن هطوله، لزمهم يوم لفتح ثغراتٍ وممرات، في الساحة، تصلُ المنزل بقن الدجاج، وسور الخرنوب بحافة الطريق غرباً. وما تكوَّم من ذلك الجماد الأبيض - الذي جمعته العائلة على شكل كراتٍ كبيرة من الساحة - فوق حافة الهضبة الشمالية، صار حَدَبَةً لا يستهانُ بارتفاعها، تستطيع إحدى البنات أن تلقي من فوقها، حين تتسلّقها، نظرةَ كشّافٍ إلهيٍّ على مدى الطوفان الساكن، الأنيس كافتتان الروح بجلال وحشَتها.

لأيام لم يصل أيُّ شخص إلى الهضبة، مغامراً بالطيران في الجحيم البيضاء. حتى «نعمان حاج مجدلو» الوفيُّ كذهبٍ. حتى «نعمان»!. لكن - قطعاً - لم تكن عائلة «موسى» في حاجة إلى نجدة، مثلاً، أو معونةٍ، إذْ أن «جاجان بوزو» الأعجف، في معطفه السميك المحبول من قُنَّب السماء

الثالثة، كان بالمرصاد للثلج يفتح فيه المتاهات إلى ممالك روحه، في اتجاه الهضبة وفي اتجاه السفوح؛ في اتجاه النهر وفي اتجاه الجسر، أزرق اللون تطقطقُ أنفاسه كمفاصل عظامه. وكان يقف، كلّ مرة، في ساحة بيت «موسى»، متكئاً على رفشه، تعلو وجه ابتسامة ذابلة، لكنها حيَّة، ورقيقة أيضاً، مُلْهِمَةٌ وناعمة كأنفاس الجليد، كأنما يقول للعائلة المتحصِّنة بالدخان الدافىء للموقد: «أنا هنا. كل شيء على ما يرام».

و «جاجان بوزو» هو نفسه الذي حفر مع «موسى»، و «نعمان»، أربع آبار بعمق مترين لكل واحدة، في الساحة، من أجل تخزين الثلج، حين واتتهم أيام الصقيع المشمسة قليلاً، بعدما توَّقف إنذار السماء عن بثٍّ إشاراته على شكل رقائق من الجماد البارد.

كان الحفر في الأرض الطينية شاقاً؛ لزجاً وبارداً، حتى أن عَرَق الرجال الثلاثة يُشتمُّ قبل أن يُرى. ولمّا أنجزوا الحفرات غطوا قيعانها بالتبن الجافّ، وكذلك جدرانها الدائرية، بشكل متتابع البناء: كلَّما دفعوا بالثلج النقي إليها أحاطوا ذلك الثلح بدائرة من التبن، ليعزلوه عن جدران الطين التي قد تمتصه إذا تدفّأت الأرض في الربيع. وكانوا يعمدون، بالطبع، إلى وضع سقف سميك من التبن فوق الثلج المخزون في الآبار، ثم يغطون الحُفر بطبقة من الطين على شكل قباب تكاد تكون مستوية مع سطح الأرض. وفي الصيف يفتحون تلك الآبار، الواحدة تلو الأخرى، ممتنّيْنَ للجليد المتماسك، الملوث قليلاً بالقشّ وبالتراب، لكن لا يهمُّ: القش يطفو على سطح الماء الذي يلقون بالجليد فيه، داخل أوعيتهم النحاسية، بينما يترسَّب التراب. أمّا الماء البارد فيغدو رسالة من فردوس الله إلى كائناته الحمقاء إذا طاش يقينُها بسبب القيظ.

أما في ذلك اليوم، الذي وصلت المركبات الآلية فيه إلى باحة المبنى ذي النوافذ الكثيرة التي لا تنتهي، فإن «جاجان بوزو» كان قلقاً، ومأخوذاً بالمشهد حتى الثغرات الكبيرة في حِصْن روحه. لقد أحسّ، منذ الفجر، أن الهضبة تتلعثم في سرد مسارات النهار على يقينه ـ هو الذي لم تتلعثم

الهضبةُ، قط، في أن تقرأ له، كلَّ فجر، مهمّاتـهِ، وتبثّ في بخار شـايه الصباحيّ الأسود أن سلوك الهواء، ومداراته في الجهات، هي صفحة خيالِهِ يتأملُ فيها ما يريدُ فيكون له ما تعرفُ الهضبةُ.

كان «جاجان» والهضبة متواطئيْنِ، في مرح، على أن يكون كلُّ نهار هناك فخّاً محسوباً لقدرٍ محسوب. أما ذلك اليوم، الذي بدا فيه المبنى ذو النوافذ متهيِّئاً كرقعة شطرنج، فقد اغتلى في أعماق «جاجان» شكٌّ صغير كخطوة لقلقٍ، ثم اتّسع الشك ليصبح كجناحي كركيٍّ في تأهُّبه للطيرن، فترك أخشابَهُ، التي كان يشتغل على صَقْلها، من يديه، وصعد الهضبة من جهة العراء الكلسيِّ الأبيض، ليقفَ حيث وقف، دون أن يعير الحشدَ الهائل للكائنات النورانية من خلـفه التفاتاً: لقد بُوْغِتَ يقينُهُ.

لا يعرف، حتى النهر نفسه، ما الحكمـة في أن يجمع «جـاجان» جذوع أشجار مخلوعة من سيول الشتاء، على الضفة الشمالية، وأن يكوّم ـ هناك ـ الغصون التي يقدر على بتْرها، ثم ينكبُّ، ساعةً معلومةً من فجر كل يوم، على ذلك الحطب يقيسه بالأشبار، قبل تقطيعه بجهْد حسابيٍّ، رامياً إلى صقله دون مهارة.

لم يكن ما يفعله الرجل الأعجف حصاداً للحطب من أجل المواقد، لأنه يعمد إلى شقِّ الجذوع طولاً، ويترك الغصون متساوية في استقاماتها، ، ويربطها متعامدةً، أو متصالبة، أو متوازية، بألياف من قشر القصب النهريِّ، كأنما يبني كوخاً مستطيلاً، لكنه لم يكن كوخاً، بل أشبه بجذع مركبٍ، أو طِوْفٍ، جرى تصميمه في حَنْكةٍ خلخلها اليأسُ.

وقد ألقى «جاجان» ـ ذلك الصباح الذي صعـدته أنفـاسُ العربـات الحديدية ـ بمسْحَاجِه ذي الشفرة الصدئة، وارتقى الهضبة من جهة العراء الكلسيِّ الشاسع، فيما كان باستطاعته سلوك الطريق المُعبَّد، كأنما اختار الجهة التي ستقوده إلى الحصار. لكنه ـ في وقفته المأخوذة بسكون المبنى

ذي المحاجر العمياء ـ لم يحسَّ حصاراً، برغم الطوق المديد الذي ضربته المخلوقات النورانية على حواف الهضبة، بل تهدَّلت كتفاه تحت معطفه المنسوجِ من قُنَّبٍ وزمنٍ، لتنقسم روحُه على نفسها، دون قلقٍ، متأمِّلةً ما لا يتأمَّلُهُ المشهدُ نَفْسُه.

«تقدَّم في العُمْر حتى نسيه الموتُ» تقول «هدلة» في الآناء التي كانت ترى فيها «جاجان» العابر تخوم السهل مستعجلاً دون قصد واضح. هكذا، كان الرجل مستعجلاً كالحقيقة. لكن «هدلة»، التي أبصرته في وقفته الغامضة على حافة الهضبة غرباً، لم تشغل نفسها بعمر الرَّجل وعجلته، لأنها كانت مستغرقة، بدورها، مثل أخواتها، في استقراء الأشكال التي نزلت من تلك العربات الحديدية، وطوَّقت المبنى المستطيل، بل تقدَّم بعضهم صوب الرقعة المرصوفة بالإسفلت، المديدة كلسان العبث، حيث تراجعت المداحل، والعمال، وبراميل القار المسودَّة إلى الأطراف القريبة من الطريق الإسفلتي، وجَمَدتْ هناك ترقب الحركات المهيبة لأولئك المستطلعين، ذوي الأحذية العالية الرصينة بأعقابها ذوات الأجراس، والمعاطف الرمادية كأعين الذئاب. فيما كانت حامية صغيرة من الجند المعسكرين في خيام مع العمال، طوال سنيٍّ العمل هناك، يشرحون للوافدين خرائط الريح، وأبعادَ الظلام حول المكان، بحركات كثيرة لم تمنع «هبة»، برغم فضولها الغامر، من أن تنحني على الأرض لتلتقط صَدَفةً خذْروفيَّة أحسَّتْها تحت باطن قدمها اليسرى.

لدى «هبة» سلَّتان ـ كلٌّ واحدة بعمق نصف متر، وقُطْر يبلغ شبرين من يدٍ كبيرة ـ مليئتان بأصدافٍ خذروفية، وحلزونية، وَوَدَع كُمثريٍّ، ومحارٍ من محار الغُدْران، وصَدَفٍ جوزيٍّ، ومخْروطيٍّ، ولوبائيٍّ. لكنها تحتفظ، في طاسة من النحاس داخل إحدى كُوى البيت، بواحدة فقط من صَدَف الأرجوان، لها عنق طويل، ورأس عظميٌّ أشعث ينتهي بمخروطٍ في قمّته، التي تعلو فَرْجاً داكناً كدائرة بيضوية تضيق من الأسفل حتى قاعدة العنق.

لم تجد «هبة» توأماً لتلك الصَّدفة، في بحثها الكبير كبحث الجراد، بدءاً بالأرض االكلسية البيضاء وانتهاءً بالسفح الشرقي للهضبة الراقد بين شجرات العنب الخرساء.

«إنها صَدَفةٌ علامةٌ» تقول «ستيرو» متشائمة، منذ عثرت «هبة» على تلك الصَّدفة الصغيرة تحت مناقير الإوزات وهن يتخاطفْنها، فأبعدتهن والتقطتْها، ثم ركضت بها إلى المنزل تُريها لخالاتها، اللواتي أبدين إعجابهن بشكل الصَّدفة ذات النتوءات، إلاّ «ستيرو»: «إنها علامة».

كلُّ خروج للطبيعة على قواعدها «علامةٌ»: طفل برأسين. شاةٌ بستٍّ قوائم. أفعى بقرون كقرون التيس. الغبار الأحمر القادم من الصحراء. صياح الديك في الليل. أن يتكلَّم القردُ. كثرةُ الكائنات العوراء. الدجاج الذي يلد دون أن يضع بيضاً. الشرُّود الدائم... كلُّها «علامات» على الطريق المرسومة لنهايات الكون في القرن الرابع عشر.

أهل الشمال ينظرون بعيون خفية إلى القرن الرابع عشر ـ قرن الحقيقة الذي ستنهض القبور فيه إجلالاً لخشخشة صفحات دفاتره الكبيرة كغيومٍ على امتداد الأبدية، حين يقلِّبها متمعِّناً في المصائر كحلاقٍ بدين. والقرن الرابع عشر هو المُنْتَظَرُ أبداً في سياق القرون، مهما بلغ تعدادها. إنه قرن مُنْسَلٌّ من الحساب إلى الحقيقة. لذلك ينتظره المنتظرون حتى لو كانوا في القرن الألف. لكن الدليل إلى معرفته بالحدس الخجول لليقين هو «العلامةُ»، التي يستطيع كل كائن تقديم براهينه على حدوثها: ميتٌ يستيقظ من غيبوبته، مثلاً. سمكة تقفز إلى اليابسة، ضاحكةً، ثم تعود إلى المياه، مثلاً. حمار يتراقص في النهر لحظة عبوره، مثلاً كثرة الشهب المحترقة، مثلاً. حبّة عنب بحجم قبضة اليد، مثلاً: علامات.. كلُّها علامات لا تنتهي، في الدّوي الخافت للأشياء صُعوداً إلى القيامة. أمّا القرنُ الرابع عشر ـ القرنُ الحاجبُ على باب القطيعة مع الزمن ـ فهو على بعد شبرٍ من العيون، لا أكثر.

و «ستيرو» ترى في صَدَفة الأرجوان «علامةً» في اتجاه اكتمال الزمن، بـالرغم من أن تلك الصـدفة ليست خـروجاً على الـطبيعـة في شكلهـا، ومقاساتها، وألوانها؛ إلّا أنها تبقى «علامةً» ينبغي أخذها في الحسبان، لأن «هبة» لم تستطع العثور على مثيل لها، في أرجاء الهضبة التي هي صورةٌ من أَزَل الكون الجاثم بين قرني ثور الأبدية الأسود.

كثيرة هي «العلامات» النفيسة التي تغاضت «ستيرو» عنها، من قبل، على ضفتي النهر، حين كانت تتقصّى أوراق الحُميِّض البنفسجية، وفطر الأشجار، حاملةً سلّتها الكبيرة المفتوحة على غيوم الله وغماماته. و ستيرو» شرهة، لا تكتفي بالحميض، والفطر، والأشنات الخضراء اللذيذة مقليَّةً مع الشحم المحـروق، بل تنـزل النهر أيضـاً، رافعة سـروالها إلى مـا فـوق الركبتين، لتتحرّى بيديها مراتع العشب المغْمور بالمياه، علّها تقـع على حنكليس شارد، أو سمكة من أسمـاك الشَّبُّوط الكثيـرة، دون خـوف من زعانفها المنشارية، أو من عضات السلطعون. لكنها لم تكن تعتبر الحشود الهائلة لحشرة السُّرْمان، بألوانها الذهبية غير المعهودة، «علامة» على أن القيامة صارت على بعد فرسخ من زمن الهضبـة. كما أنهـا لم تقم وزناً لسمندل النار، الأصفر المخطّط بجزورٍ زرقاء داكنة، وهي تنظر إليه ـ ذات ظهيرة دافئة ـ ينسلّ من الضفّة الشمالية للنهر إلى مياهه، من غير أن يظهر بعد ذلك مرّةً ثانية. لكن الأكثر مدعات للغيط هو أنها رفعت، بيدها اليسرى، سمندلاً خيشومياً أعمى إلى عينيها تتأمّل جسمه الرخويَّ، الشبيه بالقريدس وألوانه، ثم أنزلته إلى الماء وهي تقلب شفتها السفلى في تساؤل ساخر: «من أين جاء هذا الحزين؟»، دون أن تعدّه من «العلامات»!!.

قالت «ستيرو» لأخواتها إنهـا وقعت على زاحفٍ غريب، ذي وجـه مستطيل لم تجد فيه عينين أبداً، فأطلقتْهُ شفقةً عليه. ولأن المسألة ظلت في حدود تخمين جنس ذلك الحيوان، ونوع ذريته، عبر مقارنته بسامٍّ أبرصَ، فقد ضاعت محاولة تحديد الفارق: كل الزّواحف هي نفسها، من الضَّبِّ

إلى الثعبان، ومن التنين إلى اليُسْرُوع، ومن التمساح إلى السحالي، ومن الغيم - كزاحفٍ سماويٍّ - إلى الظلال التي لم يعثر أحدٌ، قط، على واحد منها منفصل عن الأرض بشبر إلاّ السراب، حيث يرتفع - في مدى الحقيقة للعين - منفصلاً عن قيظ الطريق الإسفلتي بظلّه الذي لا يمس الأرض، متشبّثاً بكلاليب الأفق ذات المعدن المسحور.

على بعض «العلامات» أن لا تندرج في سياق الذهاب العجول للحياة إلى القيامة، مثل السمندل الخيشوميِّ الأعمى، وكذلك الدَّويّ المختنق بين حدبات جبال طوروس، ممتزجاً بالأنين في انخلاع مفاصل سفينة نوح، الجاثمة - منذ نهايات المخيِّلة - على قمة «الجودي»، بكائناتها الحبيسة في حنين المياه إلى اليابسة.

من ينْصِتْ، من الهضبة، يسمع انزلاق هيكل السفينة الضخم على الصخور في بطء ساحق، لكنه متواصل منذ القرون التي لا تُحصى في مدى شحوبها. وكان الكثيرون من شعب الشمال يستيقظون من نومهم، أحياناً، مثل «جاجان بوزو»، وقد تناهى إلى أسماعهم - من ثغرات النوم - صوتُ التمزُّقات في ألواح الخشب المتحجّر، والصدى الغامضُ القادم من أعماقهم ومن الجبل البعيد معاً، كأنّما الحلقةُ المعدنية، التي تنتشل الكون من السديم، تصرُّ صريراً خافتاً في محارات الأرواح، فيجفلُ الأحياءُ الذين هم مخيلة مقذوفة من جهة الموت مخيلةٌ تعترف - دون كللٍ - أنها مقذوفة بمنجنيق من جهة الموت.

كلٌّ يُلَقِّنُ الآخرَ تواطؤه الذي لا ينتهي: الموتُ يلقِّن الحياة، والموتى يلقّنون الأحياء، واللامرئيُّ يلقّن المرئي، والمياه تلقن الحرائق، والجحيم تلقّن الفردوس، والأفق يلقّن الفراغ، والأبدية تلقن الوقت؛ - كلٌّ يلقِّن الآخرَ ديمومتَه المنبثقة من عزلتها، ليكتمل سحرُ الأرضي الذي يقف على جنبي عرش الله، حاملاً خِمالات الريش.

والصَّدفة، التي التقطتها «هبة»، هي ما لقَّنَتْهُ بحارٌ من عصر عاصف

إلى بصيرة «ستيرو» كي ترى فيها «علامةً»، لأن لا بدَّ لأي لغزٍ أن يفسح للعاديين ممرّات إلى مجاهله حتى يلمسوا السحرَ بأناملهم. و ستيرو» تعبر - في وقوفها ذلك اليوم الذي وصلت المركبات الحديدية إلى المبنى المستطيل - ممرات كثيرة بعينها الزرقاوين كخرز الجن، وتعبر معها أخواتها، وابنة أختها، والديكان «رش» و «بلك»، والكلبان «توسي» و«هرشه»، والإوزات الفضوليات الثلاث، والمنزلان، وقمةُ الهضبة، والأرض الكلسية البيضاء كورقةٍ للتّدوين، والجسر الصغير الذي لا عمر له، والنهرُ؛ كلُّها تعبر الممرات الفاتنة للُغْزِ إلى مجاهله، حيث القلاع التي لم تُحَاصَرْ بَعْدُ تمد جسورهاالخشبيةمن الأبد إلى الأبد الذي يليه بأمتار.

كان «جاجان بوزو» ساهماً في تأمُّله الغامر، ومن خلفه الكائنات النورانية تزداد كثافة كلَّما اتسعت حركة العسكريين الصارمين الذين يستطلعون المبنى ذا النوافذ التي لا تنتهي. وعلى حَدَبةِ الطريق الشرقية كانت بنات «موسى» يزددن كثافةً أيضاً في اقترابهن بعضهنّ من بعض متلاصقات، وأيديهن مخبأة تحت صدور ستراتهنّ، كأنّما يمسكن - في رقة - بقلوبهنّ الرقيقة. أما هواء الهضبة فكان مضَعْضعاً، يتدحرج كراتٍ صغيرة تحت قوائم الجِعْلان ككُرات الروث.

بالطبع، لم يكن الوقت الخريفي ذاك يسمح بظهور الجعلان السوداء، البطيئة، الكسولة. لكنها كانت موجودةً في فجوة من فجوات الوقت لم يتسنَّ إغلاقُها. وفي كل شيءٍ فجوةٌ منسيةٌ، أو فراغ منسيٌّ سَهَتْ عنه الأقدار، على أية حال: للغيم فجوات. للريح فجوات، للحقيقة فجوات وثغور. للأفق فجوات. للحجر فجوات. لليقين فجوات. للأزل فجوات. للوقت فجوات. للحياة فجوات. للموت فجوات، وللعدم فجواته مثل الفراغات الهوائية في سبيكة الزجاج. ومن الفجوات هذه تُلقي الأبديةُ بمناديلها الحرير ومناديلها الكتان لتتلقَّفها الأيدي فيغَرَقها. أمّا الجعلان، التي تدحرج الهواءَ فوق الهضبة، فكان يؤازرها - من فجوات الوقت -

حشراتٌ كثيرة أخرى، لا تُرى، مثل ذبابات اللحم الزرقاء، والسُّرفانات، والدعاسيق الصغيرة الطائرة، والنمل القطيفيُّ المنبثق من سلالة الزَّنبـوْر، والنّحل، وذبابـات أيار، والـزنابيـر الوقـواقية، وعقـارب المياه النـطَّاطة، والزيزان، والحشراتُ الطنَّانة، والحُباحب الرقيق، والجـدجد، والفَراش الطاووسيّ.

كـان الهواء يتـدحرج دَحْرجـةً من حول بنـات «موسى» الشـاخصات بأبصارهن، ودمهن، إلى المبنى المستـطيل، البعيـد قليلاً، لكنـه واضح بتفاصيل نوافذه، وبوّابته، وزواياه، ومئذنته الشبيهة بمدخنة لها كوى كبيرة مفتوحة على الجهات كلها، حيث يـرين شخصين ـ هما عسكـريان على الأرجح ـ يتخاطبان ويتلفّتان متمهلين. أما في الأسفل، فقد امتصّ المبنى الرجالَ، ذوي المعـاطف الطويلة، ولم يبق خـارجاً إلاّ الـدَّرَّاجُ وصـاحب الحصان، والحصان، فيما توزّع نفرٌ من الرجال الأقل هيبة ـ وهم حرس على الأرجح ـ على تخوم الساحة الممَّهدة بالقار غرباً ، على مرمى صرخةٍ من «جاجان بوزو» والحشد النورانيّ من خلفه.

هدير بعيد، مختنق كضربات قلب السنونو، مسَّ الغيم المطمئن في سماء الهضبة. لكن غرابـي الزرع، اللذين عبرا بنعيقهما النَّفَّاجِ ، لم تكن أجنحتهما مطمئنةً كعادة هذا الطيـر في عبوره العـالي. والصَّفاريَّـةُ، ذات الجناحين البنيين، التي لم يسبق لمثلها أن مرّت من هناك، بريشها النبيل الأصفـر كحديقـة من ذهب، بدت مـذهولـة في عيـون الكلبين «تـوسي» و«هرشه»: كانت تتخبط ـ وهي الرشيقة ـ في طيرانها؛ تدور في حلقةٍ ثم تنفلِتُ لولبياً كأنما مربوطة إلى الهواء بخيطٍ يرخي لها برهةً، ويعود فيشدُّه فيتخبَّط الطائر الذهبـيّ.

حلقاتٍ حلقاتٍ اتّسـع قلق باردٌ من المـركز الخفيِّ لـذلك الهـدير الممسك بالسماء والأرض معاً، كأنه آتٍ من تمـاسٍّ بينهما غيـر مخطَّطٍ لحدوثه، حتى أنهمـا فوجئـا فانكمشـا، حيث صار ممكنـاً قياسُ السمـاء

بالأشبار، والأرض بمسافة يقطعها صياح ديكٍ كسول. ولأول مرّة، دون أن تنتبه بنات «موسى»، أصغى الكلبان «توسي» و «هرشه»، متوقفين عن لهاثهما الأزلي المكتسَب من لا إكتراثهما، فيما توقفت الإوزات الثلاث في المسافة بين البئر وحافة الطريق الإسفلتي، مقلّصاتٍ أعناقهن الطويلة، كأنما سيخبئها داخل حصون الريش. ولأوّل مرةٍ، أيضاً، منذ صعود «جاجان» حافة الهضبة، التفت إلى النورانيين المحيطين به، مبتسماً ابتسامة باردة كمن تيقّن من حدوث الخفي المعلوم، الذي كانت نُذُرُهُ بَيِّنَةً لقنَّاصِيْ «العلامات» ومُقْتَفِييها ـ شركاءِ الريح والوقت.

لم يكن برقاً ذلك الذي أومض تحت السقف الرصاصيّ للسماء، بجناحين ثابتين كما تفعل الحدأةُ في انقضاضها الخاطف على يَرْبُوع. ولم يكن ذلك الهيكلُ الشاحب من حديدٍ لا لون له هيكلَ رخٍّ.

كانت «علامة» السماء الكبيرة تحوِّم بمراوحها فوق الرقعة الممهَّدة بالقار الأسود، بوعيدها الصاخب؛ بوعيدها الذي ترتجف منه الصاعقة. ومن ثم تعلو حتى تغيب عن الأعين، دون أن يغيبُ هديرُها، لتعود فجاءةً في انحدار مستقيم من الغيم إلى اللسان الأسود المترامي أمام المبنى المستطيل.

مراوح كأنفاس الغيب كانت تتقدّم الهيكلَ الحديديَّ، الذي دار دورتين فوق السطح الأسود، مثل طاووس حَالَ لـونُهُ في رسم من رسوم الجنّة المعلقة إلى جدران بيت «موسى»: هيكل له عرفٌ، وذيل، وجناحان؛ ومراوح لها خُيلاء الغدَّة المنتفخة فوق منقار الديك الرّومي في هياجه. وبعد تلك الدّورتين جثم الهيكلُ المستطيل صامتاً أمام المبنى المستطيل، متقابليْن دون تحدٍّ، يتأمّل أحدهما مشيئةَ الآخر التي جعلتهما شريكين في امتلاك الأرض السوداء الممهدة بالمداحل، والجرّافات، منذ الأزل، كي يلتقيا على هضبة تُلقي عليها سفينة راسيةً فوق جبل «الجودي» بظلِّها المهشَّم منذ الأَزل أيضاً.

عبرت «هبة» الطريقَ الإسفلت حذرةً، تلتفت إلى أمها وإلى المبنى، فلم تنبس «هدلة» بشيء، فتجرَّأت الفتاةُ أكثر لتمضي بخطى متردّدة صوب التُّخْمِ القريب من الأرض السوداء. وقد هبَّتْ «ستيرو» بدورها فلحقت ببنت أختها هرولةً، ولمَّا جاورتْها خفَّفت من اندفاعها: «لا تقتربي كثيراً يا هبة». قالت كلماتها وهي تمسك بِرُدْنِ سترة الفتاة الضخمة.

«أتظنين أنهم سيطلقون علينا النار؟» سألت «هبة» خالتَها الطويلة، دون أن ترفع عينيها عن الهيكل الحديديّ الذي انفتحت ثغرتان فيه، ونزل منهما شبحان غارقان في ثياب داكنة، وعلى وجهيهما قناعان من زجاج ربّما، أو هكذا توهَّمت البنتان من ذلك البعد.

«هذه طائرة. يا إلهي. هذه طائرة!» تمتمت «هبة»، فشدَّتها «ستيرو» إلى الخلف تستمهلها:

ـ قد لا تكون طائرةً يا بنتُ.

«ألم تريها هابطةً من الغيم؟» ردّت «هبة». لكن «ستيرو» أبقت يدها الحَذِرةَ ممسكةً برُدن ابنة أختها، كأنما ستسحبُها إذا استشعرتْ خطراً، وتمتمت من جديد:

ـ قد لا تكون طائرةً. أنت لم تري طائرةً من قبل.

توقفت «هبة» فتوقفت خالتُها أيضاً. نظرت إحداهما إلى الأُخرى نظرةً دافئة فيها هيبةٌ وشكٌّ معاً. ثم عادتا فتأمَّلتا الهيكل الحديديَّ صامتتين.

كانت العيون القريبة من مدرج المطار الصغير، الأسود، والبعيدةُ، تنتقل بين هيكل الطائرة وحركة العسكريين ذهاباً وإياباً إلى المبنى، يحملون صُرراً رمادية، وصناديق، وحوائج أخرى لا تبين أشكالها. وفي اللحظات تلك، المليئة بفراغ مُتَرقِّب، التفت «جاجان بوزو» إلى النورانيين، رافعاً يديه إلى أعلى، واسترسل في كلام متواصل بلغتْ مخارج حروفه جنبات الطريق الإسفلت.

لم تفهم بنات «موسى» شيئاً من كلام الرجل البعيد، على حافة الهضبة غرباً، لكنهنّ ما عهدنه، من قبل، يتحدث إلى نفسه بضخبٍ هكذا. ولمّا تحوَّلن بأبصارهنّ عنه إلى المبنى والهيكل الحديدي، كان صوتُ الرجل لا يبارح آذانهنَّ حتى بلغت الظهيرةُ الباردةُ سَمْتَها من قبَّةِ المكان. ولربما لن يبارح صوتُ «جاجان»أسماعهن إلى الأبد، ذلك الصوت المتواصل في رنينه، بحروف غير متجانسة، محطّمة، ومرتجفة أيضاً، وسط النورانيين الذين انقسموا حلقات، ثم ذابت الحلقات، وتناثرت، في ارتدادها عن حواف الهضبة إلى السفح العريض المفضي إلى العراء الكلسي الأبيض كحقيقةٍ تخونُ اللَّون.

وقتٌ جريح مرَّ على الهضبة بلهاثه وأنينه، وبطئه، قبل أن تتحركَ شفتا «هبة» الواقفة لصق خالتها: «ألا تعتقدين أنها طائرة؟»، سألتْ من أعماق حنجرتها الخجولة في موقفها ذاك. لكن «ستيرو» أمسكت بيد الفتاة المُطبقة، وفتحت أصابعها. ثم جذبت راحة اليد حتى استقرت على ردْفها، هامسة: «تحسَّسي هنا، يا هبة». فتحسَّست «هبة» ردف خالتها، التي لم تنتظر ما قد تقوله الفتاة الضخمة، متمتمةً: «إنني امتلىء»، وألوت عنقها، من الأعلى، صوب ابنة أختها مبتسمة، وهي تُنزل راحة يدها على جانب فخذها: «إنها مكتنزة. ألا تحسين ذلك يا هبة؟». فالتفتَتْ«هبة» بدورها إلى وجه خالتها، وهي تمسّد براحتها على فخذ الفتاة الطويلة: «نعم يا ستيرو. لحمُك يكتنز»، وحدّقت مليّاً في عينيها، قبل أن تضيف: «ستصيرين بدينةً يا عظام الهدهد»، فابتسمت «ستيرو» في رضا، متغاضيةً عن نعتها بـ «عظام الهدهد»، ثم أدارت وجهها صوب المبنى المستطيل. لكن «هبة» أمسكت براحة خالتها ذات الأصابع الطويلة، ورفعتها إلى صدرها قائلة: «تحسَّسي هنا يا ستيرو. تحسَّسي»، ونظرت إلى عيني «ستيرو» تستجلي فيهما ما أرادت أن تتوقَّعه. ففتحت خالتها فمها ومدَّت لسانها على نحو ساخر، متصنّعةً دَهَشاً: «يا الله! كيف خبّأتِ عني الأمر يا عظام الجاموس؟»،

فضيَّقتْ «هبة» بين أجفانها تتستَّر على الوميض الخجول في عينيها، مبتسمةً، بدورها، في رضا: «إنهما يكبران» قالت لخالتها التي تحسَّستْ صدر ابنة أختها من اليسار إلى اليمين، وهي تزن براحة يدها الواسعة حجمَ التكوُّر الخفيف لثديٍ هنا، وثديٍ هناك، مقبلينِ على جَسَاراتهما المنتظرة في حياءٍ يليق بجنون الجسد، ثم همست: «نعم. إنهما يكبران»، وضغطت على أحدهما بأصابعها فندَّت صرخة خفيفة عن «هبة» وتراجعت مجفلةً، فتمتمت «ستيرو» في مرحٍ:

ـ أأوجعتُك؟

«لا»، همستْ «هبة» وهي تشدُّ طرفي سترتها على صدرها، كأنما تحمي مملكة عمرها.

كلّ شيء كان يمضي هادئاً، في العراء الأسود أمام المبنى. حتى الهيكل الحديدي للطائرة لم يعد إلاَّ هيكلاً هادئاً في هيبته القدريّة، مهجوراً وهو الذي ملأ المكان بالفضول، وحمل إلى الهضبة تاريخاً يُقاس بهبوطه، ذلك اليوم، مستهيناً بمعاقل الغيم. وأمام ركود المشهد لم تجد الفتاتان «هبة» و«ستيرو» إلاّ أن ترتدّا على أعقابهما صوب الطريق الإسفلت، حيث تنتظرهما بنات «موسى» الأخريات، والإوزات الثلاث، والكلبان «هرشه» و«توسي».

لم يكن هناك ما تقدر الفتاتان على إضافته إلى ما رأت الأخوات اللواتي فضَّلن رَصْدَ المشهد من الحافة الترابية للطريق. وبرغم ذلك بدت لهفةٌ لا تخفى في عيونهن حين اقتربت «هبة» و«ستيرو» منهنّ، فاقتربن خطواتٍ حتى صرن على الإسفلت تماماً، ومن خلفهنّ اقترب الكلبان بلسانين يتحسَّسان فضول الهواء الذي تتنشَّقه بنات «موسى»، كما سارعت الإوزات الثلاث من وراء الكلبين، يساورهنّ قلقٌ واضحٌ من أن يفوتهنّ شيء من حديث الأخوات وحفيدة «موسى» الوحيدة ذات العظام المحبوكة.

لكن الديكين «رش» و«بلك» كانا في شأنٍ آخر، غير معنيين إلاّ بالدَّم الذي نفر من عُرفيهما تحت الضربات المُحكمة للمنقارين.

كانت مخالبهما تنزلق على إسفلت الطريق فيتّكئان على أجنحتهما، ثم يرتفعان بضغط قويّ من قفصيهما الصدريين، فيما عيونهما ـ لأول مرة ـ تتوهَّج بحمّى القتل، فلا يفرِّطان في إنقضاضات لا ضرورة لها، بل يتأمّلان، في ارتعاشٍ، كلَّ حركةَ الآخر المرتقبةَ.

كانا دون صوتٍ في عراكهما هذا، على غير عادتهما التي دَرجا فيها على الصياح الاستعراضي الكثير. كانا صامتين مرتعشين، يفتحان منقاريهما ليتزوَّدا بهواء أكثر لم تعد رئتاهما تتحصَّله من المناخير. وكانت ضربات قلبيهما أشبه بنقرٍ على نحاس أجوف. أما ريشهما فلم يكن ريشاً ذلك اليوم، بل هالات من شحوب الغيم تمسُّ جسديهما وتنفصل، تتمزّق وتلتحم، وهما يتدحرجان دائرياً على الطريق الإسفلت المنحدر شمالاً صوب الجسر الصغير الذي لا عمر له. وحين جاوزا الجسر انحدرا غرباً، من الحافة العالية للطريق، ليغيبا بين شجرات التوت.

نيقوسيا
من شباط ١٩٩٠
إلى آذار ١٩٩٢

صدر للمؤلف

- كلٌّ داخل سيهتف لأجلي، وكلّ خارج أيضاً. (شعر) ط ١: ١٩٧٣. ط ٢: ١٩٨١. ط ٣: ١٩٩٢.
- هكذا أبعثر موسيسانا (شعر). ط ١: ١٩٧٥. ط ٢: ١٩٨١. ط ٣: ١٩٩٢.
- للغبار، لشمدين، لأدوار الفريسة وأدوار الممالك (شعر). ط ١: ١٩٧٧. ط ٢: ١٩٨١. ط ٣: ١٩٩٢.
- الجمهرات (في أحوال الدم المهرَّج، والأعمدة، وهبوب الصَّلصال) (شعر) ط ١: ١٩٧٨. ط ٢: ١٩٨١، ط ٣: ١٩٩٢.
- الجندب الحديدي (سيرة الطفولة). ط ١: ١٩٨٠.
- كنيسة المحارب (يوميات) ط ١: ١٩٧٧.
- الكراكي (شعر ضمن المجموعات الخمس). ط ١: ١٩٨١.
- هاته عالياً؛ هاتِ النَّفير على آخره (سيرة الصِّبا) ط ١: ١٩٨٢.
- فقهاء الظلام (رواية). ط ١: ١٩٨٥.
- بالشِّباك ذاتها، بالثعالب التي تقود الريح (شعر) ط ١: ١٩٨٧. ط ٢: ١٩٩٢.
- أرواح هندسية (رواية). ط ١: ١٩٨٧.
- الريش (رواية). ط ١: ١٩٩٠.
- البازيار (شعر) ط ١: ١٩٩١، ط ٢: ١٩٩٢.
- «الديوان» (المجموعات الشعرية كلّها في مجلّد واحد) ط ١: ١٩٩٢.

المحتويات

سليم بركات

مُعَسْكَرات الأبد




Bibliotheca Alexandrina
1194973

دار التنوير للطباعة والنشر ص. ب: ٦٤٩٩ - ١١٣ بيروت - لبنان